

وزارة المعارف العمومية

كتاب
المطالعة للمدارس الثانوية

الجزء الثانى

الطبعة الثانية

طبع بالمطبعة الأميرية بالقاهرة
١٣٤٦ هـ ١٩٢٨ م

فهرس موضوعات كتاب المطالعة للمدارس الثانوية (الجزء الثانى)

(تابع) فهرس موضوعات كتاب المطالعة للمدارس الثانوية (الجزء الثانى)

الوطن

ينزع الطير إلى وكره الذى درج منه فلا يزال — إن ألمّ به الليل وأضلّه الظلام — يتلمّس إليه الطريق دوحةً بعد دوحة، وغصنا فى إثر غصن ، وبين ذاك ينوح بإيقاع من الحزن ، يذكي لهيب الأسى ، ويثير الشجون .

لقد تجاوز الطير فى سبيله ما تجاوز من رائع الزهر ، ويانع الثمر ، ووارف الورق ، ودانى القُطوف ، فما له لم يبتغ بين كلّ أولئك مقاما ؟ وهل هو واجد فى وكْره ما يجده فيما حوله ؟ ماءٌ رَوِىّ[1] ، وهواء غَذِىّ[2] ، وطعام شهىّ ، وحَبٌّ نثير ، وبساط نضير ، وفراش وثير ، وهل وراءَ ذلك بُغيةٌ لنفس ؟ أَجَل ! إنّه يطلب الوطن ، وله بين جوانحه معنى لا يراه فيما رآه ، فهو مَنبِت نفسه ، ومهبِط رأسه ، ومدرج طفولته ، ومرتَع حداثته ، ومجمع أُلّافه ، وملتقى أحبّائه ، فكان من الحقّ ألّا يهيم إلّا به ، ولا يحِنّ إلّا إليه .

وكذلك ترى الأعرابىّ يهبط حواضر الملك ، وأمّهاتِ المدن ، وبها ما بها مما يملأ النفوسَ غبطة ، والعيونَ جمالا ؛ فلا يصرفه كلّ ذلك عن خطرةِ الوطن ، وبكاء الدِمن[3] ؛ وما وطنُه إلّا صخور تَسفَعُها[4] الهاجرة ، ورمال تُغلى الدم ، وتَصهَر العظم ؛ وأطلال توارت رسومها ، ودَرَست معالمها ؛ ولكن هو الوطن ، منزل أهله وعشيرته ، مَعقِدِ شرفه ، ومثارِ حميّتِه ، موطنِ أُلّافه ، ومبعثُ ألفته ، هو سرّ الحياة بين جانحيه ، هو نور الوجودِ فى ناظريه ، هو كلّ شىء بين يديه .

---

(١) سائغ (٢) صاف (٣) جمع دمنة وهى ما يتركه الناس عند رحيلهم زهدا فيه (٤) تسفعها تلفحها والهاجرة حرارة الظهر فى الصيف .

سحيقة تلك طويت عليها النفوس، ونهض على دعائمها نظام الكون، وما مرابض الوحش، ومعاطن الإبل، ووُكنات الطير، ومسارب الحشرات، إلّا صنوفٌ من الوطن لاتستبدل بها ذواتُها أرائك المُلك، ولا شُمّ القصور .

أمّا أنت يا ربيبَ النيل، وسليل الهداة الأوّلين ، والملوك الفاتحين ، فأرضك مهبِط المدنيّة الأولى، ومنبت العلم القديم، ومرتقى الشرفِ العريق، والمجدِ الوثيق ، تجاوز أهلها مَناط النجم ، وجَنَوْا ثمراتِ الأمل ، ونشروا مطارف الحكمة ، وبَنَوا ماتطامن له جبين الدهرْ ، ووقفتْ دونه مدارك البانين ، على حين كان الناس فى أرجاء الأرض ، وفوق مختلِف البقاع ، يَخْصفون عليهم من ورق الشجر ، ويسكنون أعماق الكهوف ، ويَهيمون فى شعاب الجهل ، ويتهاوَوْن على موارد الهلاك .

فى ذلك الزمن القصىّ ودون تلك الحِقَب السحيقة ، وقف الدهر على باب "طيبة" ، ورجفت الأرض بين يدى "منف" ، وانبعثت إشراقةُ العلم من "عين شمس" ، فانحسرتْ غياهب الجهل ، وتهتّكت حُجُب الضلال .

ذلك وطنك أيّها المصرىّ ! فإن أنت أنهلته ماء مهجتك ، وأظللته أحناء صدرك، ووقفتَ عليه خفقات قلبك، وخطرات سرائرك، فما كان ذلك كثيرا .

على أنّ لوعة الحبّ، وخفقة الأمل، لاتغنيان عنك من وطنك شيئا إذا لم تنزِعا بك إلى منازع أسلافك ، من عمل مجيد ، وخلق حميد .

ألا وإنّ نيل مصر، نهر الفردوس ، ووشاح مصر المحلّى، لخليق ألّا يرتشف ماءه إلّا العاملون المجِدّون .

لقد كان بنو النيل فيما سلف من أيامهم يجمعون من مضاء العزم، وسَناء الرأى ، ونُبل الخليقة، وحماية الحقيقة؛ ما تخشع له شمّ الجبال ، وتتقطّع دونه نياط الآمال ؛ فإن أحببت أن تكون صاحب ملكهم ، وولىّ ديارهم ، فانهج نهجهم ، واحرص على فضائلهم ، حتّى يكون إلى مصر مرجع المجد كما كان مشرقه من سمائها، وحتّى يعلم الناس أنّ منابتِ النيل متشابهة الدوح والثمر ، متآلفة الرَّوح والزَّهَر ، وحتّى يقوم المصرىّ فى كلّ مجتمع ونادٍ فيقول — ويحقّ مايقول :

وإنّى من القومِ الذين هُمُ هُمُ إذا مات منهم سيّدٌ قام صاحبُه
نجومُ سماءٍ كلّما غاب كوكبٌ بدا كوكبٌ تأوى إليه كواكبه

الحمام

(١)

الحمام أنواع كثيرة وهو طائر أنيق الشكل، حديد البصر، قوىّ السمع، سريع الطيران ، صبور على الجوع لا على العطش، يعيش من العمر نحو ثمانى سنوات .

منه الفاختة . وفى صوتها وضوح وحسن وصلصلة . من أجل ذلك سُمّيت بالصلصل. تكثر فى المنازل، وتربّى فى الأبراج ، وتضرب العرب بكذبها المثل فتقول أكذب من فاختة يزعمون أنّها تصيح وسط النخيل بصوت حكايته "هذا أوان الرطب" وطلع النخيل لم يظهر وفى ذلك يقول الشاعر :

أكذب من فاختة تقول وسط الكَرَب[1]
والطلع لم يبد لها هذا أوان الرطب

---

(١) أصول السعف .

ومن الحمام نوع اسمه المسَرْوَل قليـل النسل، يكسو أرجله ريش كثيف كأنّه السراويل . ومنـه القلّاب الذى يتقلّب فى الهواء ، والزَيّاف الذى يستـدير ذيله ويدفع مقدّمه بمؤخره ويسـدل جناحيه ، ويظل فى اهتزاز واضـطراب وهو كثير فى المنازل . ومنه القطا الذى يضرب المثل بصدقه وهدايته فيقال "أهدى من القطا" و"أصدق من القطا" . ومن أنواعه الجميلة القُمْرِىّ وهو حسن التغريد والتطريب ، وخصوصا بالليل ، يألفه الناس لرخامة صوته . والحمام حنان إلى وطنه ، طلّاب لوَكْره ، يهتدى إليه من أمد بعيد . وقد تُقْنَص الحمامة فتظلّ نائية عن ديارها أعواما فإذا ما حانت لهـا الفرصة ركبت متن الريح قافلة إليهـا . وهو سريع الطيران ، شـديد الوفاء ، كثير التعلّق بمنزله : يقيم فى وَكْره فتؤخذ صـغاره من تحته فتذبح ثم لا يفارق الوكر . وبالجوارح الطير قَرَم(١) إلى لحمه ، وميلٌ إلى العدوان عليه . ولقد ترى الحمامةُ الشاهينَ فيعتريها ما يعترى الفأرَة(٢) صادفها السنّور والشاةَ عرض(٣) لها الذئبُ . أمّا لطفه ودَعَته ونظافته وكرم صفاته فقد سار بذكرها المثل . وللحمام حنين وتغريد تهتزّ له القلوب ، وتستقيد(٤) له النفوس : يسمعه المحزون فيهتاج فيه كامل الأسى ، والغريب فتثور به لواعج الشوق إلى أوطانه . سمع أحد(٥) الشعراء حمامة تغرّد وكان وحيدا نائيا عن وطنه فقال يناجيها :

أقول وقد ناحت بقربى حمامةٌ * أيا جارتا لو تعلمين بحـالى

أيا جارتا ما أنصف الدهر بيننا * تعالَىْ أقاسمْك الهموم تعالى

---

(١) رغبة شديدة فى أكل لحمه (٢) الفأر جمع والفأرة واحدة تطلق على المذكر والمؤنث (٣) ظهر.
(٤) تنقاد (٥) أبو فراس الحمدانى الشاعر الفارس .

وللشعراء فى مناجاة الحمام شعر جميل قال توْبة :

حمامةَ بطن الواديين ترنّمى * سقاكِ من الغرّ[١] الغوادى مطيرها
أبينى لنا لا زال ريشك ناعما * ولا زلت فى خضراء دان بريرها[٢]

وقال غيره :

أحمامةَ الوادى بشرقىّ الغضا * إن كنت مُسعِدة[٣] الغريب فرجّعى[٤]
إنّا تقاسمنا الغضا فغصونُه * فى راحتيك وناره فى أضلعى

وما أحسن قول بعض الشعراء :

ربّ ورقاءَ[٥] هتوف بالضحى * ذات شجو[٦] صدحت فى فنن[٧]
ولقد تبكى فما أفهمها * ولقد أبكى فما تفهمنى
فبكائى ربّما أرّقها * وبكاها ربّما أرّقنى
غير أنّى بالجوى[٨] أعرفها * وهى أيضا بالجوى تعرفنى

وقد استهوى الأفئدةَ جمال الحمام فعقدت على محبّته ، وصار له فى منازل الخلفاء مراح ومغدى . هذا الرشيد على جلال قدره ، ووفور علمه ، وعظيم ورَعه ، كان يأنس بالحمام ، ويهدى إليه فينال من نفسه مكانا رحبا . وقد كان للحمام فى الجاهليّة منزلة عاليـة فيرسمونه بجانب بعض أوثانهم . وله الآن فى الحرَم المكىّ مرتع خصيب فالناس يتنافسون فى تقديم الطعام إليه . وهنالك طائفة من الناس يعرضون الحبّ

---

(١) جمع غرّاء وهى البيضاء والمراد السحب والغوادى الذواهب والمطير الممطر (٢) أول ثمر الأراك
(٣) مسعفة (٤) رددى صوتك بالتغريد (٥) حمامة لونها كلون الرماد والذكر أورق (٦) حزن
(٧) غصن (٨) الجوى داء فى الجوف لا يطيب معه الطعام والمقصود به الحزن .

على الحجّاج فيشترونه لإطعام الحمام . وقد ضرب بأمنه المثل فقيل "آمن من حمام الحمى" وقد عرف الحمام ذلك فتوافر(١) فى رحاب المسجد الحرام :

تسقط الطير حيث ينتثر الحـ * ـب وتُغْشى(٢) منازل الكرماء

وأهل الصين يتعرّفون بختهم بالحمـام فيضعون أوراقا فيها عبارات الخير والشر فى طبق ويريدون(٣) حمامةً على التقاط إحداها فإن كان فيها الخير استبشروا ، وإلّا تطيّروا . وتلك عادة تدلّ على عنايتهم بشأن الحمام ولكنّها عادة ممقوتة يأباها العقل والدين :

لَعَمْرُك ما تدرى الطوارق بالحصى(٤) * ولا زاجرات(٥) الطير ما الله صانع

الحمـام

(٢)

حمـام الزاجل(٦)

عرف الناس قديما من طباع الحمام سرعة الطيران ، وشدّة الحنين إلى الأوطان ، والصبر على الجوع ، فاتّخذوا منه بريدا يربط أجزاء الممالك بعضها ببعض . وأتى عليه حين من الدهر قام بعمل البرق فطوّق العالم بقلادة من المعروف ومنةٍ لا تزال بين الناس مأثورة ، فقد كانت الحمامة تحمل رسائل الملوك إلى الأقيال(٧) والعمّال ورؤساء الجنـد فى أطراف الدولة فتنطلق بها كالسهم فارق القوس ، وتشقّ جوز(٨) الفضـاء ، فوق الأرض والمـاء ، حتّى تؤدى الأمانة موفورة ، فتتّصل أجزاء المـالك ويستتبّ الأمن فى البلاد وتنظّم بذلك الأحوال ، وما ذلك إلّا بفضل رسل الحمام :

---

(١) اجتمع (٢) ينزل بها (٣) يكرهونها (٤) اللاء يتعرفن البخت بطرق الحصى (٥) زجر الطـير أن يرمى المرء الطائر بحصاة أو يصيح به فان ولاه فى طيرانه ميـامنه تفاءل به وإن ولاه مياسره تطير وتشاءم (٦) الزجل إرسال الحمام (٧) جمع قيل وهو الملك دون الملك الأعظم (٨) وسط .

خفرٌ تفوق الريح فى طيرانها * لا بعد بين غدوّها ورواحها
تأتى بأخبار الغدوّ عشيّة * لمسير شهر تحت ريش جناحها
وكأنّما الروح الأمين[1] بوحيه * نفث الهداية منه فى أرواحها

وقد اعتمد العالم على الحمام فى ذلك منذ القرن التاسع قبل الميلاد . وكان رجل من جزيرة (أوجين) من جزائر اليونان يختلف[2] إلى أثينا ليشهد الألعاب الأُلُمْبِيّة قبل الميلاد بنحو ثمانية قرون فكان يرسل إلى بلده بعد أن يظهر على أنداده حمامةً ويعلّق فيها غصنا من الأُرْجوان[3] يجعله عنوان الانتصار . وكان الذين لا يتيسّر لهم شهود سباق العجلات (بروما) قديما يوفدون غلمانهم أو أصدقاءهم بدلا منهم، حتّى إذا انتهى السباق أطلقوا إلى موفديهم حمائم معلمة بصبغ يعرف به الحزب الفائز. وفى سنة ثلاث وأربعين قبل الميلاد حاصر "أنطونيوس" مدينة مودينا فأرسل رئيس حكومتها رسالة فى عنق حمامة إلى حاكم إحدى المدن فردّ عليه بمثلها ، وقد تكون هذه المرّة الأولى التى اتّخذ فيها بريد الحمام فى الحروب ، ولم يعرف الفَرَنْجة رسل الحمام إلّا فى سنة ألف وثمان وتسعين بعد الميلاد حينما طوّقوا "أورشليم" فأرسل القائد المحاصر رسالة جوّيّة مع حمامة فعدا عليها طير جارح وأسقطها بين خطوط الصليبيّين فعثروا على الرسالة واطّلعوا على نيّات المسلمين . وقد كان لحمام الرسائل أيّام الدول الإسلاميّة شأن عظيم فقد عُنِى به خلفاء بنى العبّاس كالمهدىّ وتنافسَ رؤساءُ العراق فى اقتنائه والتوفّر[4] على تربيته، ولَهِجوا بذكره وتغالَوْا فى ثمنه حتى بيع الفرد الفارِهُ[5] منه بسبعمائة دينار . وبالغ الفاطميّون فى العناية به حتّى أفردوا له ديوانًا تقيّد فيه أنسابه وصفاته

---

(١) جبريل عليه السلام (٢) يتردد عليها (٣) شجر لونه أحمر (٤) الانصراف اليها يقال توفر الرجل على كذا صرف إليه همه (٥) الحاذق .

وأسماؤه . وجاء من بعدهم "محمود نور الدين" ملك حلب ففاقهم فى ذلك الشأن . وقد ذكر المؤرخون أنه لمـا اتسعت رقعة مملكته ربط أجزاءها بالحمام بجلبه وعنى به وفرّقه على الأقطار وأدخله مصر وكان أشهره العراقى المطوق بالبياض فقد شهر بسرعة التعلّم والدّجن[1] والفراهة . وأقام له فى الطرق أبراجا عدّة فى كلّ برج حرّاس يراقبون الجو ليلا ونهارا . وكان من محطّات طريق الشام القلعة وبلبيس والصالحيّة . فإذا حدث أمر ذو بال كتبت الرسالة على ورق غاية فى الرقّة يسمّى ورق الطير ووضعت فى قارورة[2] من رقيق الذهب وعلّقت تحت جناح الحمامة أو فى عنقها ثمّ تطلق وتتبع بمثلها خوف أن تضلّ إحداهما أو يعدو عليها عادٍ فعند ذلك تصل الرسالة مع الحمامة الأخرى . وكان اسم السلطان يكتب على منقار الطائر ورجله وإذا وصل إلى الغرض المقصود أسرع رئيس الحرس ففكّ الرسالة وانطلق بها من فوره[3] إلى من هى له كائنا من كان فلا يلبث هذا أن يتناولها مؤثرا[4] ذلك على كلّ ما عداه من شؤونه . ولم يعد فى اقتنائه والتوفّر على تربيته غضاضة حتّى على العلماء والعظماء . وممّا يساق مساق الطُرَف[5] فى هذا البحث ما رُوِى من أنّ حمامة طارت من (القسطنطينيّة) إلى خليج فارس فطار صيتها وتنافس القوم فى اشترائها فظفر بها واحد بألف دينار . وأن رجلين بالشام تراهنا فأرسلا حمامتين إلى (الإسكندرونة) ليعرفا أيّهما أسرع طيرانا وأهدى سبيلا . فعلت إحداهما فى الجو حتّى تراءى لها ماء الخليج الفارسى فحسبته بحر الروم فجدّت فى الطيران نحوه وطال بها السفر فبلغت الأخرى الغرض وعادت مسرعة فجنّ بها صاحبها سرورا وظَفِر بالرهان واستشاط الآخر غيظا وبعد ثلاثة أيّام آبت الحمامة فعاجلها بالذبح فوجد فى جوفها حبّا لا ينبت

---

(١) ألفة البيوت والركون إلى الناس يقال دجن الطائر (من باب قتل) بالمكان أقام به وألفه
(٢) زجاجة (٣) لوقته (٤) مفضلا (٥) جمع طرفة وهى ما يستملح ويستظرف .

فى غير جزيرة "سرنديب" بالهند فندم على الفتك بها حين لا ينفع الندم وظهر أنها قطعت نحو ثلاثة آلاف ميل فى ثلاثة أيام . وقد كانت أخبار سواحل الشام وسورية ترسل إلى داخل البلاد بالحمام فقنص تاجر حمامة فوجد معها رسالة تنبئ بأن العفص قد رخص بإنجلترة فبادر إلى شراء مقدار وفير منه حصل له منه ربح قدره مائة ألف ريال .

وروى صاحب صبح الأعشى أن العزيز ثانى خلفاء الفاطميين بمصر ذكر لوزيره أنه ما رأى (قراصية)[1] بعلبك فأبرد[2] الوزير لساعته إلى من تحت إمرته بدمشق مع حمامة أن اجمع ما لديك من حمائم مصر وعلّق بكلّ واحدة حبّات من القراصية ، فما هى إلّا فترة من نهار حتّى جاءت الحمائم فتلقّاها وجمع ما علق بها وقدّمه بين يدى العزيز فكان ذلك إحدى الغرائب . وما زال الحمام مضطلعا بعبئه ، وَفيّا بعهده ، أمينا على ودائعه ، حتّى أراحه من وعثاء السفر اختراع البرق الكهربائى فى منتصف القرن التاسع عشر للميلاد . ولكن لم يعصم الحمام ، من صروف الأيّام ، ولم يصنه من أذى الإنسان جماله الرائع ، وصيته الذائع ، وصنيعته السابقة ، بل قلب له الزمان ظهر المجنّ[3] ، فذهب باحترامه ورعايته : وجعله هدفا تنثر لصيده الكنائن[4] ، وسلوة يتسلّى بها ذوو المال والبطالة ، ووسيلة من وسائل الميسر[5] المرذولة ، تستنزف الأموال ، وتفسد الأخلاق ، وتغرس فى النفوس القسوة على الحيوان ، وتنزع منها المودّة والإخاء ، وتودعها العداوة والبغضاء . كان التلهّى بتطيير الحمام مصابا يحتمل ، أمّا مصايد الحمام فخطب جلل[6] ، وبلاء نزل ، ونكبة نُكبت بها الأمّة ، وخطر داهمٌ يهلك ثروتها ، ويفسد أخلاقها ، تعدّدت أرزاؤه ، وتكاثرت أضراره .

---

(١) فاكهة معروفة (٢) أرسل البريد (٣) المجن الترس وهو ما يتستر به فى الحرب اسم آلة من جنه إذا ستره ، وقلب ظهره عند العرب يفيد نقض العهود ونفى السلم والتهديد بالحرب (٤) جمع كنانة وهى جعبة السهام (٥) القمار (٦) مصاب عظيم .

حاتم الطائى

(١)

الكرم من أخلاق العرب التى ألبستهم ثيـاب المجد والشرف ، وملكتهم أزمّة المكارم ، فقد كانوا شعوبا وقبائل ، يتفاخرون بالأحساب والأنساب ، وكان الجود أجلّ مفاخرهم ، وأبقى مآثرهم ، تنافسوا فيه فبلغوا غايتـه وضربوا فيه بسهم رابح :

ضربوا بمدرجة[1] الطريق بيوتهم * يتقارعون على قِرى[2] الضيفان

ويكاد موقدهم يجود بنفسه * حبّ القرى حطبا على النيران

ومن أجوادهم المساميح ، وأبطالهم المغاوير ، وعظمائهم الأمجاد ، وفتيانهم الأنجاد "حاتم بن عبد الله بن سعد الطائى" سار بذكره المثل ، فطبّق السهل والجبل ، وتأرّج[3] شذى جوده فعطّر الأندية . وطار صيته فى جو جزيرة العرب فغار وأنجد ، وأتهم وأعرق ، ثمّ عرّج على سائر الآفاق . فترك الألسنة رطبة بالثناء عليه ، لاهجة بتعداد مآثره ، وسرد مكارمه . وجعلت أنفس الكرام تترسّم آثاره ، وتتنسّم أخباره ، فخلّدت سيرته وإن تكن طوته الأيّام ، وصار رهن الترب والرجام[4] .

ردّت صنائعه عليـه حياته * فكأنّه من نشرها منشور

نشأ حاتم فى جبل طيّئ من جزيرة العرب بين الصخور والنجود . فألِف اقتحام الأخطار وأصبح فى الحرب بطلها المظفّر . واكتسب النخوة والإباء فكان أثبت من

---

(١) المعترض والمنعطف والممر (٢) ما يقدم للضيف (٣) تأرج فاحت رائحته والشذى حدّة ذكاء الرائحة (٤) جمع رجمة كغرفة وهى حجارة مجموعة والمراد القبر .

الطود قلبا ، وأمضى من الصارم عزما ، وأسمى من النجم نفسا . وترعرع بين لُسن (١) مقاولٍ تحت سماء جزيرة العرب الصافية ، وشمسها الوضّاءة ، ونجومها الزاهرة . ودرج فوق صحرائها الفسيحة ، ورمالها العُفْر (٢) ، فصفت قريحته ، ورقّت فى الشعر عبارته ، وعذب بيانه . فبينا هو أحد الفتيان فى الميدان ، إذا هو فارس فى حَلَبات البيان ، وقد شب بين قوم يشترون الحمد بالنوال (٣) ، وأرضعته لبانَ الكرم أمّ كريمة سارت بجودها الركبان ، فلا عجب أن كان فى القوم سيّدا لايبارى ، وفى المكرمات غيثا مدرارا . وصار السخاء له عادة لزمته فى غناه وفقره ، وكم عنّفه المعنّفون ، ولجّ فى لومه اللائمون فطوى عن كلّ ذلك كشحا (٤) ، وشرح بالحمد صدرا ، وأتلف الطريف والتالد ، وادّخر الثناء الخالد .

وقد علم الأقوامُ لو أنّ حاتما ✽ أراد ثراءَ المال كان له وَفْر (٥)

لقد كان يُثرِى فما يُبْطره الغنى ، ويُعسر فما يستذله الإملاق ، بل كان جنابه مُمرِعا (٦) ، وربعه للعفاةِ مَرْتَعا ، لايغيّره فقر ولا غنى ، يُفيض على القوم من خيره ، ويرضيهم فى غناه وفقره ، وما أكرم نفسه وأعفّها إذ يقول .

غنينا زمانا بالتصعلك والغنى ✽ كما الدهرُ فى أيامه العسر واليسر (٧)

فما زادنا بَأْوا على ذى قرابة ✽ غنانا ولا أزرى بأحسابنا الفقر (٨)

وقد ينال منه الفقر ، ويعضّه العُدْم بنَابه (٩) ، ثمّ يلمّ به الضيف وقد بات أهله على الطوى (١٠) ، وأولاده من الجوع يئنّون فينحر لضيفه راحلته أحوجَ ما يكون

---

(١) جمع ألسن وهو الفصيح البليغ والمقاول جمع مقول وهو المنطيق (٢) جمع أعفر من العفرة وهى بياض تعلوه حمرة (٣) العطاء (٤) الكشح الجانب ومعنى الجملة (تركه) (٥) وفر كثير (٦) مخصبا (٧) أقنا فيها (٨) زهوا وافتخارا (٩) ينزل به (١٠) الجوع .

إليها ، ولو أمسك ما لامه فى ذلك لائم ، ولكنّها العادة ملكت نفسه ، ولم يجد عنها محيصا :

تعوّد بسط الكف حتّى لو أنّه * ثناها بقبض لم تطعه أنامله

وقد جمع إلى شجاعته النادرة ، وسخاوة نفسه العالية ، كثيرا من الأخلاق الفاضلة فكان عفيفا ذا مروءة وحياء ، إذا أسر أطلق ، وإذا عاهد وفى ، وكان لا يقتل وحيد أمّه .

مكارم لجّت(١) فى علو كأنّها * تحاول ثأرا عند بعض الكواكب

ويدلّنا على أنّ الجود فيه موروث أنّ أمّ حاتم "عتبة بنة عبد الله" من أندى النساء يدا لم تكن تخيّب عافيا(٢) ، ولا تبقى من المال باقيا ، وقد ضيّق عليها إخوتها وغلّوا يديها عن الجود خشية أن تأتى على جميع ما لهم ، فلمّا أحسّوا ألمها أعطوها طائفة من الإبل فجاءتها امرأة من "هوازن" فأنهبتها جميع ما ملكته ، ولم يزدها الحرمان إلّا استرسالا(٣) فى الكرم .

ولمّا ترعرع جعل يخرج طعامه فإن وجد من يؤاكله أكل وإلّا طرح الطعام ، فلما أحسّ أبوه منه ذلك كلّفه رعى الإبل فكان يتفقّد الناس فلا يجدهم ، وبينما هو ذات يوم يتفقّدهم أقبل ثلاثة من حاملى لواء الشعر فى الجاهليّة يريدون "النعمان" فسألوه هل من قِرى ؟ فقال تسألوننى عن القرى والإبل أمامكم فنزلوا ثمّ نحر لهم ثلاثا من كرام الإبل فقالوا إنّما أردنا اللبن وكانت بكرة تكفينا فقال إنّى لأعرف ذلك ولكنّى رأيت وجوها مختلفة وألوانا متباينة فعلمت أنّ البلاد غير واحدة فأردت أن أكرم فى أشخاصكم قبائلكم جميعا ، فامتدحوه ، فقال : لقد زاد

---

(١) تمادت فى العلو ولازمته (٢) العافى المحتاج السائل (٣) تماديا .

فضلكم على ما قريتكم به فقد عاهدت الله أن أضرب عراقيب الإبل أو تقتسموها ففعلوا فنال كلّ واحد تسعة وتسعون بعيرا . ولمّا علم أبوه بذلك عوّل على ألّا يساكنه فتركه وانصرف . ولكنّ ذلك لم يثن حاتما عن الجود بل ازداد بعروة الكرم استمساكا وما أعزّ نفسه وأسخاها ، وأثبت عزيمته ، وأقوى شكيمته (١) إذ يقول وقد هجره أبوه :

وإنى لعفُّ الفقر مشتركُ الغنى * وتارك شكل لايوافقه شكلى
وشكلى شَكْلٌ (٢) لايقوم لمثله * من الناس إلّا كلّ ذى نيقة مثلى
ولى مَعَ بَذْل المال فى الحرب صولة * إذا الحرب أبدت عن نواجذها العُصل (٣)

حاتم الطائى

(٢)

وقد تزوّج حاتم «ماويّة بنتَ عَفْزَر» وهى سيّدة من أشرف بيوتات العرب، فلمّا رأت ما هو عليه من السَّرَف فارقته فدعا ولده وهبط بطن وادٍ ثم قدِمَ ضيفٌ على بيت ماويّة يريدون حاتمـا فضاقت بهم ذرعا (٤) وأوفدت جاريتها إلى حاتم فلمّا انتهت إليه وأخبرته خبر ضيفه فرح واستبشر وأتى بناقتين ونحرهما فأكلوا منهما فقالت «ماويّة» : هذا الذى تركتك من أجله . وستترك ولدك ولا مال لهم . ولكنّ نفسَ حاتم المفطورةَ على السخاء لم يثنها عن المعروف لوم وفى ذلك يقول :

هل الدهر إلّا اليومُ أو أمسِ أو غدٌ * كذاك الزمان بيننا يتردّد
إذا ما البخيل الخِبُّ (٥) أخمد ناره * أقول لمن يَصْلُون نارِىَ أوقدُوا

---

(١) أقوى عزيمة ومعارضة (٢) النيقة التجود فى المآكل والملابس (٣) العصل جمع أعصل وهو المعوج فاعوجاج نواجذ الحرب كناية عن شدتها (٤) ذرع الانسان طاقته وضاق به ذرعا عجز عن احتماله (٥) المخادع .

ومن عجيب مايروى عنه أنه خرج فى الشهر الحرام فى حاجة له فلمّا كان بأرض «عَنَزة» استجار به أمير وناداه «يا أبا سَفّانة» أهلكنى الإسار فقال ويلك قد ظلمتنى بتنويهك باسمى فى غير بلاد قومى ، ثمّ اشتراه من بنى عنزة وأقام فى القيد مكان الأسير حتّى فدى نفسه فأطلقوه وتلك مكرمة يتضاءل عندها كلّ ثناء .

وحدّثت ماويّة قالت كلّ أمره عجب : فقد أصابت الناس سَنَةٌ[1] فأهلكت الخفّ والظِلْف[2] فأدركنا الجوع ليلة فما زال يعلّل[3] ولديه «عَديّا وسَفّانة» حتّى ناما ثمّ تناومتُ إشفاقا عليه وما بى من نعاس . وبينما نحن كذلك أقبل شخص بباب الخباء فقال حاتم من هذا ؟ فإذا امرأة تقول «يا أبا سَفّانة» أتيتك من عند صبية يتعاوَوْن كالذئاب من الجوع فقال علىّ بهم فلأُشبعنّهم فقمت مسرعة وقلت له بماذا يا حاتم ؟! وما نام ولداك إلّا بالتعليل . فقال لأشبعنّهم مع ولديك ثمّ قام إلى فرسه وذبحها وأضرم النار وأيقظ ولديه وأعطى المرأة شَفرة وقال اشتَوِى وكلى وذهب إلى بيوت الحىّ فنبّه الناس فأقبلوا يأكلون وهو جالس ناحية متقنعا بردائه ينظر إليهم قرير العين بما أسداه من معروف .

وكان حاتم إذا أظلم الليل يقيم غلاما له يوقد النار باليَفَاع[4] ليهتدى بها الضيوف ويقول له :

أوقد فإنّ الليل ليلٌ قُرّ[5] * والريح يا غلام ريحٌ صِرٌّ[6]
عَلّ يرى نارك من يمرّ * إن جَلَبَتْ ضيفا فأنت حرّ

---

(١) الجدب يقال أرض سنهاء أى أصابها الجدب (٢) الخف للبعير والظلف للشاة والبقرة ونحوه والمقصود أهلكت الماشية لشدة جدبها (٣) يلهى (٤) ما ارتفع من الأرض (٥) بارد (٦) باردة .

فأين من هذه النفس الكريمة نفوس تتوارى من الضيف فَرَقًا[1] ، وتنفر منه إشفاقا على متاع زائل، وحُطام بائد، وحرصا على جمع المال وكنزه ثمّ تتركه أكداسا لوارث يَذْرُوه[2] ذات اليمين وذات الشمال فلا تخلّف إلّا المذمّة والتعيير ولعذاب الآخرة أشدّ :

يُفْنِي البخيل بجمع المال مدتّه * وللحوادث ما يُبْقِي وما يَدَعُ

إنّ الاقتصاد حسن مطلوب ولكنّ البخل والكزازة[3] خُلُق مرذول ، فالعاقل من يجمع بين الاقتصاد والسخاء ويجعل فى ماله حقّا معلوما للسائل والمحروم .

وقدسرى الجود فى عقب حاتم فكانت ابنته «سفّانة» من أجود نساء العرب تهب للناس جميع ماتصل إليه يدها ، ولا غرو[4] فالولد سرّ أبيه . وقد ذاع فضل حاتم حتى ملأ نبؤه أسماع العرب والعجم فتاقت النفوس إلى معرفة أحواله والوقوف على أخباره . فقد أرسل قيصر الروم حاجبا من حجّابه فى طلب فرس لحاتم سمع أنّه يَضِنّ بها ويُعِزّها ويبالغ فى إكرامها وإنما يبغى بذلك سبر[5] غَوره ومعرفة مدى[6] سخائه . فلمّا دانى الحاجبُ ديار طيّئ ودخل على حاتم بالغ فى الحفاوة به على غير علم بما جاء له ولمّا أبطأ الرعاة بالإبل فى المرعى قام فذبح لضيفه الفرس وقدّم إليه الطعام ثمّ أعلمه الحاجب بأنه رسول قيصر وأنّه يستميحه فرسه التى اشتهرت بالعَتاقة بين الأفراس فاغتمّ حاتم وأخبره بما فعل فأكبر الحاجب فعله وقال لقد رأينا منك أكثر مما سمعنا .

هذا قل من كثر مما يؤثر عن حاتم طيّئ وهو كاف فى إظهار ما انطوت عليه نفسه من حبّ الخير، والكَلَف بالمعروف، والرغبة الصادقة فى اصطناع المكارم . أمّا شعره فرائق

---

(١) خوفا (٢) ينسفه و يفرقه (٣) الشح (٤) لا عجب الفعل غرا يغرو (٥) سبر الجرح تعرف عمقه ، وغور كل شىء قعره ، والمراد أنه حاول الوقوف على مبلغ جوده (٦) غاية .

حسن الأسلوب ، جَزْل العبارة ، يصوّر علو نفسه وسعة فضله وإنّ من يجيل الفكر فى تضاعيف[1] ألفاظه ومعانيه ليرى نفس ذلك الجواد العظيم مصوّرة من مكارمَ وعفةٍ ومروءةٍ وشجاعةٍ وإخلاص . فشعر حاتم مرآة نفسه وصحيفة مجده : من ذلك قوله فى قصيدة رائعة المعنى عامرة الأبيات :

أريـنى جوادا مات هزلا[2] لعلّنى * أرى ما ترين أو بخيـلا مخـلّدا
وإلّا فكفّى بعض لومك واجعلى * إلى رأى من تلحَيْنَ[3] رَأيَك مسندا
يقولون لى أهلكتَ مالك فاقتصد * وما كنتُ لولا ما تقولون سيّدا
كلوا الآن من رزق الإله وأيسروا * فإنّ على الرحمن رزقـكمُ غدا

وإنّ البيت الأخير ليدلّ على عظم ثقته بالله تعالى ، واعتماده عليه ، وذلك يزيده رفعة إلى رفعته .

ومن جيّد قوله فى إبائه الإذعان للوم من لامته على الإتلاف وتمسّكه بأهداب المكارم واحتقاره جمع الحُطام الزائل وحبّه كسب الثناء الخالد ، قوله من قصيدة طويلة :

أماوىّ[4] إنّ المـال غادٍ ورائحٌ * ويبقى من المال الأحاديثُ والذكْرُ
أماوى إنّى لا أقول لسـائل * إذا جاء يوما حلّ فى مالى النَّـذْر[5]
أماوىّ ما يغـنى الثراء عن الفـتى * إذا حشرجَتْ[6] يوما وضاق بها الصدْر
أماوىّ إن يصبح صداى بقَفْرة[7] * من الأرض لا ماءٌ لدىّ ولا خمر
ترى أنّ ما أنفقت لم يك ضرّنى * وأنّ يَدى ممّا بخلت به صِفْرُ[8]

---

(١) تضاعيف الشىء أثناؤه وأوساطه (٢) هزالا وضعفا (٣) لحاه يلحاه لامه (٤) مرخم (ماوية) زوج حاتم (٥) الدية (٦) حشرجت الروح ترددت فى الصدر لقرب مفارقتها للجسم (٧) أى إذا مت وصرت فى قبر بمكان قفر (٨) خالية .

ومن جيد كلامه قوله من قصـــيدة غرّاء تضمنت كثيرا من الحكم الرائقة، والعظات البالغة .

ألا لا تلومانى على ما تقـــدّما * كفى بصروف(١) الدهر للـــرء محكّما(٢)

فإنّـــكما لا ما مضى تدركانه * ولســت على ما فاتنى متنـــدّما

فنفسك أكرمها فإنّك إن تهُنْ * عليك فلن تلقى لها الدهرَ مكرما

تحلّم على الأدنَيْن واستبق ودّهم * ولن تستطيع الحلم حتّى تحلّما

وذو اللب والتقوى حقيق إذا رأى * ذوى طَبَع(٣) الأخلاق أن يتكرّما

وأغفـر عوراء(٤) الـكريم ادّخاره * وأُعرض عن شتم اللئيم تكرّما

ولا أخذُل المولى(٥) وإن كان خاذلا * ولا أشتم ابن العم إن كان مُفحما(٦)

لحى(٧) الله صـعلوكا مُناه وهمّـه * من العيش أن يلقى لبوسا ومَطْعما

وقد مات قبيل الإسلام، وحكى عن على "كرّم الله وجهه" أنّه قال ياسبحان الله ما أزهد كثيرا من الناس فى الخير: عجبت لرجل يجيئه أخوه فى حاجة فلا يرى نفسه للخير أهلا، فلو كنّا لا نرجو جنّة ولا نخاف نارا ولا ننتظر ثوابا ولا نخشى عقابا لكان ينبغى لنا أن نطلب مكارم الأخلاق فإنّها تدلّ على سبيل النجاح . فقام رجل فقال : فداؤك أبى وأمّى يا أمير المؤمنين . أسمعته من رسول الله ؟ قال نعم : وما هو خير منه . لمّا أتينا بسبايا طيّئ كان فى الناس جارية حسناء تَقَـدّمَتْ إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وقالت: يامحمّد هلك الوالد، وغاب الوافد، فإن رأيت

---

(١) حوادث (٢) مهذبا ومربيا (٣) دنس الأخلاق (٤) زلة وهفوة (٥) الناصر والحليف (٦) اسم مفعول من أفحمته إفحاما ألزمته الحجة فسكت (٧) لحاه يلحاه من باب نفع قشره ، والمراد يلحاه الله الدعاء عليه .

ألَا تُخَلِّي عنّي فلا تُشْمِتْ بي أحياء العرب فإنّي بنت سيّدِ قومي ، كان أبي يفكّ العاني[1] ويحمي الذِمار[2]، ويَقْري الضيف، ويشبع الجائع ، ويفرّجُ عن المكروب ويطعم الطعام ، ويُفْشي السلام ، ولم يردّ طالب حاجة قطّ أنا بنت حاتم طيّئ فقال لها النبيّ صلّى الله عليه وسلّم : يا جارية هذه صفة المؤمن . خلّوا عنها فإنّ أباها كان يحبّ مكارم الأخلاق .

حرب البسوس

إنّ من طبائع الأمّة العربيّة في جاهليّتها النخوةَ[3] والأنفةَ[4] والحميّةَ لذلك كانت الحروب مشتعلة بين العرب لا تكاد تَخْمُدُ جَذْوتها . يدفعهم إلى ذلك ما في طباعهم من الأنفة والحميّة وعدم وجود حاكم يتولّى أمرهم وأنّهم قوم رحّل ينتجعون[5] الكلأ[6] ويرتادون[7] مواقع الغيث فتكثر بينهم المشاحنات على ما يقع تحت أيديهم . وقد تثور الحروب بينهم بدافع النجدة[8] وحماية الجار . ومن هذه الحروب حرب اتّقدت نارها، وحَمِي وطيسها[9] بين حيّي وائل "بكر وتغلب" وهما من أشرف قبائل العرب في الجاهليّة وأحماها أنفا[10]، وأعزها نفرا. تلك الحرب هي ما تعرف في التاريخ "بحرب البسوس" . وسببها أنّه كان لكُلَيب بن ربيعة سيّد بني تغلب مرعى ترعى كلأه ماشيتُه وماشية جَسّاس بنِ مُرّة من بكر بن وائل وكان لجسّاس بنِ مُرّة خالةٌ تدعى "البسوس" بنت مُنْقِذ التيميّة نزل بها "سعد بن شُمَيس الجُرْمي" وكانت له ناقة

---

(١) الأسير (٢) ما يجب على المرء حمايته بحيث لو لم يحمه لامه الناس وعنفوه (٣) العظمة
(٤) الانفة والحمية الاستكبار والاستنكاف (٥) و(٦) يذهبون لطلب الكلا وهو العشب (٧) يطلبون
(٨) الشجاعة والشدة (٩) الوطيس مثل التنور يخبز فيه وحمى الوطيس كناية عن شدة الحرب
(١٠) أمنعها وأعزها .

تدعى «سَراب» خرجت ذات يوم للرعى مع إبل جسّاس فاندسّت بين إبل كليب فرآها وسط الإبل فقال لا تعد مرّة أخرى ثمّ رآها ثانية فأنفذ سهمه فى ضرعها فانطلقت تسعى نحو خباء "البسوس" خالة جسّاس و بركت بفناء صاحبها الجرْمىّ فلمّا رأتها البسوس وعلمت مافعل كُلَيب صاحت قائلة "واذلّاه ! يالبكرا" ففزع إليها جسّاس وسألها عن الخبر فقصّت عليه قصصها فأخذته الحميّة العربيّة التى فطر عليها، فقال لها سأقتل فى الناقة «غِلالا» وهو أكبر فحل فى إبل كليب وإنّما يريد بغلال «كليبا» نفسه ثمّ رصد كليبا حتّى رآه سائرا فناداه من خلفه قائلا "يا كليب الرمح وراءك" فأبى كليب أن يلتفت إليه أنفة واستكبارا وقال له "أقبل إلىّ من أمامى،" فطعنه جسّاس طعنة كان فيها حتفه وهنالك ثارت عجاجة (١) الحرب بين حيّى وائل "بكر وتغلب" فأكلت الأخضر (٢) واليابس وأوقعت بأسهم بينهم وحصدت رجالهم حصدا، وما زالت دائرة الرحى أربعين عاما حتّى أفنى بعضهم بعضا وضرب بالناقة المثل فقيل "أشأم من سراب" فلقد ذهب قتل كليب بأحلام (٣) بنى تغلب وأغراهم بالثأر من بنى بكر. يدلّك على ذلك قول مُهَلْهِل من قصيدة يبكى بها أخاه كليبا ويتهدّد بنى بكر :

أهاج قَذاةَ (٤) عينىَ، الادّكارُ؟ * هُدُوءا (٥) فالدموعُ لها انهمار

وظلّ الليل مشتملا علينا * كأنّ الليلَ ليس له نهار

وبتّ أراقب الجوزاءَ حتّى * تقاربَ من أوائلها انحدار

أُصَرِّف مقلتى فى إثر (٧) قوم * تباينت (٦) البلاد بهم فغاروا

---

(١) العجاج الغبار والعجاجة واحدته والمراد أن الحرب اشتعلت نارها (٢) كناية عن أن الحرب لشدتها لم تبق شيئا (٣) عقول (٤) ما يقع فى العين فيؤلمها (٥) وقت الهدوء أى النوم (٦) افترقت (٧) ذهبوا فى الأرض .

أجبنى يا كليب خلاك ذمّ * لقــد فُجعتْ بفارسها نزار

سقاك الغيثُ إنّك كنت غيثا * ويسرا حين يُلتمس اليسار

سألتُ الحىّ أين دفنتموه * فقــالوا لى بسفح[1] الحىّ دارُ

فسرت إليه من بلدى حثيثا[2] * وطــار النــوم وامتنع القرار

ولست بخالــع سيفى ورُمحى * إلى أن يخلع الليلَ النهارُ

وقــوله

يالبكر أنشروا[3] لى كليبــا * يالَبــكرٍ أين أين الفرار

يالبكر فاظعَنُوا[4] أو حُلُّوا * صرّح الشرُّ وبانَ السِرارُ[5]

وقــوله

أزجر العين أن تُبكّى الطلولا[6] * إنّ فى الصدر من كليب غليلا[7]

إنّ فى الصدرِ حاجةً لن تقضَّى * ما دعا فى الغصونِ داعٍ هديلا[8]

وليس بعجب أن يشتدّ جَزَعُ بنى تغلب على فتاها كُليب فقد كان فتى مِغوارا[9] وبطلا فى الحروبِ كرّارا ، وكان يُضْرب بعزّته المثل فيقال "أعزُّ من كليب وائل" وما ظنّك بمن كان يحمى مواقِعَ السحاب ، وكان يقول: «وحشُ أرض كذا فى حماى» فلا يصاد . ولا يورد أحد إبلا للشربِ مع إبله ، ولا توقد نار مع ناره ، ولا يمرّ أحد بين بيوته ، ولا يحتبى[10] أحد فى مجلسه ، وكان إذا أعجبه موضع أو روضة ألقى فيه جُروا فلا يسمع أحد عواءه إلّا يجتنبــه ولذلك لقّبته العرب بكليب . وقد قتــل غيلَةً[11] فكان

---

(١) مقدمه (٢) مسرعا (٣) ابعثوه من قبره وهذا تعجيز لهم (٤) ارحلوا (٥) الليلة المظلمة (٦) جمع طالل وهو الشاخص من الآثار (٧) حقدا كامنا (٨) صوت الحمام أى ما بكى حمام على غصن (٩) كثير الغارات (١٠) احتبى الرجل جمع ظهره وساقيه بثوب أو غيره وقد يحتبى باليــدين (١١) قتل غدرا وخيانة وأخذ على غرة .

الجزع لفقده أعظم، والرغبة فى الثأر له أشدّ: من أجل ذلك لم يَرحم «مهلهل» أحدا ظفر به من قوم جسّاس حتّى من جنح منهم إلى السلم واعتزل الحرب، فإنّه لقى "بُجَير ابن الحارث بن عَبّاد البكرى" وكان الحارثُ مسالما لتَغْلِب فقتل بجيرا وقال "بُؤْ بشِسع نعل كليب" فلمّا اتّصل نبؤه بأبيه «الحرث» وكان رجلا حكيما رزينا ظنّ أنّ مهلهلا قتله فى ثأر كليب مكتفيا به عن غيره وأنّ الحربَ بعد ذلك تضع أوزارَها[3] ولكن غلى مِرجَلُ[4] الغضب فى صدره واحتدم غيظا إذ علم أن ولده لا يساوى عند «مهلهل» إلّا شِسْع نعل كليب . فهنالك خاض غمـار[5] الحرب مُكْرِها بعد أن لزم الحَيْدة زمنا طويلا كابحا جِماح نفسه وهو يرى الحرب تطحن رحاها بنى أبيه . ثمّ قال يطلب فرسه النعامة :

قَـرِّبا مَرْبطَ النعـامةِ منّى * شـابَ رأسى وأنكرتنى عيالى
قـرّبا مَربِطَ النعـامة منّى * إنّ قتل الأحرار بالشِسْع غَالى
لم أكن من جُناتِهـا عَلِمَ اللـ * ـهُ وإنّى بنارها اليـومَ صالى

ثمّ خَبَّ[6] فى الحرب ووضع فازدادت نارها اشتعالا وانجلت عن تمزُّقِ الفريقين وانهزام ما كان لتغلب من العزّة والجاه وقد كانت الحرب بين الفريقين سِجالا[7] حتّى جاء يوم "قِضّة" وهو يوم تَحْلاق اللِمم[8]، فدارت الدائرة على تَغْلِبَ وكان الحرث رأس بنى بكر

---

(١) مال (٢) ارجع بشسع نعله وهو حبل يشد به النعل (٣) أثقالها (٤) قدر من نحاس. والمعنى اشتد غضبه (٥) زحمتها وهو جمع غمرة (٦) خب أسرع وسار سيرا بطيئا والمعنى أنه خاض بلجة الحرب واصطلى بنارهـا وتقلبت عليه بأحوالها (٧) السجل النصيب والجمع سجال والحرب سجال أى نصرتها متداولة بين الناس (٨) يوم مشهود من أيام هذه الحرب وسمى بذلك لأن «بكرا» أجمعت على حلق رءوسها حتى تعرف .

ذلك اليوم وفيه أسر "مهلهلا" وهو لا يعرفه فقال له : دُلَّنِي على «عدىّ بن ربيعة» وأُخَلِّ عنك فقال : عليك العهود بذلك إن دللتُك عليه قال : نعم قال : فأنا «عدىّ» فجزّ ناصيَتَهُ وتركه ثم قال :

لهفَ نفسٍ على عَدِيٍّ ولم أعـ * ـرف عَدِيّاً إذ أمكنتني اليدان

ولا غرو فالوفاء سجيّةُ العربىّ لا تفارقُه فى السِّلم والحرب ، ثمّ إنّ مهلهلا بعد أربعين عاما سئم الحرب وأهوالَها ورجع إلى نفسه وأشفق على بقيّةٍ من قومِه كادت الحربُ تأتِى عليهم[1] وكأنّما أحسّ وخز الضمير فقال لقومه : قد رأيت أن تُبقُوا على قومكم ، فإنّهم يحبّون صلاحكم ، وقد أتت على حربكم أربعون سنة وما لمتكم على ما كان من طلبكم بوِتركم[2] فلو مرّت هـذه السنون فى رفاهية عيش لكانت تمل من طولها فكيف وقد فنِى الحيّان ، وثكلت[3] الأمّهات ، ويتّم الأولاد ، ونائحة "لا تزال تصرخ فى النواحى ، ودموع لا ترقأ[4] ، وأجساد لا تدفن ، وسيوف مشهورة ، ورماح مشرعة[5] . وإنّ القوم سيرجعون إليكم غدا بمودّتهم ومواصلتهم وتتعطّف الأرحام" ثمّ قال : "وأمّا أنا فلا تطيب نفسى أن أقيم فيكم ، ولا أستطيع أن أنظر إلى قاتل كليب ، وأخاف أن أحملكم على الاستئصال[6] وأنا سائر إلى اليمن" ونزل فى "جنب" وهم حىّ من مَذْحِج .

وقد أرغمَتْهُ الأحوال على أن يزوّج ابنتـه فيهم وهو لا يراهم مثله شرفا ، وقال فى ذلك أبياتا ينْعَى بها قبيلته ومجده اللذين طاحت[7] بهما هوجاء[8] الحروب ، ثمّ رجع إلى ديار قومه فأسره عمرو بن مالك البَكرىّ بنواحى هَجَر وماتَ فى أسرِه سـنة ٥٣١ ميلاديّة . ولو أنّه لم يُسْرِفْ فى القتلِ ولم يعتد على من سالمه وحكّم العقل وجَنح إلى

(١) تفنيهم جميعا (٢) بثاركم (٣) فقدن أولادهن (٤) لا تنقطع ولا تجف (٥) ممالة استعدادا للطعان (٦) الفناء (٧) ذهبت (٨) الحرب الشديدة التقلب وأصل الهوج الحمق مع طول .

السّلم . ما أنزله الزمان عن كبريائه ، ولا تجرّع البؤس بعد النعيم ، ولكن النفس المفطورة على الكبرياء والعظمة ، لا ترجعُ عن غَيِّها[١] ، حتى تَخْضَد[٢] الأيامُ شوكتها . والحرب كارثة رافقت العالم منذ نشأته ، تجلبها الأَثَرة ، ويسوق إليها الطمع ، ويذكى نارها ما فى النفوس من حبّ الغلبة ، والجنوح إلى الظلم ، ولا يمكن أن يستريح العالمُ من ويلاتها إلا إذا عُقدت أواصر[٣] المودّة بين النوع الإنسانىّ ، وانتصفَ كلّ واحد لأخيه من نفسِه .

لو أنصف الناسُ حطّ الثِقلَ حاملُه * عنه ولم تر فى الهيجاء معــــتركا

خالد بن الوليد

هو أبو سليمان خالد بن الوليد بن المُغيرة فارسُ قريشْ فى الجاهلية ، وقائدُ خيلِ الله فى الإسلام . وكفاه فخرا أن يكون من قريش . وهم أرجحُ العربِ عقولا ، وأوضحهم أنســابا ، وأكرمهم أصولا ، وأشرفهم أحسابا . وإذا كان شرف النــاس بآثارهم وبمواهبهم فقريش فى الجاهلية قِوام العرب ، ونظام وِحْدتهم ، وبهم فى الإسلام قام أكبر انقلاب فى العالم من عهد آدمَ إلى أوائلِ القرنِ السابع من ميلادِ عيسى عليــه الســلام . لا تجد قوماً حفظوا أنسابَهم وقوميتَهم بمثل ما فعلتْ قريش ، ولا قبيلةً أحرزت نِصَابَ[٤] قريشٍ من صناديدِ الرجالِ والأعلام .

ومن بطونِ قريشٍ بنو مخزومٍ آلِ الوليد ريحانةِ قريشٍ وسريّها[٥] ومرجعُها فى عقلِه وبلاغتِه ، وله فيهم بسطةَ المالِ والجاه . وكان يُطعِمُ الناسَ فى مِنًى ، وينهىَ أن توقدَ

(١) ضلالها (٢) تقطع (٣) الأوا مر جمع آصرة وهى العاطفة والعهد والرابطة (٤) النصاب المقدار (٥) عظيمها .

نارٍ غير ناره للإطعام ، ويوسعُ النفقةَ على الحجيج ، ويأتيه الثناءَ من الأعراب . وله بساتينُ تمتدّ من مكّةَ إلى الطائف ، ومنها مالا ينقطع طول أيّام العام .

وكانوا يسمونه الوحيدَ لتفرّده فيهم بتلك المزايا الجسام .

فما أُسنِدَت الأعنةُ[1] إلى خالدٍ عفوا ، ولا كانت له القبةُ[2] عَرَضا ، ولا أحرزَ الجاهَ العريضَ بلا سبب ، ولكنّه الحلمُ الراجح ، والحسبُ الوافر ، والمجدُ الأثيل .

ولد رضى الله عنه قبل الإسلامِ بنحو من ثمـانِ سنين ، وبعث النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وهو لم يبلغ أشدّه بعد ، فمـا أوفى على العشرين حتّى أسلمته قريش أعنّتها وقبّتها . فكان بذلك قائدَ خيلها ، وخازنَ حربها[3] ، شرف كان له فى الجاهليّـةِ وصـله به الإسلام ، وكان له العقلُ الراجحُ فى السلم ، والتدبيرُ المحكمُ فى الحرب ، لا يعمىَ عليه سبيل أو يضلّ به دليل . ألم تركيف فعل فى أُحُدٍ وهو على خيل المشركين ، إذ أمر النبيّ صلّى الله عليه وسلّم الرماة ألّا يبرحوا أماكنهم ولو رأوا إخوانهم يتقاسمون الغنائم منصورين ، فلمّا انتصر المسلمونَ وتناولوا الغنائم زال الرماة عن مواقفهم جنوحا إلى المغنمِ ونسُوا أمرَ الرسول . فما كان إلّا أن أخذتهم خيلُ خالدٍ من ظهورهم واضطرب أمر المسلمين فكأنّمـا كانت النبوّة لا تحذر فى تحذير الرماة غير ابنِ الوليد .

لله قريش فى أحلامِها وعقولِها ، فى شبابِها وكهولِها ، ما عالجت أمرا إلّا كانت فيه المثَلَ الأعلىَ ، والإمامَ المبين ، بينما نرى ابنَ العشرين من هاشمٍ مثلا تهتزّ أرجاءُ[4] الحرب لصولتِه إذا تقلّد سيفَه للقتال ، كعليّ بن أبى طالب ، إذا ابنُ العشرين من مخزومٍ يتقلّبُ فى حجراتِها[5] ، على المقرّبات[6] الجياد ، كخالد بن الوليد .

---

(١) الخيل (٢) خيمة تضرب وتجمـع فيها أموال قريش للحرب (٣) خازن الحرب الذى بيده أموالهـا (٤) ساحاتها (٥) جهاتها وجوانبها (٦) الخيل .

فتى قريشٍ مثال النجدة فى جاهليّته و إسلامه فلا بدع أن ترى خالدا شديد البأس فى كفره على المسلمين ، كما عاد فى إسلامه من أشدّ الناس بأسًا على الكافرين ، ولم يخف على النبوّة ما كان له من إصالة الرأى ، فلم ينقطع لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم رجاء فيه ولا فى إسلامه ولا أحفظه عليه شدّة نكايته بالمؤمنين ، والرجل الصدق يحسن كلّ عمل أسند إليه ، واعتُمد فيه عليه ، وكذلك كان فتى بنى مخزوم قبل الإسلام و بعد الإسلام ، فإنّه لمّا شرح الله صدره للإسلام فكّر فى أمر النبىّ صلّى الله عليه وسلّم وتزايد قوّته يومًا بعد يومٍ فقال فى نفسه : إنّه لا بدّ أن يظهر ويتبعه الناس فأولى بنا أن نكون أسبقهم إلى اتّباعه والتصديق به وكان النبىّ صلّى الله عليه وسلّم قد هاجر إلى المدينة والمسلمون يتسلّلون خفية إليه خشية قريش فاتّفق هو وعمرو ابن العاص وعثمان بن طلحة رضى الله عنهم ووفدوا على النبىّ بالمدينة سنة ثمانٍ من الهجرة وهو يومئذ لم يبلغ الثلاثين من عمره فأسلموا ، و يومئذ قال له النبىّ صلّى الله عليه وسلّم : الحمد لله الذى هداك قد كنتُ أرى لك عقلا رجوت ألّا يسلمك إلّا إلى خير. فقال له : يارسول الله ادع الله لى يغفر تلك المواطن التى كنتُ أشهدها عليك. فقال له صلّى الله عليه وسلّم : الإسلام يجبّ ماقبله . هذا والنفس الكبيرة فى كفرها تكون فى إسلامها أكبر، والأعراق الطاهرة فى عهد الشرك تراها بالإيمان أزكى وأطهر ، وكذلك كانت نفسُ خالد رضى الله عنه .

فإنّه فى أوّل مشهدٍ شهده فى نصرة الدين الحنيف أحرز شرف القيادة العامّة لجيش المسلمين ولقّبه الرسول بسيف الله المسلول . فى غزوة من غزوات بلاد الروم، كان جيش الإسلام فيها نحو ثلاثة آلاف ، وجيش الكفّار مائتى ألف أو يزيدون ، فلمّا التقى الجمعان فيها استشهد القائد الأوّل زيد بن حارثة مولى

رسولِ الله ، ثمّ استشهدَ بعده خلفُه جعفرُ بنُ أبى طالب ابن عمّ الرسول ، وهو الملقّبُ بالطيّارِ وذى الجناحين ، ثمّ ثالث القوّادِ عبد الله بن رواحةِ الأنصارىّ رضى الله عنه وعن سابقيه .

فلمّا تولّى قيادتهم خالد بن الوليد ، انحاز بالجيش ، وثبت للعدوّ ، وصدق بأس الإسلام فيهم ، وكسر خالدُ فى هذه الواقعةِ سبعةَ أو تسعةَ من السيوفِ ، حتّى ارتاعَ أهلُ الروم ، وزُلزِلوا زلزالا شديدا ، ثمّ ولّوا مدبرين ، وكثرت الغنائمُ للمسلمين ، وصار سيفُ اللهِ لقبا من ذلكِ اليوم ، لزمِه وعرف به ، كما لزمه فى جميع غزواته الفتح المبين .

وشهدَ فتحَ مكّةَ مع النبيِ صلّى الله عليه وسلّم ، وندبَه بعد الفتح لهدمِ العُزّى فهدمَها ، وهى أكبر صنمٍ كان يعبدُه المشركون ، وكان يقول وهو يهدمُها :

يا عُزّ كُفرانَك لا سبحانَكْ * إنّى رأيت الله قد أهانَكْ

ولمّا توفّىَ رسولُ الله صلّى الله عليه وسلم ، جعله أبو بكرٍ رضى الله عنه أكبرَ قوّادِ المسلمين ، وقد جمعَ فى نفسِه صفاتِ العظماءِ من القوّاد كلّها ، فإقدامٌ فى حزم ، ونجدةٌ فى عزم ، وذكاءٌ فى رَوِيّة ، وخبرةٌ بفنونِ الحرب وخُدَعها ، وبعد نظر فى كيد العدوّ ، وصدق رأيٍ فى سياسةِ الجندِ ، وتأمينِ الثغورِ والمخاوف ، وحسن القيام عليها ، وحفظِ الطريقِ لما فتح من البلدانِ بإقامةِ العدلِ والقسطاس بين الناس ، فهو القائدُ الذى لايستطيعُ الدنوّ من ساحتِه من يريده ولا يفوته ما أراد .

وسيّره أبو بكرٍ رضى الله عنه إلى قتالِ المرتدّين والمتنبّئين كمُسَيْلِمةَ الكذّاب الذى فتن أهل اليمامة وأضلّهم ، وكغيرِه ممن ارتدّوا عن الإسلام ، فرجعهم إليه وأذاقهم بأسَ اللهِ فى عدةِ مواطن ، ملأها كلّها حزما ونجدة وتدبيرا .

ولمّا اراد الله فتح العراق على المسلمين ، اندلق[1] سيف الله من قرابه[2] بأمر الصدّيق إليها، عارضًا[3] مستقبل أوديتها، وغيثا يأتى على مُحُولها[4]، ونورا يجلو ظلامها، فكان على الكافرين من أهل العراق كما قال سيّد الرسل صلّى الله عليه وسلّم : إنّا إذا نزلنا بساحة قوم "فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ" .

فلمّا حلّ بأرض السواد[5] من تلك البلاد أقام بها للحروب سوقا بضاعتها النفوس، وباعتها السيوف ، وشُبّتْ بين المسلمين والعجم فيها وقائع تجعل الولدان شيبا ، وخالدٌ فى جميعها كفيل فى كلّ واقعة بأمر كبشها[6] يعاجله بالبراز، فإمّا أن ينجو بالفرار، وإمّا أن يردّ حياضَ المنون. وما زال من يوم إلى ليلة ، ومن ثغر إلى بلدة، حتّى فتح السواد كلّه وسار إلى الروم بأمر الخليفة حتّى لقى المسلمين باليرموك[7] .

يوم اليرموك

وبلغ عدد المسلمين فى هذا الموقف بضعة وأربعين ألفا ، فيهم ألف من أصحاب الرسول، وفى الألف مائة بدْريّون ، وكان جيش الروم مائتى ألف وأربعين ألفا فيهم ثمانون ألفا مقيّدون ، وأربعون ألفا مقرّنون، وثمانون ألفا معقولون بالعمائم لئلّا يفرّوا ، ومثلهم راجلون. وكان المسلمون قبل خالد يقاتلونهم متساندين، أى كلّ زعيم أميرٌ على صحبه ليس لهم قيادة عامّة ولا نظام ، فوقف فيهم خالد خطيبا فحمد الله وأثنى عليه ثمّ قال: إنّ هذا يوم من أيّام الله ، لا ينبغى فيه الفخر ولا البغى، أخلصوا جهادكم ، وأرضوا الله بعملكم ، فإنّ هذا يوم له ما بعده ، ولا تقاتلوا قوما

(١) انسل (٢) غمده (٣) العارض من الغمام ما جاء سادًّا جانبى الأفق (٤) جدبها (٥) علم على الأرض التى فى غربى الفرات (٦) القائد العام (٧) مكان ببلاد الروم .

على نظام وتعبية[1] وأنتم متساندون[2] ، فإنّ ذلك لايحلّ ولا ينبغي ، وإنّ وراءكم من لو يعلم علمكم حال بينكم و بين هذا ، فاعملوا فيما لم تؤمروا به بالذى ترون أنّه رأى من واليكم .

ثمّ أشار عليهم بأن يتأمّر كلّ زعيم قوم منهم يوما ، وأن يكون هو أوّل زعيم ، فأمّروه وهم يظنّون أنّها كخرجاتهم كلّ مرة ، وأنّ الأمر لايطول ، فخرج الروم فى تعبية لم يرالراءون مثلها ، وخرج خالد فى تعبية لم تعبّها العرب قبل هـذا اليوم ، فخرج فى كراديس[3] عددها من ستّة وثلاثين كردوسا إلى أربعين ، وقال لقومه : إنّ عدوّكم كثيروليس ثمّ تعبيـة أكثرفى رأى العين من الكراديس ، وكذلك جعـل كلّا من القلب والجناحين كراديس على كلّ كردوس رجل من الشجعان وجعل للجيش قاضيا ومؤرّخا ، فالقاضى أبو الدرداء ، والمؤرّخ أبو سفيان ، ونظّم القيادة تنظيما بديعا ، فجعل على كل جزء من أجزاء الخميس[4] رجلا من المعروفين ، فكان قائد القلب أباعبيدة ، وقائد الميمنة عمرو بن العاص وآخر معه ، وقائد الميسرة يزيد بن أبي سفيان ، وقائد الساقة عِكْرمة بن أبى جَهْل رضوان الله عليه . ثمّ نشب القتال بين الفريقين ، والتحم الناس ، واشـتدّ القتال و بينما هم على ذلك قدم الرسول من دار الخلافة فسألوه ماوراءك فقال الخير والأمداد ، و إنّما جاء بكتاب فيه وفاة الصدّيق ، وانتقال الخلافة بعهده إلى عمر بن الخطاب ، وبإسـناد القيادة العامّة إلى أبى عبيدة ، وعزل خالد ابن الوليد ، رضى الله عن الجميع .

---

(١) التعبية جمع الجيش وتدبيره (٢) يريد الخليفة يقول لو علم حالكم هـذه وتساندكم لمنعكم منه
(٣) الكردوس الجماعة من الخيل يشبه أن يكون هو البلوك المعروف اليوم (٤) الخميس الجيش باعتباره خمسة أجزاء المقدّمة والجناح الأيمن والقلب والجناح الأيسر والساقة .

ولما قرأ خالد الكتاب أخفاه خيفة أن تضعف قلوب الجند، ويدبّ التفرق إلى كلمة المسلمين ، والعدوّ لهم بالمرصاد .

وخرج من جيش الروم إلى ما بين الصفّين رجل اسمه "جرجه" وطلب خالدا فبرزله وأمّن كلّ منهما صاحبه ، فقال جرجه ، ياخالد ، أصدقني ولاتكذبني فإنّ الحرّ لا يكذب ولا تخادعني ، فإنّ الكريم لايخادع ، هل أنزل الله على نبيّكم سيفا من السماء فأعطاكه فلا تسلّه على قوم إلّا هزمتهم ؟ قال : لا ، قال : فيم سمّيت سيف الله ؟ فقال : إنّ الله بعث فينا نبيّه صلّى الله عليه وسلّم ، فكنت أقاتله ، ثمّ إنّ الله هداني فتابعته ، فقال : "أنت سيف الله سلّه الله على المشركين ودعا لى بالنصر" قال : جرجه فأخبرني إلام تدعوني ؟ قال خالد : إلى الإسلام أو الجزية أو الحرب ، قال : فما منزلة الذى يجيبكم ويدخل فيكم ؟ قال : منزلتنا واحدة ، قال : فهل له مثلكم من الأجر والذخر ؟ قال : نعم وأفضل ، لأنّنا اتّبعنا نبيّنا وهو حىّ يخبرنا بالغيب ، ونرى منه العجائب والآيات ، وحقّ لمن رأى مارأينا ، وسمع ماسمعنا ، أن يسلم ، وأنتم لم تروا ولم تسمعوا مثلنا ، فمن دخل بنيّة وصدّق كان أفضل منّا . فقلب جرجه تُرسه ، ومال مع خالد وأسلم ، ثمّ خرج مع خالد وقاتل الروم حتّى قتل شهيدا فى هذا اليوم فرحمه الله فى الشهداء والصدّيقين .

وحمل الروم حملة زحزحوا بها المسلمين أوّل الأمر ، ثمّ كرّ المسلمون على الروم واشتدّ البأس عليهم فتضعضعوا ونهض خالد بالقلب حتّى كان بين خيلهم ورجالهم فانهزمت الخيّالة وتركوا الرجّالة يصلّون نارها ، فانهزموا شرّ هزيمة ، ووقع المقرّنون والمسلسلون فى الخندق هالكين ، وتمّ النصر للمسلمين فكان نصرا مبينا ، ثمّ أعلن خالد كتاب أمير المؤمنين وأسلم القيادة إلى أبى عُبيدة عامر بن الجرّاح رضى الله عنه .

ونظر رجل يومئذ إلى الروم فقال: ما أكثر الروم وأقلّ المسلمين ، فقال خالد: بل ما أكثر المسلمين وأقلّ الروم إنّما تكثر الجنود بالنصر وتقلّ بالخذلان .

ياحيرة البراعة[1] فى وصف هذه النفس وكبرها ، وبصرها بمواطن النصر وثقتها به فى أشدّ الأهوال ، قائد يرى عدد عدوّه ستّة أمثال عدده ، ويبصر نظامه وتعبيته ثمّ يستهين به إلى هذا الحدّ ، فيقول ما أقلّه وأكثر جيشى ، ثمّ يقول لمحدّثه والله لوددت أنّ الأشقر[2] براءٌ من توجّيه[3] ، وأنهم أُضعِفُوا فى العدد ، ماهذه القوّة النفسيّة؟ وما هذا اليقين ؟ اللهم إنّه نور الإيمان يهدى به الله من اتّبع رضوانه سبل السلام ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم .

ولا أخذت قلبه حركة من حركات الحقد على الخليفة ، أو الغضب من عمله ، وإنّما ظلّ فى إخلاصه معه ، وفيما كان عليه من البأس والإقدام ، جنديًا فى نفس قائد ، وقائدا فى صورة جندىّ ، ولم يزل يمدّ الجيش بما عوّده من الحزم والتدبير ، حتّى فتح أكثر ما بقى من بلاد الروم ، واضطرت أعماله أمير المؤمنين أن يعيد إليه الإمارة وقيادة الجيش ويقول : "أمّر خالد نفسه ، رحم الله أبا بكر ، كان أعلم بالرجال منّى" . ولم يزل أميرا حتّى اختاره الله لجواره الكريم ، ولمّا توفّى رضى الله عنه وجدوا فى جسمه بضعا وسبعين طعنة وضربة ليس فيها واحدة فى ظهره فرضى الله عنه وأرضاه ، وجزاه عن الإسلام وعن المسلمين أحسن ماجزى سلفا كريما عن خلف كريم .

بعيشك ماذا ترى فى قائد مظفّر ، وأمير جليل ، فاجأه أمر الخليفة بالعزل ، فى وقت ينتظر الناس له فيه أرفع مايكون من منازل التجلّة ، وأكثر مايدخل تحت

---

(١) الأقلام (٢) يريد حصانه (٣) التوجى الحفا . والحفا رقة القدم والخف والحافر من كثرة المشى .

الطـاقة من الثواب والجزاء ، قائد يفتح مافتح خالد من أرض العراق ، ويضرب ماضرب من جنود فارس والروم ، وما أخطأ مرّة ولا أخذت عليه تقصيرة ، ولا ضـعف يوما ولا اسـتكان ، ثمّ يكون جزاؤه أن يعزل من القيادة ، وما كان فى حياته كلّها إلا قائدا ، ويصـبح جنديّا مجرّدا من صفات الرياســة والإمارة ، وما كان كذلك يوما من الأيّام ، أتظنّه يبقى على ما كان فيه من نجدة وإقدام ، وجدّ فى العمل ، وإخلاص فى السيرة ، أم تنكسر نفسه ، وتخمد حميّته ، ويجفّ إخلاصه كما نرى فى زماننا هـذا ، بل ربّمـا فسدت نفسه وتربّص الدوائر بتلك الأمّة التى رأى من خليفتها مارأى ، اللهم إنّ نفسا لايؤثّر فيها ذلك كلّه وتبقى على ماعرف فيها من قبل من نشاط فى العمل ، وإخلاص فى الجهاد ، لهى نفس لاتعدّ فى الصفوف المألوفة من نفوس البشر ، ذلك هو خالد بن الوليد العربىّ القرشىّ المخزومىّ ، ذو النفس التى شرّفها الله بالدين ومكارم الأخلاق ، عزله أمير المؤمنـين فمـا ونى ولا وهن ولا هان .

مدائن كسرى وقصره الأبيض وإيوانه

كانت الأمّةُ الفارسـيّةُ دولة ذات قوّة وسطوة وسلطان ، ومملكة ذات عزّ شامخ(١) ، ومجد باذخ(٢) ، عريقةً فى الحضارة ، راسخةَ القدم فى المدنيّة ، والفرسُ أهل ذكاء وفطنة وفيهم استعداد فطرىّ لوسائل الارتقاء وأسباب التقدّم . وحسبك شاهدا بما كانت عليه من القوّة والعظمة أنّها حاربت اليونان قبل المسيح ببضعة قرون فساقت

---

(١) عال مرتفع وجبل شامخ شاهق وفعله شمخ نخضع (٢) عال وبذخ كفرح وتبذخ تكبر وعلا .

إلى بلادهم جيشا جرّارا[1] قد يصعب على دولة عظيمة حشده[2] وتزويده بما يحتاج إليه من مئونٍ وذخائر. ونُقل ذلك كلّه من أواسط آسيا إلى البحر الأبيض. فالدولة التى يكون هـذا مبلغ قوّتها لا تخلو من علم وادب وصناعة ورقىّ . فما كان لأمّة فتّ[3] الجهل فى عضُدِها وهاض[4] الضعف من جناحها أن تقوم بعمل عظيم أو أن تصدّ عن نفسِها عادية عاد .

ولقد أخرج الفرسُ للناس فى كلّ زمان أدبا جمّا لأنّهم مزدانون بخلال شريفة تدفع إلى التغنّى والمرح[5] والمحاربة، وزادت نهضتهم العلميّة فى زمن الملك العادل كسرى انوشِروان (من سنة ٥٣١ ق م إلى سنة ٥٧٨) وولد النبىّ صلّى الله عليه وسلّم فى عصره ولذلك يقول: «ولدت فى زمن الملك العادل» فقد كان ذلك العاهل[6] العظيم المضروب بعدله المثل نصيرا للعلم ، يشدّ أزره[7]، ويبذل عنايته فى تقدّمه وانتشاره، حتّى ازدهى عصرُه بما كان عليه أبناءُ فارس من علم وأدب .

ولقد جاء الإسلامُ والفرسُ فى إبّان هذه النهضة العظيمة ، والمدنيّةِ الراقية التى غرس أصولَها الملوكُ السالِفون، وتعاهدها أنوشِروان بالسُّقيا والإصلاح ، فأثمرت فى زمانه ثمرا شهيّا ، ولم تجد العرب غضاضة[8] حين أشرقت شمسهم فى تلك الأنحاء أن ينتفعوا من هذه المدنيّةِ الفارسيّة فاقتبسوا منها ما مزجوه بمدنيّتهم وشيّدوا عليه تلك الحضارة العربيّة الزاهرة التى كانت فيما بعد نبراسا[9] يستضاء به ونورا يهتدى بهديه .

---

(١) جيش جرار وكتيبة جرارة ثقيلة السير لكثرتها (٢) جمعه (٣) فت الشيء كسره ودقه ، فت فى عضده وساعده أضعفه وكسر قوّته وفرّق عنه أعوانه (٤) هاض العظم يهيضه كسره بعـد الجبر وهاض جناحه أضعفه وكسر من قوته «وتقول عاثل المريض فهاضه كذا أى نكسه» (٥) مرح مرحا اختال ونشط واشـتدّ فرحه (٦) العـاهل الملك الأعظم (٧) ظهره أوقوته وشـدّ أزره أى قوّاه وأعانه (٨) ذلة ومنقصة وعيب (٩) مصباحا .

وقد قامَ بالأمرِ من ملوكِ هذه الدولة من لا يزال التاريخ يقصّ علينا من أنبائهم، ويحدّثنا عن عظيم أعمالهم، وجليل آثارهم، ويدلّ كثير مما خلّفوه منها على ما كان لهم من قوة واقتدار، وعناية برائع الآثار. غير أنّ التاريخ ينقم من بعض هؤلاء الملوك ما كانوا عليه من جبروت[1] وطغيان، وما شوّهوا به صفحات أيامهم من ظلم وقسوة وإرهاقٍ للرعيّة، ومن هؤلاء «دارا الأصغر» فقد أطال إعناتَ[2] رعيته، وقتلِ رؤسائهم، فملّه أهل مملكته، وسئموا حكمه، وانصرفت قلوبهم عن محبّتِه، فلحقِ كثيرٌ من وجوههم وأعلامهم بالإسكندر وأرشدوه إلى مواضع الضعف من دارا وقوّوه عليه فالتقيا ببلادِ الجزيرةِ ودارت بينهما حرب طاحنة دامت نحو عام كامل ثمّ إنّ رجالا من أصحاب دارا وثبوا عليه فقتلوه وتقرّبوا برأسه إلى الإسكندر فكافأهم بأن أمر بقتلهم وقال: هذا جزاء من اجترأ على مليكه.

هكذا هلك دارا بعد أن ملك أربع عشرة سنة وتفرّق من يومئذ ملك فارس وكان قبل الإسكندر مجتمعا.

دارَ الزمانُ على دارا وقاتِلِه * وأمّ كسرى فما آواه إيوانُ

ومنهم «يَزْدَجُرْدُ» وكان فظًّا، غليظ القلب، شديد الإعجاب بنفسه، مستخفًّا بكلّ ما كان عند الناس من علم وأدب محتقرا له، قليل الاعتداد به، وكان مع هذا غَلِقاً[3] سيء الخلق حتّى بلغ من شدّة غَلَقه وحدّته، أن كان الصغير من الزلّات لديه كبيرا، واليسيرُ من السَقطات عنده عظيما، ثمّ لم يقدر أحد وإن كان أدنى الناس إليه وأقربَهم مجلسا

---

(١) تكبر وقوة وعظمة (٢) العنت المشقة والتعب ولقاء الشدّة، عنته شدد عليه وألزمه ما يصعب عليه أداؤه (٣) رجل غلق سيء الخلق ضيق الصدر سريع الغضب والحدّة عسر الرضا، فعله كفرح.

منه أن يكون لمن ابتلى عنده بشىء من ذلك شفيعا، وكان دهره كله للناس متّهما. حمل على الضعفاء، وأكثر من سفك الدماء، وأساء السيرة فى الرعيّة، وعظمت منه البليّة .

ومنهم من كانوا يستعبدون الأحرار، ويُجْرون الرعايا مجرى الأُجَراء (١) والعبيد والإماء فلا يقيمون لهم وزنا، ولا يرون لهم معهم قدرا، ويستأثرون عليهم بأطايب الأشياء وأحاسنها، بانين أمورهم معهم على قول عمرو بن مَسْعَدة (٢) للمأمون : «ملك ما يصلح للمولى (٣) على العبد حرام» .

ولكن التاريخ لا ينسى فضل كثير من ملوك هذه الدولة كانوا شديدى الميل إلى الإصلاح، مؤثرين العدل، قائمين بحقّ الملك خير قيام، حريصين على العمارة حتّى كان فيهم من إذا بلغه أنّ بيتا خرب وجلا (٤) عنه أهله عاقب صاحب البلد الذى فيه ذلك البيت على تركه إنعاشهم (٥) وسدّ فاقتهم، حتّى لا يضطروا إلى الجلاء عن أوطانهم.

وكان كسرى أنوشروان ملكا عادلا، سديد الرأى، حسن السيرة، قد عرف الناس منه فضلا فى رأيه وعلمه، وعقله وبأسه، وحزمه مع رأفته ورحمته بالرعيّة وحدبه (٦) عليهم، ونظره فيما يصلح شأنهم، ويجعلهم فى حسن حال، ورخاء بال، وكان ولوعا بتشييد المبانى، وإصلاح ماتهدّم منها، فقام بِكَرْى (٧) الأنهار، وحفر القُنِىّ، ومساعدة أصحاب العمارات، وأمر بإعادة كلّ جسر (٨) قطع، أو قنطرة كسرت، أو قرية خربت، وأن يردّ كلّ ذلك إلى

---

(١) جمع أجير وهو العبد أو الخادم والعامل المستأجر (٢) عمرو بن مسعدة من مشهورى الكتاب والشعراء فى عصر المأمون توفى سنة ٢١٧ هـ (٣) معناه هنا السيد (٤) جلا عن البلد جلاء خرج منه وفارقه وجلا وأجلى كلاهما يستعمل لازما ومتعديا (٥) أنعشه رفعه وأحسن حاله وجبره بعد فقر وتداركه من شدّة (٦) حدب عليه كفرح تعطف (٧) كرى النهر استحدث حفره (٨) الجسر ما يعبر عليه، القنطرة الجسر، ما ارتفع من البنيان .

أحسن مما كان عليه. وسهّل سبل الناس، وبنى فى أنحاء مملكته القصور والحصون والآكام، وما يكون حِرْزا لأهل بلاده يلتجئون إليه من عدوّ يدْهَمُهم[1]. أقام فى ملكه بالمدائن نحو ٤٧ سنة لم يزل فيها مظفّرا منصورا تهـابه جميع الأمم ويحضر بابه من وفودهم عدد كثير من الهند والصين والخزر[2] ونظرائهم، مكرما للعلم والعلماء، آخذا بيدهم، ومشرفا بهم على اليفاع[3]، حتّى راجت فى عصره سوق العلوم والمعارف، ووصلت بلاد فارس فى أيّامه إلى غاية مجدها وارتقائها .

عدّ هؤلاء من أعظم ملوك الفرس وأبعدهم صيتا، وأسيرهم ذكرا، والتاريخ يحفظ لأكثرهم رغبته فى العمارة وحرصه على إقامة البناء الشاهق ورفع قواعده. وكم منهم من بنى المدائن وأنشأ القرى واحتفر الأنهار وعقد الجسور، وكأنّهم علموا أنّ لذّة البنيان باقية دائمة وأنّه كلّما نظروا إليه تجدّدت لذّته فى القلب، وتكرّر حسنه فى العين، وعرفوا أنّ المبانى العظيمة أخلد أثرا، وأنطق خبرا .

هم الملوك إذا أرادوا ذكرها من بعـدهم فبألسن البنيان
إنّ البناء إذا تعاظم شأنه أضحى يدلّ على عظيم الشان

ولشدّة ولوعهم بالعمارة والإصلاح يتناقل المؤرّخون عنهم عبارة على سبيل التمثيل الحالم وتصويرها للناس من بعدهم، وأنّهم كانوا يحبّون العمارة أشدّ حبّ، ويرونها قِوام الدين والملك، ولا يقرّون أحدا على الإخلال بها والتقصير فيها. قالوا: يروى أنّ بعض الأنبياء عليهم السلام قال: يا ربّ لم آتيت الأكاسرة ما آتيتهم؟ فأوحى إليه: (لأنّهم عمّروا بلادى حتّى عاش فيها عبادى) .

(١) دهمه غشيه وقد دهموهم أى جاءوهم على غرة (٢) كان اسم جيل من الترك أو التتار
(٣) اليفاع المكان المرتفع وأشرف به على اليفاع أى رفعه وأنهضه .

وقد أنصفهم التاريخ فوفّى كلّا منهم مايستحقّه، وذكره بما هو أهل له، وسلّط على الظالمين من انتقم منهم حتّى جعلهم سلفا ومثلا للآخرين، وما كان ربّك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون .

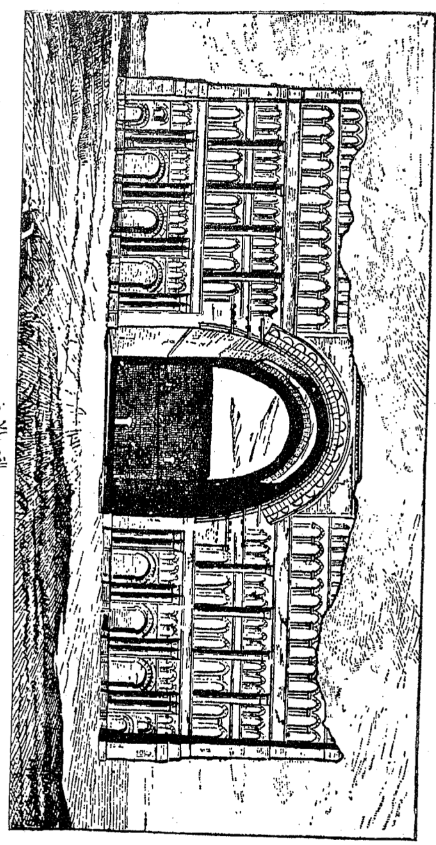
وكانت المدائن حاضرة ملكهم، ومحلّ عزّهم ومجدهم، وقد كان كلّ واحد منهم إذا صار الأمر إليه بنى لنفسه مدينة إلى جنب التى قبلها وسمّاها باسم مخصوص حتى اجتمع من ذلك سبع مدن كبيرة يقرب بعضها من بعض، ثمّ غلب لفظ المدائن على واحدة عظيمة من تلك المدن وهى المشهورة الآن بهذا الاسم أو باسم «طيسفون» وكان يقال لها «روميّة المدائن» وأمّا بقيّة المدن فكانت كأنّها ضواحيها(١) وتابعة لها وهى على نهر دجلة وتبعد عن مدينة بغداد جنوبا بنحو ستّة فراسخ .

وقد جاء الإسلام وهذه المدينة حاضرة ملك الفرس وبها ذلك الإيوان(٢) المشهور الذى كان مقرّا لأعظم الملوك وعرف القصر الذى فيه ذلك الإيوان بالقصر الأبيض قصر الأكاسرة وكان يعدّ من عجائب الدنيا وأحسن قصورها وأمنع مبانيها وأدلّها على العظمة والفخار .

---

(١) الضاحية ما تنحى عن المساكن وبعد عنها وكان بارزا (٢) الإيوان بيت كبير مستطيل بأوله عقد ذو باب واسع ويقال فيه إوان وجمعه أون أو أواوين وقد يقال فيه لوان وبه تنطق العامة .

وعقود البناء طاقات معطوفة كالأبواب وبناء معقود ومعقد جعل عقودا (ولعل العقود ترادف كلمة بواكى) .



القصر الأبيض

ويبلغ طول الإيوان نحو ١٠٠ ذراع وعرضه نحو ٥٠ ذراعا وارتفاعه ٨٠ ذراعا تحيط به أروقة[1] كثيرة تزيده حسنا وبهاء، وتخلع عليه عظمة وجلالا، وبلغ من إحكام عمارته، وبديع صناعته، وعظيم متانته، أنّه لم يكن له مثل يضاهيه فى أرض فارس كلّها مع كثرة ما كان فيها من المبانى الشاهقة، والقصور المشيّدة، وقلّما تجد فيه موضعا غفلا من رسم أو نقش أو كتابة فكان نزهة للعيون، وقرّة للنواظر، وشاهدا لما اقتدر عليه الفرس فى عصر الأكاسرة .

وقد كان ذلك الإيوان معدّا لجلوس الملك مع أرباب مملكته وخاصّته لتدبير ملكه فكأنّه دار ندوة[2] الفرس أو مجلسهم النيابىّ .

وقيل إنّ مسجد السلطان حسن بالقاهرة بنى على شكل إيوان كسرى وقدره وصورته .

واختلف المؤرّخون فيمن بنى الإيوان وجمهورهم يرجّح أنّ بانيه كسرى أنوشروان .

ويقال إنّ سابور[3] بدأ ببنائه ومات قبل أن يتمّه فلمّا آل الملك إلى كسرى أنوشروان أتمّه ورفعه وأتقنه حتّى صار من عجائب الدنيا وزينتها ولهذا نسب الإيوان إليه وعرف لدى العالم به .

قال الشاعر يستحثّ عظيما على قضاء حاجته ليستوجب شكره .

قلت لمّا رأيته فى قصور * مشرفات[4] الأركان والبنيان

هبك كسرى كسرى الملوك أنوشر * وان بانى القصور والإيوان

أىّ شكر ترجوه منّى إذا لم * تقض لى حاجتى ولم تعل شانى

---

(١) جمع رواق وهو مقدم البيت أو سقف فى مقدّمه (٢) من ندا القوم ندوا اجتمعوا والندوة الجماعة (٣) من ملوك الفرس المشهورين قبل كسرى أنوشروان (٤) عاليات مرتفعات .

ويقال إنّ كسرى لما أراد أن يبنى إيوانه كان بجواره دُوَيرة لعجوز لا يكمل تربيع الإيوان إلّا بها، فعرض عليها الشراء فأبت أن تخرج عن دارها وقالت : لا أبيع جوار الملك بملئها ذهبا ولا أخرج عن جواره طائعة فإن غصبنى إيّاها فهو قادر على ذلك وشأنه وما يريد، فأعلم كسرى أمرها فقال : تترك الدار ويبنى الإيوان فقيل له : إنّه لا يجيء مستحكم التربيع فقال : ليبن على ما اتّفق فكان فيه شيء من العوج وربّما رآه بعض الناقدين فقال : ما أحسن بناء هذا الإيوان لولا هذا العوج ! فيردّ عليهم كسرى قائلا : بهذا العوج استقام أمره وتمّ حسنه .

ويقول بعض مؤرّخى الأجانب إنّ تلك الدويرة كانت بجانب حديقة القصر لا فى الإيوان وكلا الأمرين دليل على عدل هذا الملك وبعد نظره .

ويحكى أنّ ذلك الملك العادل علّق فى وسط الإيوان جرسا متّصلا بطرفه سلسلة من الذهب وطرفها الآخر خارج الإيوان حتّى إذا قصد الملكَ أحدٌ حرّك السلسلة فاستدعاه هو بنفسه ونظر فى شأنه وأنصفه. وهذا هو الأصل فى المثل العربىّ المنقول عن الفارسىّ «حرّك فلان على فلان السلسلة» إذا وشى به (1) وكشف لمن يقدر عليه عن حاله لأنّ كسرى كان قد أمر بأنّ كلّ من كان مظلوما ينبغى له أن يأتى إلى قصره فيحرّك السلسلة ليعلم به الملك فيزيل ظلامته وينصفه ممّن بغى عليه .

ولمّا جاء كسرى أبرويز «المظفّر» وسّع الإيوان كثيرا ، وعمّر ما كان قد تهدّم منه ، وجعله مقرّ سلطانه ، وسرير ملكه ، وفرش أرضه ببساط ثمين من الحرير يبلغ طوله نحو ٦٠ ذراعا فى مثلها عرضا .

---

(1) وشى به الى الأمير نم عليه وسعى وشيا ووشاية .

وقد أبدع فى نقوشــه وزخرفته حتّى كان ســطحه يحكى بستانا ناضرا قد دبّجه[1] الربيع بوشيه[2]، وخلع عليه حلّة رائعة من نسجه، فكان فى حافات[3] ذلك البساط ما هو كالأرض المزروعة، وما هو كالأرض المبقلة[4]، وكلّ هذا من الحرير الموشّى بالذهب والفضّة، والمطرّز[5] بالجواهر الثمينة .

وقد كانوا يعدّون هــذا البساط للشتاء حين تذهب الرياحين فيدعو به الملك فى مجالس أنسه، ومَحْفِل[6] سروره، فيكون به كأنّه فى رياض غنّاء[7]، موشّاة بالأزهار، قد أخذت الأرض بها زخرفها[8] وازّينت وأنبتت من كلّ زوج بهيج، فكان ذلك البساط فى وسط هذا الإيوان حافلا ببديع الصناعة وعجيب النقش والتصوير بحيث تقتاد محاسنه أعنّة العيون، وتحسر[9] فى روعته الظنون، وفوقه كسرى فى خواصّ أهل مملكته يأمر وينهى ويعطى ويمنع .

بساط ترى التيجان تهوِى للثمه * فما هو إلّا قِبلة أو مُقَبَّل

إذا نشرت من نقشه لك صورة * بدا فوقها من كفّه لك جدول

---

(١) الدبج النقش، دبج المطر الأرض يدبجها ودبجها زينها بالرياحين ودبج الغيث الأرض يدبجها اذا سقاها فأنبتت أزهارا مختلفة وهو من (الديباج) معربة ومعناها ثوب منقوش سداه ولحمته إبريسم (٢) وشى الثوب رقمه ونقشه وحسنه وزينه كوشاه (٣) حافة الشىء جانبه وناحيته وحافتا الوادى جانباه (٤) بقلت الأرض وأبقلت ظهر نباتها (٥) طرز الثوب أعلمه وحسنه والطراز علم الثوب (معرب) (٦) الحفل المجتمع (٧) كثيرة العشب تمر الريح فيها غير خافية الصوت لكثافة عشبها وغن الوادى يغن كثر شجره فهو أغن ومؤنثه غناء (٨) زخرف الشىء كمال حسنه وزخرف الأرض أيضا ألوان نباتها (٩) حسر كفرح وضرب أعيا وتعب .

وكذلك علّق بأبواب الإيوان وشرفاته[1] ستائر جميلة من الحرير الأخضر مرصّعة[2] بالياقوت والدرّ ، واتّخذ فيه موضعا لصيانة الجواهر الكريمة والحليّ النفيسة وجعل فيه مخزنا للأدوية والموادّ العطريّة الغالية .

هذا ويروى ثقاتُ المؤرّخين من العرب أنّه فى الليلة التى ولدَ فيها النبي صلّى الله عليه وسلّم «فى عصر كسرى أنوشروان» ارتجس[3] إيوان كسرى وانشقّ شقّا بيّنا وسقطت منه أربعَ عشرةَ شرافةً فهال ذلك كسرى وأفزعه . وربّما كان القصدُ من ذكرِ هذا الحادثِ العظيم الإشارة إلى بعثةِ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ، والدلالة على أنّ ملك فارس أصبح على وشكِ الزوال ، وأنّ مولدَ النبيّ مؤذن بفناءِ الملكِ الكسرويّ ، مهدّد بسقوطِ عرشِه وتداعى[4] بناء عزّه ومجده ، وأنّ ملكَ العربِ سيمحو ما كان للفرسِ من مجد أثيل وعظمة سالفة ، فكنّى المؤرّخون عن كل ذلك بارتجاس الإيوان وسقوط بعض شرفاته ، وقد صدق الحدسُ[5] ولم تكذبْ الشواهدُ فإنّ الشرافات الأربع عشرة دلّت على عددِ الملوكِ الذين ملكوا بعد مولده صلّى الله عليه وسلّم ، فملك عشرة منهم فى أربع سنين وملكِ الآخرون المدّةَ الباقية وكان آخرهم «يزدجرد» ، سلب الله ملكَهُ ونزعه من فوقِ سريرِهِ فضاقت عليه الأرضُ بما رحبت فلم يزل يفرّ من مدينة إلى أخرى حتّى لحقتْهُ منيّتهُ فى سنةِ ٣١ هجريّة فى خلافةِ سيّدنا عثمان بن عفان رضى الله عنه .

---

(١) جمع شرفة وهى ما يبنى على أعلى الحائط من القصر منفصلا بعضه عن بعض ويقال فيها أيضا شرافة (٢) محلاة مزدانة (٣) ارتجس البناء رجف واضطرب ورجست السماء وارتجست قصفت بالرعد (٤) تداعى البناء أراد أن ينقض (٥) الظن والتخمين والتوهم فى معانى الكلام والأمور وفعله كضرب .

ولا يبعد أن يكون ارتجاسِ الإيوان وسقوط تلك الشرفات فى تلك الليلة أمرا حقيقيّا لسبب طبيعيّ صادف حدوثه[1] تلك الليلة الميمونة الطالع إرهاصا لنبوّته صلّى الله عليه وسلّم .

وكم للطبيعة من عجائبِ ولله فى خلقِه شؤون ، وله أن يكرّم من شاء بما شاء .

قال الإمامُ شرف الدين أبو عبد الله محمد بن سعيد البوصيريّ المصريّ فى قصيدته الشهيرة المسمّاة بالبردة عند الكلام فيها على مولدِه صلّى الله عليه وسلّم .

وبات إيوان كسرى وهو منصدع[2] * كشَمْل أصحاب كسرى غير ملتئم

وقال فى هذا المعنى أيضا فى قصيدته الهمزيّة .

وتداعى إيوان كسرى ولولا * آية منك ما تداعى البناء

ويقول أمير الشعراء أحمد بك شوقى فى قصيدته التى نحا فيها نحو قصيدة البوصيرى وسمّاها نهج البردة فى مديحه صلّى الله عليه وسلّم .

سرت بشائر بالهادى ومولده * فى الشرق والغرب مسرى النور فى الظلم

تخطّفت مهج[3] الطاغين من عرب * وطيّرت أنفس الباغين من عجم

ريعت[4] لها شُرَف الإيوان فانصدعت * من صدمة الحقّ لا من صدمة القُدُم[5]

يعنى أنّ شرفاتِ الإيوان وهو مثوى سلطان الأكاسرة ، ومظهر سطوتهم وبأسهم ، ومقرّ عزّهم ومجدِهم ، قد ارتجّت وهَوَتْ لم تعمل فيها المعاول[6] ولم تهدمها القُدُم ولا غيرها من الأدوات الهادمة ، بل تداعت وسقطت من روعها وزعزع[7] الحقّ الذى

(١) الارهاص الاثبات وأرهص الشىء أثبته وأسسه (٢) الصدع الشق فى شىء صلب وانصدع وتصدع انشق (٣) جمع مهجة وهى الروح ، الدم أو دم القلب خاصة (٤) راعه أفزعه (٥) جمع قدوم وهى آلة للنجر ويجمع أيضا على قدائم (٦) جمع معول الحديدة ينقر بها الجبال ونحوها (٧) زعزعه حركه تحريكا شديدا .

جاء به ذلك النبيّ الصادق بناء الباطل الذى كان عليه أهل ذلك الإيوان «بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ[1] فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ[2]» .

فلمّا انتقل ملك فارس إلى كسرى أَبرويز عمّر ما تهدّم منه وزاد فيه ما شاء أن يزيد حتّى فتحت العرب بلاد الفرس والمدائن .

ثمّ تناولت الأيّام القصر الأبيض وإيوانه وعَبِثَتْ به أيدى الدهر حتّى قَلَبَتْ معظمه رأسا على عقب ، ومَحَتْ بهجته ، وأزالت نضرته ، وأهوى عليه الزمان بِمِعْوَل الفناء حتّى لم يبق منه إلّا ما يشبه الأثر الدارس[3] ، والرسم الطامس[4] .

وأبدى البلى فيه سطورا مبينةً ✻ عباراتها أَنْ كُلُّ بيت سيَدْثُرُ[5]

ذلك أنّه بقى قائما ماثلا إلى أيّام الخليفةِ العباسيّ المكتفى فى حدودِ سنة ٢٩٠ هجريّة فأمر بنقضه وبنى بشُرُفاتِهِ قصرا لخما سمّاه قصر التاج وبنى بأساسه شُرُفات ذلك القصر فكان ذلك الانقلاب الغريب عبرة للناس وموضع عَجَبٍ وعظة لهم .

جاء الإسلام ودعا النبيّ صلّى الله عليه وسلّم كسرى إليه فصدّ عنه عتوا[6] وأصرّ على عناده واستكبارا ، فشتّت الله ملكه وصرفه عنه ولم يبارك لخلفه من بعده فيه ، فلم يزل أمرهم فى اختلال ، وملكهم فى اعتلال ، حتّى كان خاتمة ملوكهم «يَزْدَجُرْد» فانتزعت العرب منه الملك وانتظمت بلاد فارس فى سلك المملكة العربيّة التى كانت

---

(١) دمغه يدمغه شجه حتى بلغت الشجة دماغه ودمغ الحق الباطل اذا علاه وقهره (٢) زهق الباطل اضمحل وزهق الشيء بطل وهلك (٣) درس الرسم عفا وزال أثره ودرسته الريح وبابه نصر يتعدّى ويلزم (٤) الطموس الدروس والامحاء وقد طمس الطريق من باب دخل وطمسه غيره من باب ضرب فهو متعدّ ولازم (٥) دثر المكان واندثر عفا وذهبت معالمه والداثر الهالك وتقول : فلان جدّه عاثر ورسمه داثر (٦) عتا عتوا ، وعتيا استكبر وجاوز الحد .

واسعة النطاق، ممتدة الآفاق تخفق عليها أعلام العدل حتى هرم ملكهم بعد شبابه وأذن الدهر بانصرامه . «إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ» .

فتحت المدائن فى سنة ١٦ هجرية فى زمن الخليفة العادل سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه على يد القائد العظيم، والفاتح الشهير، سيدنا سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه ، وتمت للعرب الغلبة عليها بجلا من بقى من أهلها عنها وفارقوها بأجياد ملتفتة، وأعناق إليها مائلة منعطفة . ونزل سعدٌ القصرَ الأبيض واتخذ الإيوان مصلى وجعله مسجدا ونصب فيه منبرا فكان يقيم الصلاة به وفيه التماثيل لم يجد فى ذلك من حرج .

وكانت فيه آثار جليلة من صور آلهة جبابرة، وسباع ضارية ، ومشاهد حروب ظافرة كان يتصرف فيها كسرى الخير أنو شروان وقد بقيت هذه الآثار بعد الفتح زمنا .

ولقد أفاء(١) الله على المسلمين من مدائن كسرى غنائم كثيرة وذخائر نفيسة، واستولوا على تاج كسرى وثيابه وهى من الديباج المنسوج بالذهب المنظوم بالجواهر ، وجمعوا كلّ ما فى القصر الأبيض ومنازل كسرى وسائر دور المدائن من جواهر ثمينة ، وأحجار كريمة ، وآنية من ذهب وفضة، وامتلأت أيديهم من خيرات هذا الفتح الذى مكّن الله به للعرب ما لم يمكّن لغيرهم وأورثهم أرض الفرس وديارهم ، وأصفاهم(٢) بأموالهم ونفائس ذخائرهم وكلّ مضنون به من طارفهم(٣) وتالدهم(٤) .

(١) أفاء الله عليهم المغانم ساقها اليهم وردّها عليهم (٢) أصفاه بكذا آثره واختاره على غيره (٣) الطريف والطارف المال المستحدث (٤) التالد والتليد ما ولد عندك من مالك أو نتج وتلد المال يتلد تلودا قدم والتالد والتليد والتلاد كل مال قديم ضدّ الطارف .

وكان من جملة ما وقع غنيمة فى أيديهم ذلك البساط الثمين الذى لم تكن أعينهم قد رأت مثله ، ويقال إنّهم قطعوه قطعا واقتسموه بينهم فنال سيّدنا علىّ بن أبى طالب قطعةً منه صغيرة باعها بثمانية آلاف دينار أو درهم أنفقها على المعوزين[1] وذوى الحاجة .

وأما آنية القصر وزخارفه المنقولة وما كان فيه من المتاع الثمين والرياش[2] الفاخر ونضائد[3] الديباج وستور الحرير فقد فُقِدتْ بعد الفتح . وقيل إنّ الذى حُمِل منها إلى بيت المال بلغت قيمته زُهاءَ[4] ألف ألف دينار من الذهب . ويقال إنّ ستْر الإيوان أُحرق فأُخرج منه ما يقدّره أقلّ المؤرّخين مبالغة بمائة ألف مثقال من الذهب .

ومهما يكن فى هذه الروايات من الأخبار التى لا تخلو من غلوّ فى التقدير فإنّها تدلّ على عظمة شأن المدائن والإيوان وعلى كثرة ما كان فى القصر الأبيض الكسروى من الأثاث الثمين ، وعلى ما سيق إلى العرب من الخيرات والغنائم بذلك الفتح المبين .

وهذه المغانم الكثيرة الثمينة التى تفتن النفوس وتُطْبِى[5] الأفئدة وتتطلّع إليها العيون قد أوصلها الجيش العربىّ المحارب إلى سيّدنا عمر بالمدينة موفورة[6] لم تمتدّ إلى شىء منها يد ، ولم تطمع فيه نفس ، وكان كلّ من ظَفِرتْ يداه بشىء من تلك النفائس الثمينة أتى به إلى سَعد كاملا يصدّه عنه الحياء والعفّة والدين حتّى سيق إلى سيّدنا عمر من ذلك ما لا يقدّر بثمن فقال عمر : إنّ أقواما أدّوا مثل هذا لذوو أمانة . فقال

---

(١) المعوز الفقير لا شىء له (٢) الرياش الأثاث والملابس الفاخرة (٣) جمع نضيدة وهى الوسادة وما حشى من المتاع (٤) زهاء مائة وألف ونحوهما أى قدره وحزره (٥) أطباه استماله وفلان لا يطبيه اللهو (٦) تامة كاملة .

له سيّدنا علىّ بن أبى طالب : إنّك قد عففت فعفّت الرعيّة . وروى عن سيّدنا عمر أنّه لمّـا رأى هذه الغنائم بكى فقال له سيّدنا عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه : « ما يبكيك يا أمير المؤمنين فوالله إنّ هذا لمقام شكر» فقـال له عمر : والله ما ذاك يبكينى وتالله ما أعطى الله هذا قوما إلاّ تحاسدوا وتباغضوا وما تحاسدوا وتباغضوا إلاّ كان بأسهم (١) بينهم شديدا .

ولمـا أُتى سيدنا عمر بحَلْى كسرى وزِيّه فى المباهاة وزِيّه فى غير ذلك — وكان لكسرى عدّة أزياء لكلّ حالة زِىّ يلبس لها لبوسها (٢) — قال : علىّ بمحلّم . وكان مُحلّم هذا عربيّا بادنا بل كان أجسم عربىّ بالمدينة ، فألبس تاج كسرى وصُبّت عليه أوشحته (٣) وقلائده وثيابه واجلس للناس ، فنظر إليه عمر ونظر إليه الناس فرأوا أمرا عظيما من أمور الدنيا وما متّع الله به الفرس من زهرتها وزينتها ليفتنهم فيه . ثمّ خلع عن محلّم ذلك وألبس الزىّ الذى يليه فنظروا إلى مثل الأوّل أُبّهة وجلالا . وهكذا ظهر لهم محلّم فى أزياء مختلفة حتّى أتى عليها كلّها . ثمّ ألبسه عمر سلاحه وقلّده سيفه فنظروا إليه فى ذلك . ثمّ وضعه عنه وقال : إنّ أقواما أدّوا مثل هذا لذوو أمانة .

ثمّ نَفَل (٤) عمر محلّما سيف كسرى وقال : أحمق بامرئ من المسلمين غرّته الدنيا ! هل يبلغنّ مغرور منها إلّا دون هـذا أو مثله ؟ وما خير امرئ مسـلم سبقه كسرى فيما يضرّه ولا ينفعه ؟ إنّ كسرى لم يزد على أن تشاغل بما أوتى عن آخرته بجمع لزوج امرأته أو زوج ابنته أو امرأة ابنه ولم يقدّم لنفسه . فليقدّم امرؤ لنفسـه ويضع

(١) البأس العذاب والشدّة فى الحرب (٢) اللبوس ما يلبس (٣) جمع وشاح ، هو أديم عريض مرصع بالجوهر تشدّه المرأة بين عاتقها وكشحيها (جانبيها) (٤) نفله الشىء ونفله وأنفله وهبه له وأعطاه إياه ، النفل الهبة والغنيمة ، نفل الامام الجند جعل لهم ما غنموا .

الفضول مواضعها تحصل له وإلّا حصل للثلاثة من بعده وأحمق بمن جمع لهم أو لعدو جارف[1] .

وتذاكر سيّدنا حُذَيفة بن اليَمَانِ الأنصاريّ وسيّدنا سَلْمانُ الفارسيّ رضى الله عنهما أمر الدنيا فقال سَلْمان : ومن أعجبَ ما تذاكرنا صعود غنياتِ الغامديّ سرير كسرى وهو أعرابيّ من بنى غامد كان يرعى شُوَيْهاتٍ له فإذا جَنّ عليه الليل صيّرها إلى فناءِ إيوانِ كسرى وكان فيه سريرٌ من رخامٍ فتصعدُ غنياتُه إلى ذلك السرير وكان كسرى كثيرا ما يجلس فوقه فسبحان من يرث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين .

إنّ المقادير إذا ساعدت * ألحقت العاجز بالقادر

ولمّا ملكت العرب ديار الفرس نَزَح إليها كثير منهم وسكنوا مدنها وأقام منهم بالمدائن من الجند والأهلين عدد جمّ . غير أنّهم ما لبثوا أن استوخموا[2] سكناها لأنّها ما كانت تلائم حياتهم البدويّة فأمر سيّدنا عمر فى سنة ١٧ هجريّة أن تختطّ للجند مدينة الكوفة وأذن للناس فى البناء بها فنقلوا أبوابهم من المدائن إليها وعلّقوها على ما بَنوا واستوطنوا الكوفة وفارقوا المدائن فأخذت نَضْرتها فى الذبول، وشمس بهجتها فى الأُفول[3] ، وآثرت العرب عليها سكنى الكوفة والبصرة وانتقل الناس إليهما من سائر مدن العراق .

ثمّ اختطّ الحجّاج فى عهد بنى أميّة مدينة واسط[4] فصارت دار الإمارة بالعراق فلمّا زال ملك بنى أميّة وابتنى المنصور مدينة بغداد انتقل الناس إليها وصارت هى

(١) جرف الشىء ذهب به كله (٢) استوخم البلد إذا وجده غير موافق للسكنى فهو وخم ، وخم البلد فهو وخيم مستوبل ثقيل غير ملائم (٣) أفل الشىء أفلا وأفولا من بابى ضرب وقعد غاب ومنه قيل أفل فلان عن البلد إذا غاب عنه (٤) مدينة بالعراق بين البصرة والكوفة .

مجتمع الوافد، وكعبة القاصد، وحاضرة الخلافة العربيّة . ثمّ اختطّ الخليفة المعتصم مدينة «سُرّ من رأى» وأقام الخلفاء بها مدّة ثمّ عادوا إلى مدينة بغداد . ولمّا شرع المنصور فى بناء مدينة السلام «بغداد» أراد أن ينقض إيوان كسرى ويستعمل أنقاضَه فى بناء مدينته فاستشار وزيره خالدَ بنَ برمكٍ فى ذلك فنهاه عن نقضه وقال يرغّبه فى حفظ هذا الأثر : يا أمير المؤمنين إنّه آية الإسلام وإذا رآه الناس علموا أنّ من هذا بناؤه لا يزيل أمْرَه إلّا الأنبياء وهو مع هـذا مصلّى علىّ بن أبى طالب وغيره من أجلّاء الصحابة فاتركه ماثلا يستدلّ به على اقتدار آبائك الذين سلبوا ملكَ أهل هذا الإيوان على أنّ المئونة فى هدمه ونقضه أكثر من الارتفاق[1] به فاتّهمه الخليفـة فى النصيحة وقال : أخذته النعرةُ[2] للفرس وأبى إلّا التعصّب لقومه، ثمّ شرع فى هدمه فهدمت منه ثُلمةٌ[3] وحمل إلى بغـداد من آجرِه[4] قدرٌ عظيم على بعـد الشقّة[5] وعظم النفقة فلمّـا رأى المنصور كثرة ما أنفقه على هدم ثلمـةٍ من الإيوان وكان المنصور حازما مدبّرا مقتصدا وخشى أن يدركه العجز عن هدمه كلّه بعث إلى خالد يستشيره فى التجافى عن الهدم وقال له : يا خالد قد صرنا إلى رأيك فيه فقال له خالد : يا أميرَ المؤمنين قد كنت أرى ألّا تهدمه فأمّا إذ فعلتَ فإنّى أرى أن تستمرّ على ذلك لئلّا يقال : عجز سلطان العرب عن هدم مصنع[6] من مصانع العجم والهدم أيسر من البناء فعرفها له المنصور وأسرّها فى نفسه ولم يقبل قوله وترك الإيوان على حاله وأقصر عن هدمه ولكن بعد أن قوّض جانبا من هذا الأثر الجليل .

---

(١) ارتفق بالشىء انتفع به (٢) المراد بها العصبية لقومه والميل اليهم والغضب لهم (٣) الثلمة فى الحائط وغيره الخلل والشق وثلم الاناء من باب ضرب كسره من حافته فانثلم وتثلم (٤) الآجر اللبن المصنوع من الطين وكان بناء الايوان من الآجر الأحمر العظام (٥) السفر البعيد والطريق النازح (٦) المصانع الأبنية العظيمة من القصور والحصون ونحوهما .

وكان الخليفة المأمون يقول : لقد حبّبَ إلىّ هذا الخبر ألّا أبنىَ إلّا بناء جليلا يصعب هدمه . هذا وقد رجّح بعض المؤرّخين من الفرس أنّ الذى خرّبه المنصور هو قصرٌ آخر كان بمدينة طَيْسفون أيضا غير إيوان كسرى .

وفى سنة ١٥٨ هجريّة أمر المنصورُ بمرمّةِ[1] القصر الأبيض وأمر أن يُغَرّم كلّ من وجد عنده شىء من الآجرّ الذى نقضه من بناء الأكاسرة وقال : هذا فىءُ[2] المسلمين فلم يتمّ له ذلك ولا ما أمر من مَرمّة القصر .

إنّ الزمان إذا أَنحَى[3] على بلد * لم تُغنِ عنه مراعاة ولا حرس

ولمّا مات الخليفة المعتضد بالله العباسىّ سنة ٢٩٨ وتولّى الخلافة ابنه المكتفى بالله أتمّ عمارة القصر المسمّى قصر التـاج الذى كان أبوه قد شرع فى بنائه ووضع أساسه فنقض بعض جدران القصر الأبيض فكان الآجرّ ينقض من شرف القصر الكسروىّ وحيطانه فيوضع فى أساس قصر التاج . ثمّ حمل ما كان منه فى أساس قصور كسرى فبنى به أعالى التاج وشرفاته وفى هذا يقول بعض من تولّى عمارته : إنّ فيما نراه لمعتبرا نقضنا شرفات القصر الأبيض فوضعناها فى أساس قصر التـاج، ونقضنا أساسه فجعلناه شُرُفات قصر آخر فسبحان من بيده كلّ شىء حتّى الآجرّ . هذا ولم يزل شأن المدائن فى تناقص حتّى كان هذا الاسم فى أواخر عصر الدولة العباسيّة يطلق على بُلَيدة شبيهة بالقرية يشتغل أهلها بالفلاحة .

وبهذه المدينة قرب الإيوان قبر سيدنا سَلْمان الفارسىّ رضى الله عنه وكان سعد ابن أبى وقّاص قد نصبه حاكما عليها بعد الفتح فبقى بها إلى أن مات .

---

(١) رم البناء ونحوه يرمّه رما ومرمّة أصلحه (٢) غنيمة (٣) أنحى عليه ضربا ولوما أى أقبل

وبهذه المدينة أيضا دفن سيّدنا حُذَيفة بن اليمان الأنصاريّ المتوفّى سنة ٣٦ هجريّة .

أمّا الإيوان فما زالت السِنونَ والحوادث تنال منه فتُغيّر من معالمه وتَتَخوّن[(١)] من محاسنه حتّى أتى عليه حين من الدهر كان معهدا للأوكار التى تأوى إليها طيور الخراب، ونَعقَ فى ساحاته بعد العزّ البوم والغراب .

وعهدى به والسعد فى جَنَباته[(٢)] * وثغر نعيم الخفض[(٣)] يبدى تبسّما

ثمّ أسلمته يد الحِدْثان[(٤)] والإهمال إلى عبث المفسدين من النـاس والزمان حتّى لم يبق منه سوى وجهِ البناء الأمامىّ كأنه من الجَدّ العاثر[(٥)]، طلل[(٦)] داثر، تعرفه العين ثمّ تنكره وتثبته النفس ثمّ تَنفيه .

كأنّ ارتجـاس الريح فى جَنَباته * إذاعة شكوى أو سِرار تَعاتبِ

ومع هذا يرى الناظر إليـه من خلال بنائه المتصدّع أثر المجد القديم ويتفرّس فيه سمة العزّة الكسرويّة وينطق بلسان الحال أنّه كان من الهياكل[(٧)] الملكيّة التى يدل باقيها على أصلها ويعبّر شاهدها عن غائبها .

وكأنّ الدهر أبقى هذا الرسم القليل من ذلك الأثر الجليل ليكون عبرة ناطقة بتقلّب الأيّام، وأنّها لا ينجو منها بنيان مشيّد ولا مُلك موطّد[(٨)] مؤيّد ، فكم أنزلت على حكمها من ظلّت حينا نازلة على حكمه ، وأزالت ملكا لم تُبْقِ منه سوى رسمه .

---

(١) تنقص ، يخوّن فلان حق اذا تنقصه كأنه خانه شيئا فشيئا وكل ما غير الشىء عن حاله فقد تخوّنه
(٢) جمع جنبة بمعنى ناحية مثل جنب وجانب (٣) الخفض الدعة والسعة والراحة وخفض عيشه سهل ووطىء وفلان فى خفض من العيش ، ذو عيش خافض (٤) حدثان الدهر أحداثه وصروفه (٥) الجد الحظ والبخت وجدّ عاثر وعثور من عثر يعثر إذا زل وسقط (٦) الطلل ما شخص من آثار الدار (٧) الهيكل البناء العظيم (٨) وطد الشىء أثبتـه وعز أو ملك موطد وموطود وواطد أى ثابت ومنه الوطادة أى الدعامة والاسطوانة .

وإنّ من يُنْعم النظر إلى هذا الجزء الباقي من الإيوان تتجلّى أمامه العِبْرة[١] ماثلةً وترجع به الذكرى إلى قوّة بانيه ، وعظمة من كان يُؤْويه ، ثمّ تتفجّر من عيونه العبرات[٢] ، وترتسم على محيّاه أمارات التأسّف والحسرات ، ويقف أمامه وقفة الخاشع الحائر ، منشدا قول الشاعر .

يا من يتيه[٣] بشاهق البنيان * أنَسيتَ صنع الدهر بالإيوان
كتب الزمان على ذُراه أسطرا * بيد البلى وأنامل الحِدْثان
إنّ الحوادث والخطوب إذا سطت * أودتْ[٤] بكلّ موثّقِ[٥] الأركان

ولقد كان أهلوه بدور نجوع ، وجمال مجالس وربوع[٦] . فصارت منازلهم معتصر الدموع ، جرّت بها الرياح أذيالها ، وحطّت بها الغيوث أثقالها ، وسلبتها الأيّام جمالها ، وانتزعت عظمتها وجلالها .

منازل لم تنظر بها العين نظرة * فتقلع إلّا عن دموع هواطلِ[٧]
فكم آنس بُدِّلْنَ منه بنافر * وحالى الشّوى[٨] بدّلن منه بعاطلِ

هذا وأحسن ما ورد في وصف إيوان كسرى قصيدةُ البحتريّ السينيّةُ المشهورةُ لأنّه كان حين يصفه ملآن الجوانحِ[٩] مفعَم القلبِ من إحساسٍ مستغرقٍ قد استولى

---

(١) العبرة اسم من الاعتبار بمعنى الاتعاظ والعبرة أيضا العجب واعتبر منه تعجب (٢) جمع عبرة وهي الدمعة وعبر عبرا واستعبر جرت عبرته وحزن ، (٣) التيه الصلف والكبر والاعجاب تاه يتيه تكبر (٤) أودى به أهلكه وأودى الرجل هلك (٥) محكم ثابت (٦) الربع المنزل (٧) جمع هاطل وهطل المطر والدمع اذا تتابع سيله وجريانه (٨) من معانى الشوى اليدان والرجلان والأطراف والحالى ضدّ العاطل وحليت المرأة فهي حال إذا كانت ذات حلى (٩) الجوانح الأضلاع التي تحت الترائب وهي مما يلي الصدر كالضلوع مما يلي الظهر ومفرده جانحة .

على نفسه ، وملك كلّ شعوره وحسّه ، فانطلق لسانه بما يجول فى صدره،[1] ويجيش فى خاطره، حتّى إنّك لترى روحه يرفّ[2] على كلّ بيت، وتحسّ أنفاسه متصاعدة من كلّ لفظ ، وتشعر بما كان يتردّد فى نفسه من التأثّر والعبرة، وما الشعر إلّا مرآة القلب يطلعك على خطراته، ومَظْهَرٌ من مظاهر النفس يتجلّى لك فيه ما تشعر به، بل هو صورة تمثّل لك ما ارتسم على لوح الصدر، وانتقش فوق صحيفة الذهن، ومثال ما ظهر لعالم الحسّ ، و برز لمشهد المشاعر . قال البُحتريّ من قصيدة طويلة مطلعها :

صُنْتُ نفسى عما يدنّس نفسى * وترفّعت عن جَدا[3] كل جِبْس[4]

حضَرت رحلىَ[5] الهموم فوجّه * تُ إلى أبيض المدائن[6] عَنْسى[7]

أتسلّى عن الحظوب وآسى[8] * لمحل من آل ساسان[9] دَرْس[10]

ذكّرتنيهم الخطوب التوالى[11] * ولقد تُذْكر الخطوبُ وتُنسى

وهم خافضون فى ظلّ عالٍ * مشرِف يحسِر[12] العيون ويُخسى[13]

---

(١) يتحرك وجاش البحر بالموج وجاش صدر فلان بالغل والحقد (٢) يتحرك و يخطر وتقول دخلت عليه فرف لى رغيفا إذا هش لك واهتز ارتياحا ورف فؤادى لحديثه ورف حاجبه اختلج وما زالت عينى ترف حتى رأيتك (٣) الجدا للعطاء كالجدوى وفعله جدا عليه يجدو ، أجدى يجدى (٤) الجبس الجامد الثقيل الروح والجبان واللئم والدنىء (٥) رحل الرجل منزله ومأواه (٦) يريد بأبيض المدائن القصر الأبيض الذى بناه كسرى فى المدائن وفيه الايوان (٧) العنس الناقة الصلبة الشديدة (٨) أسيت عليه أسى حزنت والأسوة القدوة وما يأتسى به الحزين (٩) آل ساسان هم الفرس (١٠) الدرس الطريق الخفى الدارس والثوب الخلق (١١) جمع تال أى التى يتلو بعضها بعضا متتابعة لا تنقطع (١٢) حسر البصر يحسر حسورا كل وانقطع من طول مدى فهو حسير ومحسور وحسر كضرب وفرح أعيا كاستحسر وأحسره أتعبه وأعياه وحسر كضرب يستعمل متعديا تقول حسر طول النظر بصره فحسر بصره بالكسر لا يكون الا لازما (١٣) مخفف من يخسئ بالهمز أى يضعف و يكل وخسأ البصر كل وأعيا (ينقلب اليك البصر خاسئا وهو حسير) .

حللٌ[1] لم تكن كأطلالِ سُعدى * فى قِفارٍ مِن البسابسِ[2] مُلْسِ

نقل الدهرُ عهدهنّ عن الجِدَّ[3] * ة حتّى غدون أنضاءَ[4] لُبْسِ[5]

فكأنّ الجِرْمازَ[6] من عدم الأنـ * ـسِ وإخلاقِه[7] بُنَيّةُ[8] رَمْسِ[9]

لو تراه علمت أنّ الليالى * جعلت فيه مأتماً بعد عُرسِ

وهو يُنبيك عن عجائبِ قوم * لا يشاب البيان فيهم بِلَبْسِ[10]

فإذا ما رأيت صورة أنطا * كيّة ارتعت بين روم وفُرسِ

والمنايا مواثلٌ وأنوشر * وانَ يُزجى[11] الصفوفَ تحت الدِّرَفْسِ[12]

فى اخضرارٍ من اللباس على أصـ * ـفر يختال فى صبيغة وَرْسِ[13]

وعِراكُ الرجال بين يديه * فى خُفوتٍ[14] منهم وإغماضِ[15] جَرْسِ[16]

مِن مُشيحٍ[17] يهوِى[18] بعاملِ[19] رمحٍ * ومُليحٍ[20] مِن السنانِ بتُرْسِ

تصف العين أنّهم جِدُّ أحيا * ءٍ لهم بينهم إشارةُ خُرْسِ

يغتلى[21] فيهمُ ارتيابِىَ حتّى * تتقرّاهم[22] يداىَ بِلَمْسِ

---

(١) جمع حلة وهى البيوت يحل بها أهلها (٢) البسبس القفر الخالى وملس جمع أملس أى لا نبات به ولا ماء (٣) الجدة مصدر جدّ الشىء ضدّ قدم (٤) جمع نضو معناه هنا الثوب الذى أخلقته كثرة الاستعمال (٥) اللبس بالضم المصدر وبالكسر ما يلبس (٦) الايوان (٧) مصدر أخلق وهو مثل خلق الثوب وغيره بلى (٨) تصغير بنية بمعنى بناء (٩) قبر (١٠) اختلاط واشتباه والتباس (١١) يدفع ويسوق (١٢) العلم الكبير (١٣) الورس نبات يصبغ به فيكون لونه إلى حمرة وصفرة (١٤) سكون الصوت وإسراره (١٥) اخفاء وعدم وضوح (١٦) الجرس الصوت (١٧) المشيح الحذر الجاد فى الأمور والمقبل عليك والمانع لما وراء ظهره وعامل مشيح جاد مواظب على عمله (١٨) يسقط وينقض ويقبل (١٩) عامل الرمح ما يلى السنان منه (٢٠) ألاح بسيفه لمع به ولوّح (٢١) يتغالى ويتجاوز الحد ويسرع (٢٢) تقرى الشىء قصده وتتبعه .

وكأنّ الأيوان من عَجَب الصنـ (١) (٢) (٣) * ـعة جَوْبٌ فى جنبِ أرعن جَلْسِ

يُتظنّى (٤) من الكآبة أن يبـ * ـدو لعينى مصبّح أو ممسِّى

عكست حظّه الليالى وبات الـ * مشترى فيه وهو كوكب نحسِ

فهو يبـدى تجلّدا وعليـه * كلكل (٥) من كلاكل الدهر مُرسى (٦)

لم يعبه أن بُزّ (٧) من بسط الديـ * باج واستلّ من ستور الدمقس (٨)

مشمخر (٩) تعلو له شرفات * رفعت فى رءوس رضوى (١٠) وقدس (١١)

لابسات من البياض فما تبـ * ـصر منها إلّا غلائل (١٢) بُرس (١٣)

ليس يدرى أصنع أنس لجنّ * سكنوه أم صنع جنّ لأنس

غير أنّى أراه يشهد أن لم * يك بانيه فى الملوك بنكس (١٤)

فكأنّى أرى المراتب والقو * م إذا ما بلغت آخر حسّى

---

(١) الجوب النقر فى الجبل والصخر ونحوه والخرق والقطع والجوبة الحفرة والمكان الوطىء فى جلد (٢) الأرعن الجبل ذو الرعن وهو أنف يتقدم الجبل وجبل أرعن ذو رعان طوال (٣) الجلس الغليظ من الأرض والوثيق الصلب المتين والجبل العالى (يريد أن الايوان من عجيب صنعه واحكامه ووثيق بنائه واتقانه كأنه نقر فى جبل عظيم (٤) يظن وأصله يتظنن (٥) الصدر وكلكل الفرس ما بين محزمه إلى ما مس الأرض منه إذا ربض وألق عليه الدهر كلكله ثقل عليه بوطأته واشتد (٦) رسا أرسى رسوا ورسّوا وثبت (٧) البز النزع وأخذ الشىء بجفاء وقهر وبز الشىء سلبه كابتزه وبزمن ثيابه وابتز جرّد منها (٨) الابريسم والديباج والقز (٩) عال مرتفع (١٠) جبل بالمدينة (١١) جبل عظيم بنجد (١٢) جمع غلالة وهى شعار يلبس تحت الثوب (١٣) القطن أو شبيه به (١٤) النكس الضعيف والمقصر عن غاية الكرم والزدل

وكأنّ الوفود ضاحين[1] حسرى[2] * من وقوفٍ خلفَ الزحام وخُنْسِ[3]

وكأنّ القيانَ وسط المقاصيـ[4] * ـرِ[5] يرجِّعْنَ[6] بين حُوٍّ[7] ولُعْسِ[8]

وكأنّ اللقاء أول من أمـ * ـسِ ووشْكُ الفِراق[9] أول أمسِ

عمِرت للسرور دهرا فصارت * للتعزّى رباعهم والتأسّى

فلها أن أُعينها بدموع * مُوقَفَاتٍ على الصبابة[10] حُبْسِ[11]

ذاك عندى وليست الدار دارى * باقترابٍ منها ولا الجنس جنسى

غير نعمى لأهلها عند أهلى * غَرَسوا من زكائها خير غرسِ

وطّدوا ملكنا وشدّوا بناه * بكُماةٍ[12] تحت السَّنَوَّرِ[13] حُمْسِ[14]

وأعانوا على كتائبِ[15] أريا * طَ[16] بضربٍ تحت النحور ودعْسِ[17]

وأرانى من بعدُ أُكْلَفُ[18] بالأشـ * ـراف طرّا من كلّ سِنْخٍ[19] وجِنْسِ

---

(١) ضحا ضحوا وضحوا وضحيا برز للشمس وكسعى ورضى اصابته الشمس فهو ضاح (٢) جمع حسير من حسر كضرب وفرح أعيا وتعب (٣) خنس عنه يخنس خنسا وخنوسا تأخر واختفى وأخنسه خلفه ومضى عنه وزواه (٤) جمع قينة وهى الأمة المغنية هنا (٥) مقصورة الدار الحجرة منها (٦) ترجيع الصوت ترديده وتكريره (٧) جمع حوّاء مؤنث أحوى من الحوّة وهى حمرة تضرب إلى السواد وسمرة الشفة مشربة مرة (٨) اللعس لون الشفة اذا كانت حمرتها تضرب الى السواد قليلا وهم يستملحونه وبابه طرب يقال شفة وامرأة لعساء وجمعه لعس (٩) وشك البين والفراق سرعته (١٠) رقة الشوق وحرارته (١١) الحبس ما حبس على الشىء ووقف ويجوز أن يكون مخففا من حبس جمع حبيس بمعنى محبوس وموقوف (١٢) جمع كمى وهو الشجاع يتكمى فى سلاحه أى يتغطى ويستتر (١٣) جملة السلاح أو كل سلاح من حديد (١٤) جمع أحمس وحمس كفرح اشتد وصلب فى القتال فهو حمس وأحمس والحماسة الشجاعة والأحمس والحميس والحمس الشجاع (١٥) جمع كتيبة وهى الجيش (١٦) أرياط هو ملك الحبشة الذى غزا الكعبة يشير الى قصد الحبشة مكة لغزوها واستنصار العرب الفرس فأمدهم كسرى بجيش حتى ردوا الحبشة (١٨) الدعس الطعن الشديد ورجل مدعس ودعوس طعان مقدام (١٨) كلف به كفرح أولع (١٩) السنخ الأصل .

لئن فاتنا رسم الإيوان فى أول عهده، وعزّ علينا أن نرى صورته فى عصر البحترىّ حين كان طليقا من أيدى المنصور ومحروسا من أيدى المغيرين لقد ظفرنا من هذه الأبيات الأبيّات بصورة لا يعوز المفكّر الذى يطيل تأمّله فيها، ويدقّق فى فهم معانيها، أن يرى صورة الإيوان مرقومة ببيان أبلغ شاعر، فكأنها مرسومة ببنان مصوّر ماهر، قد حفظها الأوائل للأواخر.

نُزَه الدنيا وشِعب بَوَّان

كان المتقدّمون يعدّون نُزَه الدنيا وجنّاتها أربعا وهى : غُوطَة دمشق ونهر الأُبُلَّة وصُغد سَمَرْقَند وشِعب بَوّان . ويضربون بكلّ منها المثل فى الحسن والطيب وجمال المنظر . وقال أبو بكر الخُوارَزمىّ : قد رأيتها كلّها فكانت غوطة دمشق أطيبها وأحسنها ولم أميّز بين رياضها المزخرفة بالأنوار والأزهار، وغدرانها المغمورة بطيور الماء التى هى أحسن من الدراريج(١) والطواويس .

والغُوطة معناها الكُورة أى الناحية التى قصبتها مدينة دمشق وتشتمل على عدّة قرى مشتبكة الأشجار، متدفّقة الأنهار، متجاوبة الأطيار .

وأمّا نهر الأبلّة فهو بالبَصرة وحواليه ميادين النخل والأُترجّ والنارَنج وسائر الأشجار وقد كان فى هذه البقعة من أصناف الزرع وأنواع الخُضَر ما لا ينظر أحسن منه وعليها من القصور المتناظرة، والأبنية الرائعة(٢)، ما تحار فيه العيون، وتهشّ(٣) له النفوس .

(١) جمع دراج واحده دراجة (٢) راعه الشىء أعجبه لحسنه ومنظر رائع يروع الرائى بجماله

(٣) هش له وبه يهش هشاشة إذا خف إليه وشربه وارتاح له ورجل هش يهش إلى إخوانه وفلان ذو هشاش الى الخير . وزرته فاهتز لى واهتش بى .

وفى نهر الأبلّة يقول الشاعر «محمد بن أبى عُيَينة» .

ويا حبّـــذا نهر الأبلّة منظرا ✻ إذا مد فى أثنائه المـاء أو جَزَر[1]

والأبلّة مدينة صغيرة قرب البصرة كانت حسنة عامرة طيّبة البقعة نضرة الأشجار جارية الأنهار .

وأمّا صغد سمرقند فكان أحسن ما وصف به قول قُتَيْبَة[2] بن مُسْلِم الباهلىّ :

كأنّه السماء فى الخضرة ، وكأنّ قصوره النجوم الزاهرة ، وكأنّ أنهاره المَجَرّة[3] .

وقد كان متنزّها ناضرا ذا أنهار جارية ، وبساتين نَزِهة ، وأماكن مثمرة .

وأمّا شِعب بوّان فهو بالقرب من مدينة شيراز التى كان الفرس يتغزّلون فى هوائها ويترنّمون بذكرها ولا سيّما إذا أقبل فصل الربيع شباب الزمان . وقد عرفت العرب لها مكانتها فعنيت بها ، وذلك أنّها ظلّت قبل الفتح عرضة لاختلاف الأيّام وصروفها متردّدة بين الحياة والموت إلى أن جاء زمن الخليفة الأموىّ عبـد الملك بن مَرْوان فشَمّتْ رائحة العمران وأخذت تسير فى طريق التقدّم والحضارة . وفى عصر الدولة العباسيّة وحين قبض بنو بُوَيْه على ناصية الخلافة كانت مدينة شيرازَ من أرقى مدن فارس رونقا وبهاء ، وأكثرها عمارة وسكّانا ، وأصبحت مزارا لكلّ قاصد ، ونزهة لكلّ راغب ، يفـد إليهـا الناس من كلّ صوب[4] ، ويَنْسِلون[5] إليها من كلّ حَدَب[6] لكثرة خيراتها ، وطيب جانبها .

---

(١) جزر الماء من بابى ضرب وقتل انحسر وهو رجوعه الى الخلف ومنه الجزيرة لانحسار الماء عنها
(٢) هو الذى فتح سمرقند وهذه الجهات وكان أميرا عليها فى عصر بنى أمية (٣) ما يرى فى السماء كأنه طريق مستطيل يشبه أثر المجر وقد سميها العامة «سكة التبانة» (٤) جهة (٥) نسل الماشى ينسل نسلا ونسلانا أسرع كما ينسل ريش الطائر (٦) الحدب ما ارتفع من الأرض وجمعه حداب .

وفى تلك الأيّام كانت شهرة شعب بوّان قد طبّقت الخافقين[١] ولهج[٢] الشعراء بذكره، وأولعوا بقصده، فإنّ منظره مما يجد فيه الشاعر راحة ومددا لشعره إذ يوحى إلى نفسه ما يفتّق[٣] اللسان، ويُحِدّ الذهن، ويجلو صدأ النفس، ويُذْكى[٤] نار القريحة. بل إنّه ليطلق اللسان من العِقال، وينطقه بفصيح المقال، لما به من حدائق غنّاء، واسعة الأرجاء، فسيحة الأنحاء، تحار فيها الأبصار، وتقصر عن وصفها الأفكار.

يقع ذلك الشعب بالقرب من هذه المدينة فى بقعة خضرة الجنان، ملتفّة الأغصان، لا تكاد الشمس تقع على كثير من أرضها، لكثرة أشجارها المتكاثفة[٥]، وأغصانها المتهدّلة[٦].

سماء غصون تحجب الشمس أنْ تُرى * على الأرض إلّا مثـــل نثر الدراهم

قد ألحفتْها[٧] الأشجار ظلالها، وجاست[٨] الأنهار خلالها.

تُقنّعها[٩] الرياض بكلّ نَوْر * وتضحكها مطالع كلّ شمس

كثيرة المياه نضرة الأشجار، متجاوبة الأطيار، مُونَقة الرياض والأزهار.

كساها من الأنوار أبيض ناصـع * وأصـفر فقّاع[١٠] وأحمـر ساطـع

---

(١) طبق عم (٢) المشرق والمغرب (٣) يقال رجل فتيق اللسان أى حديد اللسان (٤) يشعل ومنه الذكاء وهو حدّة القلب وسرعة الفهم (٥) الكثيرة المتراكبة الملتفة وكثف الشىء كثر مع الالتفاف (٦) تهدّلت أغصان الشجرة تدلت وهـدل الشىء يهدله أرسله إلى أسـفل وأرخاه و الهدال ما تهدل من الأغصان (٧) غطتها بها وجعلتها لها كاللحاف والتحف بالشىء تغطى به (٨) جاس خلال الديار تخللها ودار فيها «ويستعمل كثيرا فى العيث والفساد» (٩) تغطيها به وتجعله لها كالقناع يقنع به الرأس وهو مقنع بالسلاح متستر به وقنّعه عمله خزيا وعارا غطاه بهما وغمسه فيهما (١٠) أصفر فاقع و فقاع شديد الصفرة وقد فقـع لونه من باب خضع ودخل .

قد اخضرّت منها التلاع[١] والوهاد[٢] ، وألبسها الربيع حَبِرة[٣] تحسدها عليها البلاد .

إذا غازلت ريحُ الشمال رياضَها * عَقِيب نداها خلتَها جنّةَ الخلْد

تجرى بالماء الزُّلال[٤] أنهارها ، وتفوح كالمسك أزهارها .

يجرى النسيم بغصنها وغديرها * فيُهَزّ رمح أو يُسَلّ مُهَنّد[٥]

فلا تبصر العين فيها إلّا ماءً وخضرةً ، وبهاء ونصرة ، وشجرا أَلْمَى[٦] ظلّ وارفه[٧] ،

وأغصانا متهدّلة متكاثفة ، وحدائق ذات بَهْجة ، وجنّات تنعش المهجة ، قد اشتبكت أغصانها ، واعتنقت أفنانها[٨] .

نثر الغيث درّ دمع عليها * فتحلّت بمثل درّ العقود

ومياها فضّيّة الأديم ، عليلة النسيم .

تظنّ بها ذوب اللُّجين[٩] فإن بدت * لها الشمس أجرت فوقها ذوب عسجد[١٠]

وطيورا تغدو وتروح ، فى الفضاء الفسيح ، بين الماء ، ورقيق الهواء . مغرّدة بألحان ، من دونها عزف[١١] القيان ، يَغْبِطها الإنسان أن كانت لها تلك البقعة سكنا ، وصارت لها مقاما ووطنا .

---

(١) جمع تلعة ما ارتفع من الأرض وقد يطلق على ما انخفض من الأرض أيضا فهو من الأضداد (٢) جمع وهدة وهو المكان المطمئن المنخفض (٣) البرد الموشى والثوب الجديد (٤) ماء زلال سريع المرور فى الحلق بارد عذب صاف سهل سلس (٥) السيف المنسوب إلى الهند (٦) ظل ألمى كثيف وشجر ألمى كثيف الظل وأصل اللمى سمرة فى الشفة (٧) ظل وارف متسع طويل ممتد وفعله ورف يرف كوعد ورفا ووريفا ووروفا (٨) جمع فنن وهو الغصن (٩) الفضة (١٠) ذهب (١١) عزف كضرب غنى والمعازف الملاهى كالعود والطنبور واحدها معزف أو معزفة والعازف اللاعب بها والمغنى .

فإذا احتدم[1] حرّ الهاجرة[2] أوى القائل منها إلى أطيب مقيل[3] ، والتجأ من جنانها إلى ظلّ ظليل[4] ، فطابت نفسه بتلك الخمائل[5] الرائقة التي كانت الأيام تزيدها جدّة ونضارة ، وتلبسها من الخضرة حلّة معطارة .

تصدّ الشمس أنّى واجهته * فتحجبها وتأذن للنسيم

ومتّع الطرف بأحسن مناظر الطبيعة وأبهاها من ماء قد جرت بين الأعشاب أراقمه[6] ، وروض قد أجاد وشيه راقمه[7] .

تجاب الريح منه أذكى من المسـ * ـك إذا مرّت الصبا بمكانه

وأزهار شتّى الألوان مختلفة الأشكال ، قد نمّ عليها شذا[8] عرفها[9] ووشى بها طيّب أريجها[10] .

فإذا الرياح تنسّمت في روضها * نثرت به مسكا عليك وعنبرا

وقل ما شئت في واد يحيي نسيمه ميت الأحياء ، وينعش النفوس منه طيّب الهواء ، حتّى غدا قيد النواظر ، وشرك الخواطر ، يطمح[11] الطرف إليه ، ولا يطرف[12] عنه .

مَصَحَّة أبدان ونزهة أعين * ولهو نفوس دائمٌ وسرورُها

---

(١) اشتد واتقد واحتدمت النار اشتد اتقادها (٢) نصف النهار عند اشتداد الحرّ (٣) اسم مكان من قال يقيل قيلولة إذا نام في الظهيرة مستريحا من حرها ، القائلة الظهيرة (٤) ظل ظليل ومكان ظاهل دائم الظل (٥) جمع خميلة وهي الشجر الكثير الملتف (٦) جمع أرقم وهي الحية التي فيها سواد وبياض شبه بها الماء الجاري الملتوي (٧) رقم الثوب والكتاب نقشه ووشاه والرقم كل ثوب رقم أي وشي برقم معلوم حتى صار علما (٨) الشذا حدة ذكاء الرائحة (٩) العرف الرائحة (١٠) الأريج والأرج توهج ريح الطيب وأرج الطيب فاح (١١) يرتفع ويمتد (١٢) طرفه عنه يطرفه صرفه وردّه ويقال شخص إليه بصره فما يطرف عنه .

يقصده المرء وقد ضاق صدره، وعيل[١] من الهموم صبره، فيُسَرّى[٢] عنه ما يراه ممّا تطيب به النفس، وتَقَرُّ العين ويشرح الصدر.

يرى شِعبا يشعِّب[٣] كلّ همّ * وملهًى مغنيا عن كلّ شان
بروض مونِق وخرير ماء * ألذّ من المثالث والمثانى[٤]
وتغريد الهَزَار[٥] على ثمار * تراها كالعقيق وكالجُمان[٦]

لهذا عُدّ ذلك الشِعب بحقّ من جنان الدنيا وأطيب نزهها، ذلك إلى ما كان به من أنواع الفواكه المختلفة لا مقطوعة ولا ممنوعة كشجر الجَوز والزيتون وجميع الفواكه النابتة فى الصخر، ومن أنواع الحيوان المتفاوتة والطيور المختلفة المتنوّعة حتّى كان مَصيدا لسلاطين فارس. ولم يزل إلى الآن معرضا لكلّ قسم من أقسام الحيوان والطيور، فكأنّه حديقة حيوان أنشأتها الطبيعة، وجبالها مكلّلة دائما بتاج من الثلج، وسفوحها[٧] مزيّنة بحلل من الخضرة قد دبّجها الغيث وطرّزها من الأنوار بكلّ ذات لون بهيج. وعن المبرّد أنّه قال: قرأت على شجرة بشعب بوّان:

إذا أشرف المحزون من رأس تَلْعة * على شِعب بوّانَ استراح من الكَرْبِ
وألهاه بطن كالحريرة مسّه * ومطّرِدٌ يجرى من البارد العذبِ
وطيب ثمار فى رياض أريضة[٨] * على قرب أغصان جناها على قربِ
فبالله يا ريح الجنوب تحمّلى * إلى أهلِ بغدادٍ سلامَ فتى صبٍّ

(١) غلب وعال الشىء فلانا غلبه وثقل عليه وأهمه (٢) سرى عنه انكشف وزال (٣) يفرّق ويشتت
(٤) المثانى من أوتار العود ما بعد الأوّل واحدها مثنى (٥) طائر حسن الصوت أو هو العندليب
(٦) الدرّ والجمانة أيضا حبة تعمل من الفضة كالدرّة (٧) سفح الجبل أسفله ووجهه وعرضه المضطجع
(٨) يأرضت الارض فهى أريضة أى زكية معجبة للعين.

وإذا فى أسفل ذلك مكتوب :

ليت شعرى عن الذين تركنا * خلفنا بالعراق هل يذكرونا

أم لعلّ المدى تطاول حتّى * قدم العهد بعدنا فنسُونا

وقال بعض الأدباء قرأت على شجرة دُلْب[1] تظلّل عينا جارية بشعب بوّان ما يأتى :

متى تبغنى فى شعب بوّان تلقنى * لدى العين مشدود الركاب إلى الدُلْب

وأعطى وأخوانى الفتوّةَ[2] حقّها * فما شئت من جدّ وما شئت من لعب

ولمّا نزل عضُد[3] الدولة بن بويه شعب بوّان متوجّها إلى العراق ومعه أبو الحسن السّلامىّ الشاعر المشهور قال له : قل فى الشعب فقد عرفت ما قاله المتنبّى فيه فعاد إلى خيمته وكتب قصيدة طويلة منها :

امرر على الشعب وانزل روضه الأُنُفا[4] * قد زاد فى حسنه فازددْ به شَغَفا

إذ ألبس الهيف[5] من أغصانه حللا * ولقّن العجم من أطياره نُتَفا[6]

وانظر إليه تر الأغصان مثمرة * من نازع قُرُطا[7] أو لابس شنفا[8]

والماء يثنى على أعطافها أُزُرا * والريح تعقد فى أطرافها شرفا

---

(١) الدلب شجر يعظم ويتسع ولا نور له ولا ثمر وهو مفرد الورق واسعه شبيه بورق الكرم واحده دلبة ويسمى شجر الصنار وكانوا يتخذون منه النواقيس (٢) الفتوة الكرم والفتى السخى الكريم (٣) من ملوك بنى بويه وهو أعظمهم وأوسعهم ملكا وأقواهم وأبعدهم شهرة فى القرن الرابع الهجرى (٤) روضة أنف أى لم يرعها أحد فكأنه استؤنف رعيها (٥) الهيف فى الأصل ضمر البطن ورقة الخاصرة وفعله هيف كفرح فهو أهيف وهى هيفاء وجمعهما هيف شبه الغصن بالمرأة الهيفاء لدقته (٦) جمع نتفة وهى القطعة من الشىء يريد قطعا من الغناء (٧) القرط الحلق المعلق فى شحمة الأذن (٨) الشنف القرط الأعلى .

أمّا أبيات المتنبّى التى هى أشهر ما وصف به شعب بوّان وأحسن ما قيل فيه فهى من قصيدة قالها وهو قاصد عضد الدولة بن بويه بشيراز فاجتاز شعب بوّان فراقه ما رأى وحرّك منه قول الشعر فقال :

مغانى[1] الشعب طيبا فى المغانى * بمنزلة الربيع من الزمان

ولكنّ الفتى العربىّ فيها * غريب الوجه واليد واللسان[2]

ملاعب جِنّة لو سار فيها * سليمانٌ لسار بترجمان

طبت[3] فُرساننا والخيل حتّى * خشيت وإن كَرُمْنَ من الحِران[4]

غدونا ننفُض الأغصان فيها * على أعرافها[5] مثل الجُمان

فسرت وقد حجبن الشمس عنّى * وجئن من الضياء بما كفانى

وألقى الشرق منها فى ثيابى * دنانيرا[6] تفرّ من البنان

لها ثمر تشير إليك منها * بأشربة[7] وقفن بلا أوانى[8]

وأمواه يَصِلُّ[9] بها حصاها * صليل الحَلْى فى أيدى الغوانى

منازل لم يزل منها خيال * يشيّعنى إلى النوبندجان[10]

---

(١) المغنى المنزل من غنى بالمكان أقام به وعاش فيه (٢) غريب الوجه لقلة وجوده وندرة رؤيته وغريب اليد لا يملك بها شيئا وغريب اللسان لا يسمع بها لغته لأن هذه الجهات فى ذلك العصر كانت قد استعادت لغتها الأصلية وكادت لغة العرب تمحى منها بعد تغلب الأعاجم على الدولة وهم أهل هذه النواحى (٣) استمالت (٤) فرس حرون لاينقاد وإذا اشتد به الجرى وقف وقد حرن يحرن كنصر (٥) جمع عرف وهو شعر رقبة الفرس (٦) يريد بها مايسقط من أشعة الشمس على الأغصان ويتخللها فهو يرف عليها ويسقط منها كنثور الدراهم (٧) جمع شراب (٨) جمع آنية جمع إناء (٩) صل يصلّ صليلا صوّت كصلصل (١٠) النوبندجان : مدينة قريبة من الشعب ومنها إلى أرّجان قدر ستين فرسخا وشعب بوّان بينهما وأرّجان كانت مدينة كبيرة كثيرة الأشجار حسنة المكان .

إذا غنّى الحمام الوُرْق[1] فيها * أجابتها أغانىّ القيان

ومَنْ بالشعب أحوج من حمام * إذا غنّى وناح إلى البيان

وقد يتقارب الوصفان جدّا * وموصوفاهما متباعدان

يقول بشِعب بوّانٍ حصانى * أعن هذا يسار إلى الطعان ؟

وكتب أحمد بن الضحّاك الفلكىّ فى أواخر العصر العباسىّ إلى صديق له يصف شعب بوّان :

بسم الله الرحمن الرحيم كتبت إليك من شِعب بوّان وله عندى يد[2] بيضاء مذكورة ومِنّة غرّاء مشهورة ، بما أولانيه من منظر أعدى[3] على الأحزان ، وأقال[4] من صرف[5] الزمان ، وسرّح[6] طرفى فى جداول[7] تطّرد[8] فى ماء معين منسكب[9] ، كأنّما حين جرى آذيّها[10] يترقرق[11] ، وتدافع تيّارها يتدفق ، وارتجّ[12] حَبابها[13] يتكسّر فى خلال زهر ورياض ، ترنو[14] بحَدَق مِراض ، قصبُ لُجَينٍ فى صفائح عِقيان[15] ، وسموط[16] دُرّ بين زبرجدومَرْجان ،

---

(١) جمع ورقاء وهى الحمامة فى لونها بياض إلى سواد (٢) يد بيضاء نعمة عظيمة مشهورة (٣) أعداه عليه نصره وأعانه وقوّاه واستعداه استغاثه واستنصره تقول استعديت الأمير على فلان فأعدانى أى استنصرته فنصرنى (٤) أقال الله عثرته إذا رفعه من سقوطه وأغاثه من كربته (٥) حادث (٦) أرسل (٧) أنهار ومجار (٨) تجرى متتابعة (٩) سكب الماء صبه وبابه نصر وماء مسكوب ومنسكب أى منصب جار على وجه الأرض من غير حفر (١٠) الآذى الموج (١١) يتحرك و يتلألأ و يلمع وكل شىء له تلألؤ فهو رقراق . وترقرق الماء جاء وذهب ولذا الدمع إذا دار فى الحلاق (١٢) ينصب (١٣) حباب الماء معظمه وطرائقه أو نفاخاته التى تعلوه (١٤) رنا اليه يرنو رنوا رام النظر اليه بسكون الطرف (١٥) العقيان الذهب الخالص (١٦) جمع سمط وهو خيط النظم ما دام فيه الخرز والا فهو سلك والسمط القلادة .

أثَرٌ على حكمة صانعه شهيد، وعلَمٌ على لطف خالقه دليل ، إلى ظلّ مَجْسَجٍ(١) أحوى ، وخَضِلٍ(٢) ألمى ، قد غنّت عليـه أغصان فينانة(٣) ، وقُضُب غيدانة(٤) ، يستقيدها(٥) النسيم فتنقاد، ويعتدل بها فتعتدل، فمن متورّد يروق منظره، ومن تَجّ يتهدّل مثمره، مشتركة فيه حمرة نُضْج الثمار، بنفحة(٦) نسيم النوّار(٧) ، وقد أقمت به يوما وأنا لخيالك مسامر(٨) ، ولشوقك منادم(٩) ، وإذا تفضّل الله بإتمـام السلامة إلى أن أوافى شيراز كتبت إليك من خبرى بما تقف عليه إن شاء الله تعالى .

الحمـــراء

على ربوةٍ عاليةٍ من ربا "سيرانفادة"(١٠) مشرفةٍ على مدينة غرناطة قلعةٌ فخمة تعرف بالحمراء أو "القصر الأحمر" أسّسها ابنُ الأحمرِ فى القرن الثامن الهجرى لتسـع وأربعينِ ألف جندىّ ولا غرو فى ذلك فمساحتُها خمسة وثلاثون فدّانا .

وهى الآن مدينة فسيحة ذات شوارع ودير وكنيسة .

---

(١) يوم مجسج لا حر ولا قر وكذلك الهواء والظل ونحوهما (٢) الخضل والخاضل كل شىء ند يترشف نداه ، خضل كفرح واخضل واخضال واخضله بله (٣) الفينان الحسن الشعر الطويله وهى فينانة (٤) الأغيد من للنبات الناعم المتثنى والغيدان الشجرة الغضـة (٥) يقودها (٦) نفح الطيب فاح ، وله نفحة طيبة ونفحت الريح هبت ، وقال الأصمعى : ما كان من الرياح له نفح فهو برد وما كان له لفح فهو حر (٧) النوار نور الشجر واحده نوارة (٨) السمر والمسامرة الحديث بالليل والمسامر والسمير المحدث يأنس المرء بحديثه (٩) المنادم والنديم المشارك فى الشراب ونادمه جالسه (١٠) مدينة بالأندلس ومعناها باللغة الأندلسية الرمانة سميت بذلك لحسنها .

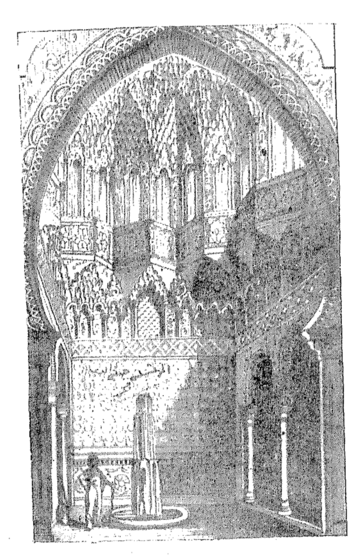
وفى داخلها بنى القصر الأحمر، قصرُ العظمة ، وبيت الجلال، ومعجزة الفنّ، والمثل الأعلى للصناعة العربيّة ، وقصارى ما أبدعته يد الفنّان ، ومنتهى ما وصلت إليه صناعة الإنسان، فى غابر الأزمان ، أطلّت منه الحضارة العربيّة ، وقد أخذت زخرفها وازّيّنت على أوربة ، وهى إذ ذاك موحشة مقفرة ، فكان ذلك أسطع دليل ، وأعدل شاهد على أنّ الحضارة الغربيّة ، وليدة الحضارة الشرقيّة .

يرى السائر إلى ذلك القصر، شبه أبراج مربّعة، تكاد تناطح السماء ، تكنفها قباب دكناء[1] ، كوّنتها الأشجار المحيطة بها، حتّى إذا أتى على مدخله ، ألفى قواعده تتخلّلها ممـاش جمّة ، وساحات فسيحات، يغطّى تربتها بساط أخضر من النبات ، فإذا ما تقدّمت به قدماه ، رأى نفسه فى القاعة المسمّاة بيت القضاء ، وهى حجرة فسيحة الأرجاء ، كان يجلس فيها الخلفاء ، مع ذوى الرأى من رجالات[2] الدولة ، للنظر فى الدعاوى والظلامات ، أرضها من الرخام ، ونقوشها غاية فى الإتقان ، وسقفها مكوّن من ثلاثة آلاف قطعة ، وصل بعضها ببعض بمهارة عجيبة ، يخالها الرائى قطعة واحدة ، وآخر من جلس فيها ابن السرّاج، وإليه تنسب هذه الحجرة ، وفيها قتل غيلة[3] ، وعلى أرضها بقعة حمراء ، يقال إنّها من دمه ، وقد ذهب بعض المتأخّرين إلى أنّها ليست بدم ، وإنّما نشأت من اتّحاد الماء بالحديد، وإليك صورة هذه الحجرة البديعة :

---

(١) الدكنة : لون بين السواد والحمرة (٢) رجالات الدولة أشرافها (٣) قتله غيلة خدعه وذهب به إلى موضع فقتله .

بيت القضاء



فإذا ما غادرت هذه الحجرة، ألفيت فناء رحبا على أحد جانبيه قصر «شرلكان» الخامس، غير تامّ البناء، ولهذا القصر قصّة خلاصتها: أنّ الحكّام المسيحيّين بعد خروج العرب من الأندلس، اتّخذوا القصر الأحمر مقرّا لهم، فسوّلت لشرلكان نفسه أن يهدم جانبا منه، ويقيم حليه قصرا يكسف ضوؤه نور الصناعة العربيّة، فلم يتمّ له ما أراد، لأنّ الطراز العربيّ بذّ(1) الطراز الإسبانيّ، هـذا إلى أنّ القصر المسيحيّ زال طلاؤه، وبليت خشبه، وتفكّكت أحجار قبابه، أمّا القصر العربيّ

(1) بذ فلان أصحابه غلبهم .

فلم يطرأ عليه تغيّر إلّا ما أحدثه الإسبانيّون بأيديهم من تشويه وتخريب ، ولا زال لون طلائه زاهيا لامعا ، مع أنّ البحث العلميّ أثبت أنّ هذا الطلاء لم يدخله زيت ، وما برحت أبوابه ونوافذه وسقفه لا يجد البلى إليها سبيلا .

وعلى الجانب الآخر من هذا الفناء ، البقيّة الباقية من الحمراء ، وفيها قاعة الآس[1] التى تأخذ بالألباب ، وهى توصلك إلى حجرة تعرف بصحن البركة فيها بحيرة جميلة احتوت أنواع السمك ، وفى وسطها تماثيل أسودٍ ، تقذف المياه من أفواهها قذفا يسرّ الناظرين .

ولا يغادر الزائر هذه الحجرة حتّى يرى قاعة الخلافة يعلوها الوقار ، وتكسوها المهابة ، قد زيّنت بمختلف القُبَب ، وزخرفت بأبدع النقوش المموّهة بالذهب .

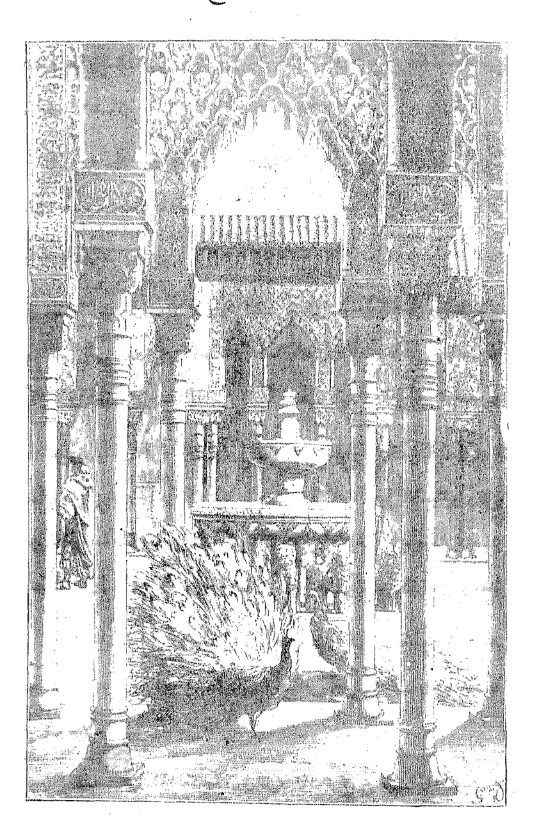
وقرب هذه الحجرة غرفة زوج الخليفة ، وهى غرفة بديعة ، جنّة النواظر ، وشرك الخواطر ، أرضها من الرخام الأبيض ، وسقفها مذهّب ، أحرق فيها من الطيب ، ما جعل بعض الغالين ، يزعمون أنّ الروائح الذكيّة ، لا تزال تنبعث من أرضها الفضّيّة ، وتشرف نوافذها على روضة ليس فى استطاعة الإنسان أن يُزْجى[2] وصفها إلى ذهن القارئ ، ولو أوتى فصاحة سحبان .

ولعلّ أبدع ما فى هذا القصر ذلك البهو المسمّى بمقصورة السباع فإنّك تخاله غابة بديعة من الأعمدة الدقيقة يتناثر خلالها رشاش الماء من فَوّارة السباع تناثر الشرر ، إذا اندلع به لسان اللهب ، وعلى حافة هذه الفَوّارة تماثيل السباع التى لم تحكم عرا الشبه بينها وبين السباع الحقيقيّة ، لأنّ صانعها راعى ما نهى عنه الدين من إقامة التماثيل المجسّمة للكائنات الحيّة وهاك صورتها :

---

(١) الآس شجر معروف واحدته آسة (٢) يسوق .

مقصورة السباع



دع ما بهذه الغرفة من قباب مختلفة ، ونقوش غاية فى الإبداع ، وزخارف آية فى الإحكام ، واسلك سبيلك من ذلك الباب المصنوع من الشبه[1] تجد حجرة أبدعت فيها ريشة المصوّر ، فلا ترى إلّا معجزات فى الفن متشابهة ، وبدائع فى الصناعة متماثلة .

أليس من حقّك أن تَعْجَب إذا علمت أنّ المجمع الفرنسى أثبت أنّ كلّ الزخارف صبّت صبّا ، ثمّ أُحكم اتّصالها إحكاما جعل الرائى يعتقد أنّها قطعة واحدة لا يرى فيها عِوَجا ولا أَمْتا[2] .

ولقد بلغ من إعجاب الإنجليز بهذا القصر أنّ أرادوا محاكاته فأقاموا مثيله بمدينة "سِدِنهام" حتّى كان يخيّل لزائره أنّه فى مدينة غرناطة يمتّع ناظريه بالقصر الأحمر شكلا ، وإن كان أقلّ منه اتّساعا ، وممّا يؤسف عليه أنّ نارا التهمته فدمّرته .

سر فى رياض الحمراء ذات الأريج[3] ، والزهر البهيج ، وانظر كيف ذوى نبتها ، بعد أن أفل نجمها ، وتجهّمها[4] الدهر ، وتنكّرت لها الأيّام ، فأقبل الإسبانيّون على جنّة العرب الفيحاء ، فانتزعوا كلّ ما أمكنهم انتزاعه من الحمراء ، وباعوه بثمن بخس دراهم معدودات ، وظنّوا أنّ هذا يشفى غليل صدورهم ، ويذهب بآثار من كانوا سببا فى تمدينهم .

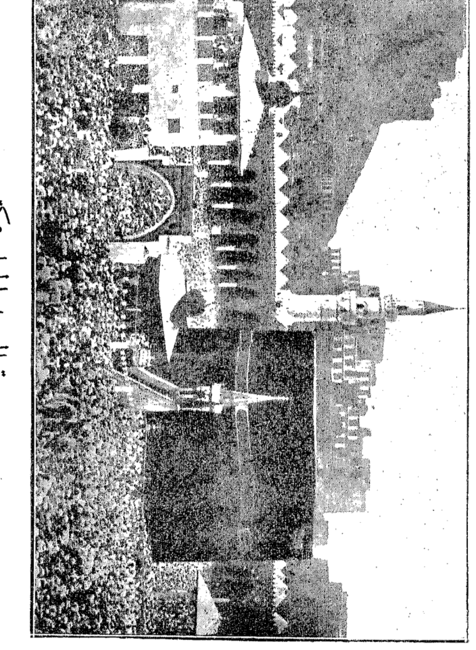
ولولا هُواةٌ من أهل الفنّ بحّت أصواتهم فى نداء الغرناطيّين وأعلموهم أنّ فى مدينتهم أعجوبة من أعاجيب الزمان ، وتحفة من أجلّ التحف يجب حفظها من الحِدْثان[5] . لأتوا على بنيانها من القواعد .

---

(١) الشبه : البرنز (٢) الاختلاف فى الشىء (٣) توهج ريح الطيب (٤) تجهمه وله قابله بوجه كريه أو غلظة فى القول (٥) حدثان الدهر : نوبه كحوادثه وأحداثه .

المسجد الحرام

(١)



صورة المسجد الحرام بمكة

هو أوّل المساجد الثلاثة المقدّسة ، وثانيها مسجد المدينة المنورة ، وثالثها المسجد الأقصى بالشام ، تلك هى المساجد التى تشدّ إليها الرحال ، وتحفز[1] لزيارتها الهمم ، وتساق إليها الهدايا ، وتتضاءل[2] أمام مجدها القصور الشامخة ، والصروح العالية . والمسجد الحرام أعلاها وأفضلها ، فإنّه دار الكعبة المعظّمة : توسّط مكّة فأضحت للإسلام منارا ، ولأهله مزارا ، ولمجده دارا .

يراه القادم عليه فيروعه منظره : إذ يرى بناء كبيرا يتلألأ بهاء ويفيض نورا . ويشاهد أشرف البيوت التى أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه . وتتراءى[3] له مناراته العالية ، تضرب فى جوّ السماء فتلق على مكّة الجلال والرّواء . ثمّ يدخله فيرى منظرا مهيبا . وفضاء رحيبا . وأعمدة قائمة . وقبابا عالية . وطرقا منسّقة . ونقوشا منمقة[4] . ويشاهد الكعبة المشرّفة . ماثلة وسط البيت . يحيط بها المطاف والحطيم ، وزمزم ومقام إبراهيم . فهنالك يمتزج بنفسه الفرح والخشوع . فيخفق قلبه رهبة وحبورا . ويفيض إيمانا ونورا . فما أبدعه منظرا ! وما أروعه مشهدا !

وللمسجد الحرام أدوار تدرّج فيها فى مدارج العمران . حتّى بلغ ما بلغه من الجمال والإتقان ، فلم يكن مسوّرا إلى زمن عمر بن الخطاب ، فهاله أن رأى الناس يزحفون بمنازلهم على الكعبة فهدم ديارا كثيرة وأدخلها فى المسجد الحرام ونهج منهجه عثمان بن عفّان . ثمّ تناولته أيدى الخلفاء والأمراء بالتوسعة والإبداع حتّى صار آية فى الجمال . وممّن فضلوا غيرهم فى ذلك العمل الجليل «الوليد ابن عبد الملك» فقد نقل إليه أساطين[5] الرخام وسقّفه بالساج وحلّى أعالى الأساطين

---

(١) تدفع (٢) تصغر (٣) تبدو (٤) حسنة مزينة (٥) الأعمدة والسوارى الواحد أسطوانة .

بصفائح من الشبه[1] مموّهة بالذهب الخالص، فأصبح منظرها يأخذ بالألباب، وجعل للحرم إزارا من الرُّخام وشُرُفات كثيرةً. وزاد المنصور[2] في سعته، واشترى في ذلك عدّة منازل. ورأى المهديّ[3] أنّ الكعبة ليست في وسط الحرم الشريف فوسّع في عمارته حتّى صارت في الوسط وجلب من الشام أساطين الرخام حُملت إلى «جُدّة» وحملت من «جُدّة» إلى مكّة على عجل[4] وفي سنة «٩٧٩ هـ» حشد السلطان «سليم» مهرة الصنّاع وحُذّاقهم لإصلاح ما يحتاج إلى الإصلاح من بناء المسجد وأقام عليه القباب الفخمة واستعاضها عن السقف. وأتمّ السلطانُ «مراد» ما فات سلفه السلطانَ «سليما» من ضروبِ الإتقانِ والإبداع. ومن ذوي الأثر الصالح في عمارته سلطانا مصر «برقوق وقايتباي». وبالحرم الآن أروقةٌ أربعة تمتدّ بجوانب جدره على أعمدة تعدّ بالمئات: بعضها من حجر أحمر أجيد نحته وصقله، وبين الأعمدة عقود كثيرة رائعة المنظر تبلغ المئات عدّا. أمّا أرضه فذات بهجةٍ ورواءٍ، تزيّنها طرق من الرُّخام بين أقسام مزدانة بالحصباء[5]. وله اثنان وعشرون بابا في جهاته الأربع منها في الجهة الشرقيّة «باب السلام» و«باب النبي» و«باب العباس» وقد يكون للباب الواحد عدّة مداخل. وبه منبر من الرخام يمتاز بدقّة الصَّنعة. وعظيم الإحكام؛ أهداه إلى المسجد السلطان «سليمان» وكتب عليه (إنّه من سليمانَ وإنّه بسم الله الرحمن الرحيم). ومن عجائب الحرم حَمَامُ الحِمى الكثير فهو في رحابه يأنس بالناس وهم يبسطون إليه أكفّهم[6] بالحَبّ فيقع عليه آمنا مطمئنّا، ويحتشد بالأبواب

---

(١) البرنز (٢) الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور ثاني خلفاء الدولة العباسية ولي الخلافة سنة ١٣٦ هـ (٣) الخليفة العباسي محمد المهدي أبو الرشيد تولى سنة ١٥٨ هـ (٤) جمع (٥) صغار الحصى (٦) يجتمع.

مئات من البائسين عيشهم من الصــدقات ، ويجدون ربيعهم فى موسم الحجّ .
وللمسجد بين الأروقة صحن فسيح غير مسقوف . وسعة المسجد تزيد على أربعةِ أفدنةٍ وربع فدانٍ ، ويكاد يكون مربّع الشكل، وله ستّ مآذن فخمة عجيبة بنى إحداها السلطانُ (قايتباى) من ملوك دولة المماليك بمصر. ولكلّ إمام من أئمّة المذاهب الأربعة مصلّى خاص يصلّى فيه، ولقب «خادم الحرم» ممـا يتشرّف به الملوك والسلاطين وعدد خَدَمه زُهاءُ سبعمائة، والخطباء منهم يُنيفُون[1] على المائة وأقرب المساجد فى مصر شبها بالمسجد الحرام جامعُ «ابنِ طولون» وجامعُ «عمروِ بن العاص» بالفُسطاط .
وفى جداره الشرقىّ من الخارج عمودان بينهما مسافة سبعين مترا اسمهما الميلان الأخضران يهرول[2] الحجّاج بينهما فى أثناء السعى بين الصفا والمروة . والمسجد ومكّة وما حولها حرم من دخله كان آمنا ، فهو ملاذ العائذين . ومأمن الخائفين. لايُهاج طيره ، ولا يُصاد وحشه ، ولا يُختلى[3] خَلاه . فقد جُعِلَ حمى الإنسـانِ والحيوان والنبـات .

أمّا الكعبة فهى وسْطِ المسجد الحرام . يراها الإنسانُ ماثلة فيه تتجلّى فى برودٍ[4] من الحرير قشيبةٍ[5] ، أهداها إليها الملوكُ والأمراء، وثياب من الجلالِ رهيبة. أسبغها[6] عليها ربُّ الأرضِ والسماء . وتتيه بتاريخها المجيد ، وشرفِها التليد ، وعمرِها المديد، على قصور الملوكِ الصيدِ[7]، وتمرّ بها الحوادث تباعا ، وتجتازها دولات الزمان سراعا فتقوم دول إثْرَ دول وهى رفيعُ قدرها . عظيمُ خطرُها[9] . جليل شأنها . تعفو[10] القصورَ

---

(١) يزيدون (٢) نوع من السير بين المشى والعدو (٣) يجز حشيشه (٤) ثياب جمع برد كقفل
(٥) جديدة (٦) أتمها (٧) تتكبر وتزهو (٨) جمع أصيد وهو من يميل رأسه كبرا (٩) شرفها ومنزلتها
(١٠) عفا المنزل يعفو عفوا درس وامحى .

العالية . وهى على الدهر باقية ، فأين منها (الخورنق)[1] الطائر الصيت بل أين ما شاده «شداد»[2] فى إرم[3]، أتى على الكل حادث الزمان ؛ والكعبة تزداد على الأيام مجدا ، وتسمو فى معارج[4] الشرف والجلال وجدير بها ذلك . فشتان بين مسكن الإنسان . ومعبد الرحمن ، ولن تزال كذلك ما عُبد الله فى الأرض .

رفع قواعدها سيدنا إبراهيم الخليل وولده إسمعيل ، فكانت أول بيت وضع للناس وأجمعت الأمم على احترامها ، يستوى فى ذلك العرب والعجم . فقد كان الفرس يحجونها فى الجاهلية ويعدون ذلك من مفاخرهم .

ولقد كان اليهود والنصارى يبالغون فى احترامها وكانت سدانتها[5] ولا تزال مطمح أنظار القبائل . وملتقى آمالهم وهم يتفاخرون بولاية البيت ويعدون فقدها أشد الكوارث فقد كانت «جرهم»[6] تلى أمر البيت ثم طاحت بعزها الطوائح فقال أحد شعرائها بعد ما ذهبت منهم ولاية البيت يندب مجدا ضائعا . وشرفا بائدا :

وكنا ولاة البيت من عهد نابت[7] * نطوف بذاك البيت والأمر ظاهر

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا[8] * أنيس ولم يسمر بمكة سامر

بلى نحن كنا أهلها فأبادنا * صروف الليالى والجدود العواثر[9]

---

(١) الخورنق قصر كان للنعمان بن المنذر ملك الحيرة (٢) من ملوك اليمن (٣) هى إرم ذات العماد التى بالغ المؤرخون فى وصف ما كانت عليه من السعة والعمران وفخامة الأبنية ببلاد اليمن فهى على هذا مدينة يزعم بعض المفسرين أنها كانت بجهة عدن ورجح ابن خلدون أنها اسم قبيلة وأن عادا فصيلة منها (٤) جمع معراج وهو السلم (٥) خدمتها (٦) ذهبت (٧) ولد اسمعيل (٨) جبلان بمكة (٩) الحظوظ .

وقد كساها أحد التبابعة[1] قبل الهجرة بعشرين عاما ثيابا يمانيّة وجعل لها بابا ومفتاحا وافتخر بذلك إذ يقول :

وكسونا البيت الذى حرّم اللـــه مُلَاء مُقَصَّبا وبرودا *
وأقمنا به من الشهر عشرا * وجعلنا لبابه إقليدا[2]

وكانت العرب تحالف عندها . وتتقاسم بها . وكانت فى الجاهليّة تفتح يومى الاثنين والخميس ويدخلها من يؤذن له فيخلع نعليه احتراما لها ، وقد تهيّبوا أن يهدموها لتجديد بنائها حينما تداعت[3] جدرها قبيل البعثة النبويّة وحسبوا أنّ فى هدمها حلول العذاب الأليم . فلمّا اجترأ على هدمها أحد كبرائهم توقّعوا أن تصيبه صاعقة أو يحلّ عليه عذاب مقيم ، ثمّ بنوها وتنازعوا فى وضع الحجر الأسود وكادت نار الحرب تضطرم بينهم لولا أن مرّ بهم النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وكان غلاما ناشئا وكانوا يسمونه الأمين لصدقه وأمانته ، فرأى لهم أن يشتركوا جميعا فى وضعه ثمّ بسط رداءه وألقى الحجر فوقه فحملت كلّ قبيلة طرفا من أطراف الرداء ووضعوه حيث هو الآن على يمين باب الكعبة ، ولكنّهم تركوا منها جزءا فى الجهة الشماليّة فلم يدخلوه فى بنائها وسمّوه «الحِجْر أو الحطيم» وأقاموا عليه جدارا حتّى يعلم الناس أنّه كان داخلا فى الكعبة المبنيّة على قواعد إبراهيم .

---

(١) ملوك اليمن جمع تبع (٢) مفتاح (٣) تداعى البنيان تصدع من جوانبه وآذن بالانهدام والسقوط .

المسجد الحرام

(٢)

تلك حال الكعبة فى الجاهليـة وقد زادها الإسـلامُ مجـدا إلى مجدِها فاتّخذَها المسلمون قبلتَهم وصار حجّها ركنا من أركان دينهم فهى من الإسـلام كالقلبِ من البدنِ أو الإنسانِ من العين . وقد كساها النبيّ عليه الصلاة والسلام وتبعه الخلفاء من بعـده . وضمّخها[1] « معاوية » بالطيب وتبارى الملوك والسـلاطين فى إصلاح بنائها وزيادة زخرفها وإلباسها أفخر الثياب . وبلغ من احترام الناس لها أنّهم يتهافتون[2] على ما يخلعُ من كسوتها فيشترون أجزاءَها بكلّ ما تصلُ إليه طاقتُهم وصار أقصى آمالِ كلّ عظيمٍ أن يقومَ بشىء من عمارة البيت ويقرن به اسمُه منقوشا على الجدارِ فيخلّد له ذلك ويسمو به قدرُه . ويفخرُ به أعقابُه . وقد كانت فى الجاهليّةِ بمثابةِ دارِ تحفٍ تجعل بها مفاخرهم وعهودهم . وما سمّيت المعلّقاتُ بهذا الاسم إلّا لأنّها كانت معلّقةً فيها وكذلك كان شأنها فى الإسلام . فقد علّق فيها « الرشـيدُ » عهدَه بالخلافةِ « للأمينِ » ثمّ « للمأمون » . وقد حجّ المهدىّ العباسىّ سنة ستّين ومائةٍ للهجرة فرأى فوقها من الثياب شيئا كثيرا لا حاجة إليه فأمرَ بتجريدِها منها وطيّبها بالغالية[3] وصعد بنفسه فوقها وصبّ عليها قوارير من الطيبِ وكساها ثلاثة أثواب من القباطىّ[4] والخز والديباج . وقد لبست مصر رداءَ الشرفِ العظيمِ بما ترسله كلّ عام إلى البيت الحرام من الأكسيةِ الفاخرة ، فيقام لذلك مِهرجانٌ عظيمٌ تتجلّى فيه العظمةُ والجلال ويحضره

---

(١) لطخها (٢) يزدحمون (٣) الغالية أخلاط من الطيب يقال تغليت بالغالية أى تطيبت بها ـ

(٤) الثياب المصنوعة فى مصر الواحد قبطى بضم القاف نسبة على غير قياس وهو ثوب من كتان رقيق .

صاحب الجلالة ملك البلاد وكبار رجال الدولة وأشراف الأمة . والكعبة الآن تكاد تكون مربعة الشكل مبنيةٌ بالحجارة الزرقاء . ارتفاعها خمسةَ عشرَ مترا ، وطول كلّ من ضلعيها الشرقيّ والغربيّ اثنا عشر مترا وطول كلّ من الضلعين الآخرين يزيد قليلا على عشرة أمتار . والباب فى جدارِها الشرقيّ ، وعلى يمينِه الحجرُ الأسود الذى يعظّمه المسلّمون ويتزاحمون لاستلامِه (١) يرتفع عن الأرضِ ذراعين وثلثى ذراع وقطره ثلاثون سنتيمترا وعليه إطار من الفضّة . والباب مرتفع عن الأرض نحو قامة فلا يدخل أحد الكعبة إلّا بعد أن يرتقى سلّما مغطّى بصفائح الفضّة . وقلّما تفتح الكعبة إلّا لغسل داخلها أو للزيارة . ومن أركانِها الأربعة ما ينسب إلى ما يقابله من الأقطار فمنها الركن اليمانىّ المتّجه نحو اليمن . والركن الشامىّ والعراقىّ . أمّا الركن الذى فيه الحجر الأسود فاسمه الركن الأسود . وبها من الداخلِ نَضَـد توضـع فوقه مفاتيحها وتكسوه الحكومةُ المصريّةُ كلّ عام مع الكعبـة . ويحيط بها من الداخل إزارٌ من الرُخامِ ارتفاعُه نحو قامةٍ . بها محرابٌ كان يصـلّى فيه النبيّ عليه الصلاة والسلام . وتكسى الكعبة الثيابَ السوداءَ جريا على عادة بنى العبّاس الذين كان شعارُهم السواد وفى جدارِها الغربىّ كتاباتٌ كثيرة رائعـة المنظر منها « أمر بتجـديد داخل البيت السلطانُ الملكُ أبو النصر قايتباى خلّد الله ملكه ياربّ العالمين عام أربع وثمـانمائة من الهجرة » وحلقتا باب الكعبة ومساميره من الذهب الخالص . والجزء الذى بين بابِهـا والحجر الأسود من جدارِها الشرقىّ يسـمّى « الملـتزَم » يلتزمه الحجّـاج بصدورهم وأيديهم ويدعونَ ربّهم ، وذَرْعُه (٢) أربع أذرع وسدسُ ذراع ، والمطاف دائر حول الكعبة وطوله مائة متر وأرضــه من الرخام وطول قطره من الشمال إلى

---

(١) تقبيله (٢) مساحته .

الجنوب واحد وخمسون مترا ، ومن الشرقى الى الغربى واحد وأربعون مترا . وتجاه باب الكعبة خارج المطاف مقام إبراهيم وهو حجر قام عليه إبراهيم عليه السلام حين بنى الكعبه ومكعّبه ذِراع وهو كالحجر الأسود موضع إجلال المسلمين واحترامهم وعليه صندوق من الساج . «وزمزم» فى خارج المطاف إلى الجنوبىّ الشرقىّ من المقام عليها قبّة ترتفع عن الأرض نحو قامة وسعة فم بئر « زمزم » نحو أربع أذرع . هذا ولم تنج الكعبة فى تاريخها المـاضى من العابثين الذين حاولوا صرف الناس عنها . فمن أولئـك « النَجاشىُّ » الذى تغلّب على اليمن وساق الكتائب لهدمها عام الفيل فأهلكهم الله بالطير الأبابيل ، وجعل كيدهم فى تضليل . ومنهم «طاهر القرمَطِىّ» الذى شقّ عصا الطاعة على « المقتدر » العباسىّ . فقد بنى دارا سمّـاها دار الهجرة « بِهَجَر » من بلاد البحرين وقطع سبل الحجّ وانتهك حرمة المسجد الحرام فأعمل السيف فى رقاب الحجيج ونزع الحجر الأسود وأخذه ، وحسِب أنّ الأمر قد تمّ له ولكن خاب فأله ، وطاش سهمه ، وقضى نحبه ، خائبا مدحورا ، ثمّ ردّ الحجر إلى الكعبة المشرّفة ، وظلّ الحجّاج يهرعون إليها أفواجا .

وليست روعة المسجد الحرام مقصورة على ما به من الأبنيـة الضخمة ، والرحاب الفسيحة ، والقباب العالية والأساطين الجميـلة ، والنقوش البديعـة ، ولكن له عدا ذلك روعة تملأ النفوس وتخفق لها القلوب ، وتفيض لها من خشية الله الدموع ، فأىّ شىء أبلغ فى النفس وأروع منظرا من رؤية الجموع الحـاشدة[1] تدخل المسجد الحرام ، يهلّلون ويكبّرون خاشعة أبصارهم ، منهلّة[2] مدامعهم ، صاعدة

(١) المجتمعة (٢) انهلت السماء واستهلت سمع صوت مطرهـا فالمراد شـدة البكاء وانهمال الدموع .

إلى السماء دعواتهم ، وقد تجرّدوا عن كلّ زينـة إلّا لباس التقوى ، وفيهم الملك والسُوقة يطوفون بالبيت ويتعلّقون بأستاره ، ويستلمون الحجر ، ويلتزمون الملتزم، وتلوح على وجوههم سِيما الرهبـة والخشوع ؟ ؛ وأىّ شىء أجمع للغبطة والخنوع من صوت المؤذّنين على منابر المسجد الحرام ؟ يرسلون بالآذان أصواتهم، فتتجاوب (1) بها الأصداء، (2) فى جوّ السماء ، وتُنصِت لجمالها الآذان ، وتخشع الأصوات للرحمن ، وتجيش (3) بين الضلوع زفرات الضراعة

وأىّ شىء أوقع فى النفوس ، وأوعظ للرء، وأدلّ على ثبات العقيدة ، وأملأ للعين ، وأبين لحكمة الحجّ، من رؤية الحجيج وقد أتمّوا مناسكهم فأشرقت وجوههم وقرّت عيونهم وثَاجت (4) نفوسهم . وطابت منهم السرائر ، وخلصت لله الضمائر ، واختلط غنيّهم بفقيرهم ، فتعارفوا وتآلفوا . ووقف بعضهم على أحوال بعض فازدادوا ألفة واتّحادا . وأصبحوا بنعمة الله إخوانا ؟

---

(1) يجاوب بعضها بعضا (2) جمع صدى وهو ما يجيبك بمثل صوتك فى الجبل ونحوه (3) جاشت القدر غلت والمراد شدة الزفرات التى بعثها خشية الله ورهبة الموقف الجليل (4) ثاجت نفسه بكذا بردت وسرت واطمأنت وبابه قعد وطرب .

مكة المكرمة

(١)

هى ذلك البلدُ الأمين الذى يعظّمه المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها ، وتهوى إليه أفئدتُهم وتُجبَى لأهلِه خيراتُهم ويأتون إليه كلّ عام رجالا[1] وركبانا ليشهدوا منافع لهم وليذكروا اسمَ اللهِ فى أيامٍ معلومات وليطّوّفوا بالبيتِ العتيق[2] .

عظّمها العربُ فى الجاهليّة لأنّها قرارةُ[3] مجدِهم ، ودارُ عظمتهم ، ومنتدى حكمائهم ، ومضمارُ بلغائهم ، ومحلّ كعبتهم[4] التى كانت مأمَن الخائف وملاذَ العائذ ومناطَ[5] مأثورِ القصائد وصحائفِ العهود كما كانت دارَ أوثانهم التى يعبدون ، وأعظمُ أيمانهم التى بها يقسمون .

ويعظّمها المسلمون لأنّها دارُ القبلة التى يولّون وجوهَهم فى الصلاةِ شَطرها[6] ويَهرعون كلّ عام إليها آمّين[7] البيتَ الحرام لأداء فريضةِ الحجّ إحدى قواعدِ الإسلام . ثمّ هى مَوْلِد نبيّهم عليه الصلاة والسلام ، ومَبْزَغ شمسِ دينهم ومهبطُ وحىِ كتابهم ومَضْجَع كثيرٍ من صالحى أسلافِهم .

يَقْرَعُ اسمُها أسماعهم فتخفق له قلوبُهم ، ويذكرون إذ قامَ النبيُّ بأعباءِ الرسالة وصَبَرَ على أذى أهل مكّة وجاهدَ فى اللهِ حقّ جهادِه ، وظلّ يدعوهم إلى الحقّ وهم منه نافرون ، ويحرص على إسعادِهم وهم له كارهون ، ويحاول إخراجَهم من الظلماتِ إلى النورِ فمنهم من آمن به ومنهم من صدّ عنه .

---

(١) جمع من مفرداته راجل ورجلان يمشى من ليس له ظهر يركبه ضد الفارس (٢) القديم والكريم

(٣) ما يقر فيه (٤) البيت المرتفع أو المربع (٥) موضع تعليقها (٦) نحوها (٧) قاصدين ..

وإذ خرج من مكّة مهاجرا إلى الله ثابت العقيدة صادق العزيمة لا يثنيه عن الحقّ وعد ولا وعيد في عصبةٍ من قريش صَدَقوا ما عاهدوا الله عليه وآثروا فراق الأهل والإخوان على عبادة الأوثان .

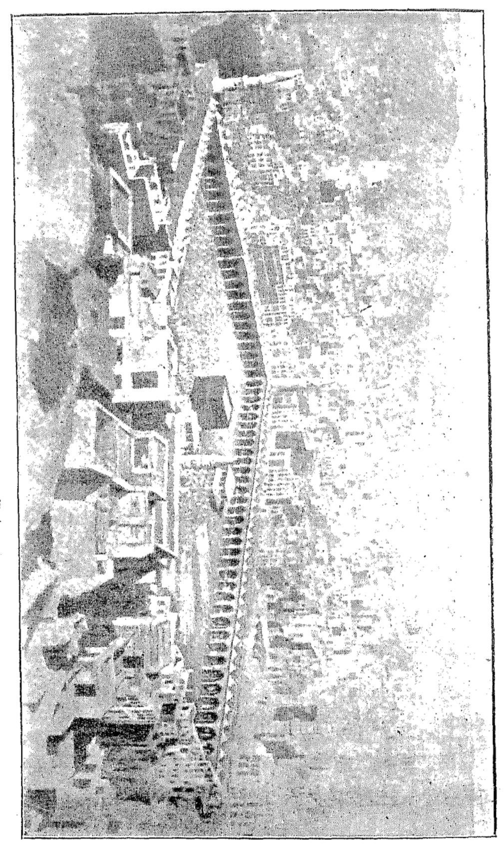
وإذ طالَ به الحنين إلى مكّة ثمّ حَمِد عاقبةَ صبره وتجلّى للناس فضلُ حلمه وسعةُ عفوه يوم أدال[1] الله له من أهل مكّة ، ففتح له فتحا مبينا ونصره نصرا عزيزا ودخل المسجدَ الحرام مع صحبه آمنين ، فعامل القومَ معاملةَ أخٍ كريم وابن أخ كريم ، وعفا عن أعدى عدوّه «أبي سفيانَ بن حرب» وجعل دارَه مثابةً[2] للناس وأمنا ، وذلك أقصى مكارمَ الأخلاق .

يذكر المسلمون كلّ ذلك فتدفعهم الذكرى إلى نهج منهجه واقتفاءِ أثره ، فتعتاد نفوسهم الصبرَ والمثابرةَ واحتمالَ الأذى رغبةً في الخير ، وتتحلّى بالوفاء وحبّ الوطن ويجعلون شعارهم الحلم والصفحَ عن المسيء إذا أناب .

---

(١) مأخوذ من الدولة وهي انقلاب الزمان أي نصره عليهم بعد أن أخرجوه من ديار قومه

(٢) مجتمع الناس بعد تفرقهم .



مكة مما يلي الحرم

لمكّة أسماء كثيرة منها بكّة وأمّ القرى، ويرتقي عهد إنشائها إلى إبرهيم عليه السلام حين نزل بزوجه هاجر وابنهما إسمعيل بمكان مكّة المكرّمة قبل الميلاد بنحو تسعة عشر قرنا «سنة ١٨٩٢ ق. م». وأتاح الله لهما بئر «زمزم». فاتّخذوا مكانها مستقرّا ومقاما. ثمّ نزل بهم جماعة من «جرهم»[1] ثم رفع إبرهيم القواعد من البيت وإسمعيل، وقالا: «رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ»، ثمّ أذّن إبرهيم في الناس بالحجّ فأتوه من كلّ فجّ عميق[2]، ثمّ صار للبيت منزلة سامية في النفوس فأصبح حرما آمنا يجذب الناس إليه فتواقروا[3] عنده واتّخذوا الخيام بيوتهم حتّى نزل بالبيت «قُصَيّ بن كلاب»[4] فابتنى البيوت وأخذت مكّة في النماء فاتّسعت رقعتها وزادت عمارتها وما زالت موضع الإجلال إلى اليوم.

وهي في وادٍ قفر ببلاد الحجاز من جزيرة العرب شرقيّ جُدّة التي على البحر الأحمر وبينهما ثمانون ألف متر، وهي على الخطّ الأربعين من خطوط الطول الشرقيّة، وشماليّ الخطّ الحادي والعشرين من خطوط العرض الشماليّة بنحو نصف درجة، وجنوبيّ مدار السرطان وفي المنطقة الحارّة، فهواؤها حارّ لافح وقت القيظ على أنّه بالليل عليل ترتاح إليه النفوس، يكتنفها من الشمال إلى الجنوب سلسلتا جبال تحجبان مبانيها فلا يراها القادم إليها إلّا حين يدخل من أحد أبوابها الثلاثة. ومن الجبال الشماليّة كَدَاء وقَعَيْقِعان والحَجُون، ومن الجنوبيّة أبو قُبَيس وفي حضنه[5] الصفا، وقد أثّرت الجبال المحيطة بها في هوائها فجعلته كثير المهابّ، ومكّة تمتدّ من الشرق إلى الغرب نحو ثلاثة آلاف متر، ومن الشمال إلى الجنوب نصف هذه المسافة ومبانيها منتشرة على سفوح الجبال

---

(١) حيّ من اليمن تزوج فيهم إسمعيل عليه السلام (٢) طريق واسع (٣) اجتمعوا (٤) من أجداد النبي عليه السلام (٥) أصله.

وفى بطن الوادى ، والمسجد الحرام يتوسّطها مع ميل الى جهة الجنوب . وبيوتها كثيرة ولكنّها قليلة الرُّواء[1] والأفنية إلّا البيوت التى فى حىّ «أجياد» حيث يقطن الحكّام والأشراف فى الجهة الجنوبيّة للمسجد الحرام فإنّها آية فى الروعة وحسن التنسيق ، على أنّ مكّة فى غنى بالبيت وعظمته عن شامخ البناء وزينته ، وليس بها ميادين متّسعة ، غير أنّ الناس اتّخذوا رحاب المسجد الفسيح بمثابة الميدان فهم يذهبون إليه للصلاة والطواف ويكتظّ[2] بهم زمن الحجّ فيضيق بهم على اتّساعه . وشوارع مكّة كثيرة وأوسعها وأطولها شارعها الذى يشقّها من الشرقىّ إلى الغربىّ تختلف أسماؤه باختلاف الجهات . والقوم يعتمدون فى شربهم على مياه الآبار وقليل غَنَاؤها[3] ، وجُلّ اعتمادهم على مياه عين «زُبَيدة» التى أنشأتها السيّدة الكريمة «زبيدة بنت جعفر» زوج الرشيد وجرّت إليها الماء من جبال تبعد عن مكّة زُهاء[4] خمسة وثلاثين ألف متر فخفّ عن الناس عبء ثقيل وحفظ التاريخ لزبيدة ذلك الجميل وفضل مياه تلك العين تسقى به بساتين عظماء مكّة المكرّمة . أمّا عدد سكّانها فيُربى[5] على مائة ألف نسمة يتضاعف فى موسم الحاجّ فتضيق به المساكن على كثرتها .

مكة المكرمة

(٢)

أهل مكّة خليط من أجناس شتّى فمنهم العربىّ والتركىّ والهندىّ والمصرىّ إلى غير أولئك من طوائف المسلمين . وقد تباينت[6] أزياؤهم وتعدّدت لهجاتهم وطباعهم

---

(١) حسن المنظر (٢) يمتلىء (٣) ما يغنى به أى والمراد فائدتها (٤) قدر (٥) يزيد (٦) افترقت واختلفت .

على أنهم امتزجوا بالمصاهرة وطول المعاشرة . ولقد ترى الرجل لابسا عمامة هندية وقِباء[1] مصريّا ومِنْطَقة[2] تركيّة فيها خنْجر على عادة الأتراك ولكنّ أشراف مكّة ترفعوا عن مصاهرة غيرهم فلا تزال سماتهم وأزياؤهم عربيّة خالصة . ومن عادة أهل مكّة الاصطياف بالطائف وهو مكان طليق الهواء غزير الماء جمّ الرُّواء تكثر فيه الفاكهة وأخصّها الخوخ والعنب وتعرف فى وجوه أهله نَضرة[3] النعيم وأجمل مصطاف فيه مكان يسمى «شَبرى» أنشأه أحد أشراف مكّة وسمّاه باسم «شَبرى مصر» . والطائف فى الجنوبىّ الشرقىّ من مكّة وعلى بعد ثمانى عشرة ساعة للراكب وليس ألطف منه هواء إلّا جبل الهدى الذى بينه وبين الطائف مسيرة ثلاث ساعات إلى جهة مكّة . ولأهل مكّة وَلوع[4] بالإكثار من الأثاث والرياش[5] فى بيوتهم كما أنّ لهم ميلا شديدا لإكرام الضيف . وإنّك لتعرف فى وجوههم وداعة من جاور البيت وتقرأ فى صفحاتها شهامة العرب وعزّة النفس وهم يتأنّقون فى الملابس مع عفّة وحياء . وقد تخرج نساؤهم إلى الأسواق محجّبات مؤتزرات . وهم لا يسرفون فى نفقات الأفراح والمآتم . وأسواق مكّة شرقيّة فى مظاهرها ومتاجرها فهى مسقوفة كخان الخليلىّ بمصر وفيها تباع السبح والبسط والروائح العطريّة والأنسجة الحريريّة والهنديّة . وزمام التجارة فى يد الهنود وهى أعظم وسائل العيش فى مكّة وإنّ ماينفقه الحجّاج فى الموسم لكفيل بترفيه[6] عيش أهلها وكثير منهم يكسبون عيشهم من إرشاد الحجيج[7] فى الطواف وهم المطوّفون ، ومنهم من يتكسّبون بنقل الناس وأمتعتهم على الإبل ، ومن يعيشون من صدقات المحسنين فى الملاجئ وفى المسجد الحرام . ويحمل إلى مكّة كلّ عام شىء كثير من غَلّة

---

(١) قفطان (٢) حزام (٣) حسن (٤) أولع بالشىء ولوعا تعلق به (٥) اللباس الفاخر
(٦) جعله لينا رغدا (٧) الحجاج .

أرض مصر مع المحمل الشريف إعانة للمُعْوِزين من فقرائها ، ونقودها شتّى الأنواع والأشكال فمنها النقود المصريّة والتركيّة والهنـدية والإنجليزيّة. والتعليم فى الحرم الشريف مقصور على العلوم الدينيّـة واللغويّة. وبها مدارس أخرى تدرّس مختلف العلوم ولكن لا يزال التعليم ضيّق النطاق. أمّا الحالة الصحيّة فتسوء أيّام الموسم وتتفشّى الأوبئة وتكثر الوفيَات والحكومة تبذل عظيم الجهد فى مكافحة الأمراض بكلّ ما تستطيع من وسائل العلم والإصلاح. وفى الجهة الشماليّة الشرقيّة لمكّة جبّانة «المَعْلاة» وبها قبر السيّدة خديجة وقبر أبى جعفر المنصور الذى قدم حاجّا فمات بمكّة ودفن بها وتلك غاية تصبو (١) إليها نفوس كثير من الحجيج .

وبقرب مكّة على أبعاد مختلفة أسواق العرب فى الجاهليّـة التى كانوا يجتمعون فيها كلّ عام للفاخرة والمتاجرة والمحاكمة وهى عكاظ والمِجنّة وذو المجاز ومن أرباضها (٢) المقدّسة «مِنى» وهى شرقىّ مكّة على بعد نحو ثمانية أميال يجتمع بها الحجّاج ليقفوا بجبل عرفات اليوم التاسع من ذى الحجّة و بعض ليلة العاشر حيث ترى فوق ذلك الجبل جموعا شتّى من المسلمين تباينت لهجاتهم واختلفت سِماتهم ، يدعون ربّهم ويرجون رحمته، ويرفعون بالتلبية أصواتهم ، فتشقّ أجواز (٣) الفضاء، وتبلغ عَنان السماء، وتدوّى كأنّها الرعد صدرت عن قلوب واجفة ونفوس خائفة ترجو رحمة الله وتخشى عذابه، والكلّ متساوون بين يدى الله الواحد القهّار، فلا سيّد ولا مسود «هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ (٤) لِلّٰهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًى» . وبقرب «منى» «المزدلِفة» وهى من مناسك (٥) الحجّ

---

(١) تميل (٢) جمع ربض وهو ما حول المدينـة « الضواحى » (٣) جمع جوز وهو الوسط

(٤) السلطان (٥) مواضع عبادات الحج .

ومن الآثار المقدسة «المروة» وهى أكمة جميلة المنظر يضرب لونها إلى الحمرة تعلوها منازل أهل مكة و بينها و بين الصفا طريق يسعى فيه الحجاج سبعة أشواط اسمه «المسعى»، وطوله نحو ٤٢٠ مترا . ومنها «غار حراء» الذى كان يتعبد فيه النبى عليه الصلاة والسلام قبل الرسالة على ملة سيدنا إبرهيم وهو فى طريق الذاهب من «مكة» إلى «منى» على مسافة ثلاثة آلاف متر من مكة على جبل النور . ومنها غار «ثور» الذى اختبأ فيه النبى عليه السلام مع أبى بكر ليلة الهجرة .

وأهل مكة على قلة مائها ولفح[1] هوائها وحول أرضها لا يعدلون بها بلدا غيرها لأنهم يرون السعادة كلها فى مجاورة البيت الحرام و بين ربوع بلدهم وفى بطن واديه وعلى سفوح جباله ، وأقصى أمانى أحدهم أن يعيش تحت سماء مكة ناعما[2] فى جوار بيتها حتى إذا مات ضمه ثرى أرضها . ولقد بالغ المشركون فى أذى النبى وصحبه فهجرت مكة أجسامهم وظلت بها قلوبهم وذهبوا إلى المدينة المنورة فوجدوا بها أهلا بأهل وجيرانا بجيران ، ولكن لم ينسهم ذلك مكة المكرمة بل طال إليها حنينهم فكانوا يتنسمون أخبارها و يسائلون كل قادم عن أحوالها فقد قدم «أبان» على المدينة من مكة فسأله رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها فوصف له إذخرها[3] وثمامها[4] فاغرورقت عينا رسول الله بالدموع ، وكانت السيدة عائشة تقول : «لولا الهجرة لسكنت مكة فإنى لم أر السماء بمكان أقرب إلى الأرض منها إلى مكة ولم يطمئن قلبى بمكان ما اطمأن بمكة ولم أر القمر بمكان قط أحسن منه بمكة» .

---

(١) لفح النار والسموم إحراقهما بحرها والنفح كاللفح إلا أنه أشد منه (٢) متنعما (٣) و(٤) نبتان طيبا الرائحة بمكة .

وكان بلال رضى الله عنه إذا اهتاج به الشوق إليها يرفع عَقيرته[1] قائلا :

ألا ليت شعرى هل أبيتنّ ليلة ＊ بمكّة عنـدى إذخر[2] وجليـل
وهل أرِدَنْ يوما ميـاه مِجَنّـةٍ[3] ＊ ويبـدو لعينى شـامةٌ[4] وطَفيل

ولا عجب فالنفس إلى وطنها مشتاقة وإلى أهلها توّاقة[5] .

كم منزلٍ فى الأرض يألفه الفتى ＊ وحنينـه أبدا لأوّلِ منزل

الورق

تسوق الإنسانَ مُطالبُ الحياة ودواعى الرقىّ والتقدّم فيعملُ ويفكّر فيما خلق الله من الخـيرات ، ويسخّر مواردَ الطبيعةِ ممّـا تنبت الأرض ، وما يكمُن فى جوفها ، وما تجود به السماء ، وما يسبح فى جوّها ، ليظفَر بقسطٍ ممّـا تطمحُ إليه نفسُه . حتّى إذا وصل إلى غايةٍ من المدنيّةِ والاختراع ابتغى وراءها غايات ، وإذا ما اهتدى إلى صناعة سار فى إتقانها مسترشدا بالتجربة ، وهى خيرُ أستاذ ، مستعينا بالمثابرةِ ، وهى أقومُ وسائلِ النجاح .

وإذا كان الإنسانُ قد فكّر فى الطباعة ، وأسلس[6] قيادها ، وذلّل صعبها ، وعمل على ترقيتها ، فمن قبل فكّر فى صنع الورق الذى لا غنى للطباعة عنه ، هو عمادها ، وناشر فضلها ، وسجلّها الذى فيه يدوّن ماتخفى صدورها ، وما تكنّ[7] سريرتها .

وقد عمّت فوائدُه وشملت كثيرا من مطالبِ الحياة فى شتّى الأغراضِ والمقاصدِ العلميّةِ والدراسـيّة والتجاريّة ووسائلِ الزخرفِ وغير ذلك ممـا لا نكادُ نحصيه عَدّا .

---

(١) صاح (٢) الورد أبيضه وأصفره وأحمره والياسمين (٣) جبل بمكة (٤) جبل أيضا (٥) مشتاقة
(٦) سهل (٧) أكنه : ستره .

وأيّةُ أمّةٍ متمدينةٍ الآن ترى أنّها فى غنى عن الورق واستخدامه فى الكتب والمراسلاتِ وغيرها؟ ومن ذا الذى ينكر فضلَه ؟ وقد أصبح من أقوى الدعائم فى نشر العلم وتعميم فوائده وتقييد الشاردِ والواردِ من فنون وآداب ، ولزم المدنيّة والحياة العلميّة والعقليّة لزومَ الغذاءِ للأجسام، وهو والطباعةِ كالجناحين للعلوم والمعارف بهما تنهض وتحلّق فى سماءِ الشعوبِ والممالك .

وأوّلَ من عملِ الورقَ واستخدمَه فى الكتابةِ المصريّون القدماء الذين نهضوا من قبلِ أن تغادرَ الشعوبُ الأخرى مهدَها ، واستيقظوا والأمم فى سُبات [(١)] ، ووضعوا للمدنيّةِ آساسا كالرواسى .

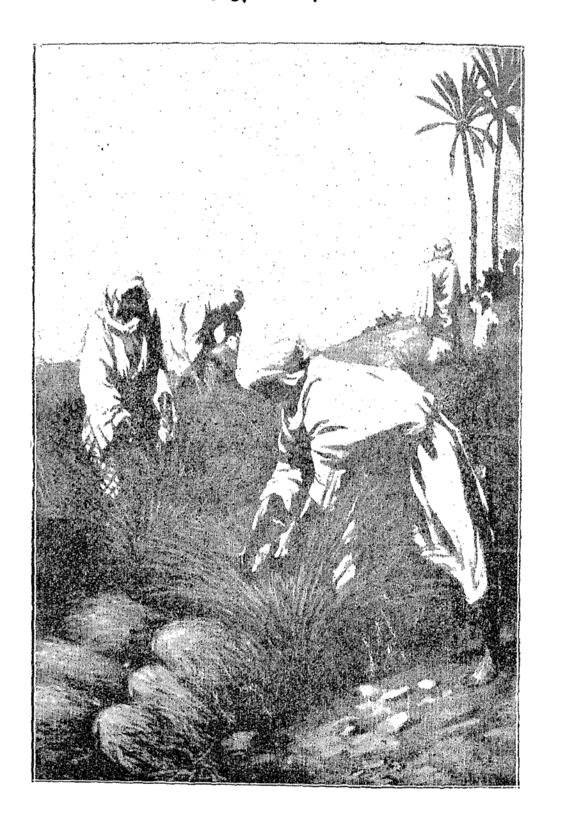
وكانوا يصنعون الورقَ من البردى ، وهو نباتٌ ينمو فى أعالي النيل ، ويبلغ ارتفاع سيقانِه فوق سطحِ الماءِ ثلاثة أمتار، وتحت السطح أكثرُ من نصف متر، وساقُه كذراعِ الإنسانِ ضخامة ، فيأخذون لبابه ويشقّونَه أجزاءً يصفّونها قطعا متجاورات، وطبقات بعضها فوق بعض، ويصقلونها بقطع من العاج أو بالأصداف حتّى تصبحَ صالحةً للكتابة ، فينقشون عليها بلغتهم ما يريدون أن يؤثر [(٢)] عنهم، ولا يزال بعضُ هذه الصحف محفوظا فى دور التحف ينطق بمجد المصريّين ويشهد بعظمتهم، وسبقهم إلى وضع دعائم المدنيّة، وتعبيدِ طريقها لمن أعقبَهم من الممالك والشعوب.

وللصينيّين فى هـذه الصناعةِ فضل لا يجحد ، فقد كانوا يكتبون على الخوص وقشورِ الأشجار، ثمّ اهتدوا إلى صنعِ الورق من النبات ولحاء [(٣)] الأشجار فى القرن الأوّل الميلادىّ .

---

(١) النوم (٢) ينقل (٣) قشر الشجرة .

نبات الـــبردى



وكان العرب فى صدر الإسلام يكتبون على عُسُب[1] النخل وعلى الحجارة ونحوها، ولمّا وصلوا فى فتوحاتهم إلى مدينة سَمَرْقَنْد بالتُركستان وإلى الصين فى خلافة هشام ابن عبد الملك نقلوا هذه الصناعة من الصينيّين وأنشئوا فى سمرقند أوّل معمل للورق سنة ٧٠٦ م ، وعملوا على نشر هذه الصناعة فى أنحاء المملكة الإسلاميّة ، ومنهم انتقلت إلى أوربا وذاعت فى جميع بقاع الأرض ، فمنهم تعلّم الفرس وغيرهم ، ثمّ وصلت هذه الصناعة إلى بغداد، وفى سنة ٧٩٥ م كانت المصانع بها مُجِدّة تشحذ من همتها وتزيد ما تنتجه، وظلّت على نشاطها والاهتمام بصنع الورق حتّى القرن الخامس عشر الميلادىّ .

ومن بغداد انتقلت صناعة الورق إلى دمشق ومصر، وكان يرسل منهما إلى أوربا .

ولمّا دخل العربُ الأندلسَ أدخلوا فيها صناعةَ الورق وكانوا يصنعونه فيها من الخِرق البالية ، ومنها امتدّت إلى فرنسا وإيطاليا وألمانيا وهولندا وإنكلترا وعمّت ممالك أوربا وأمريكا ، وقد أمدّها المفكّرون والباحثون بفيض عقولهم وفضل هممهم وتعهّدوها بالإجادة والترقية حتّى أصبحت فى أعظم درجات الجودة والإتقان .

والطريقةُ التى كانت متّبعة قديما فى عمل الورق هى أنّ الخرق تمزّق قطعا صغيرة وتخمّر فى الماء عدّة أيام، ثمّ تغسل وتوضع فى أحواض من الخشب أو الحجر وتدقّ بمُدُقّات باليد أو بدواليب مائيّة حتّى تصير كالعجينة ، ثمّ تصبّ على شبكة معدنيّة كالمُنْخُل لها إطار رقيق وتهزّ بعناية ومهارة حتّى ترسب العجينة رسوبا

---

[1] جمع عسيب وهو الذى لم ينبت عليه الخوص من السعف .

مشظا ويصفّى ما فيها من الماء ، ثمّ توضع بين قطع من اللبد وتضغط فى مكبس، ثمّ يصقل الورق ويهذّب فيصير معدّا للاستعمال .

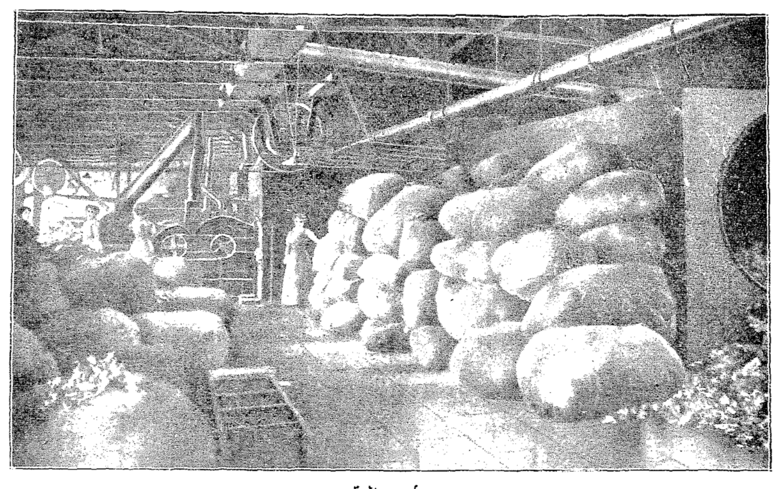
وإنّ فى هذه الطريقة لدليلا على ما كانت عليه الصناعة ووسائلها وآلاتها من سذاجة ، فصناعة الورق لم تكن سوى تحويل الموادّ الأوّليّة إلى عجينة ترقّق وتبسط بالأيدى ، وما أشبه عمل الورق إذ ذاك بعمل الرقاق ففيه أيضا يحوّل الدقيق إلى عجينة ثمّ تُدحى[1] وترقّق بيد الخبّاز الماهر الذى وصفه ابن الرومىّ[2] فى قوله :

ما أنسَ لا أنسَ خبّازا مررتُ به * يدحو الرقاقة مثلَ اللمح بالبصرِ
ما بين رؤيتها فى كفّه كرةً * وبين رؤيتها قوراءَ[3] كالقمر
إلّا بمقدار ما تنداح[4] دائرةٌ * فى لجّة الماءِ يُلقى فيه بالحجر

ولكنّ صناعة الورق لم تقفْ عند هذا الحدّ من السذاجة فالمُدُقّات بطيئة فى عملها ولم يكن بدٌّ من التفكير فى غيرها فساقت المفكّرين الحاجة — وهى أساس الاختراع — إلى اتّخاذ المُدُقّات من الحديد وصنعت لها حروف حادّة لتمزيق الخرق، وفى منتصف القرن السادس عشر اخترع الهولنديّون آلة لتمزيق الخرق ودقّها تتركّب من حوض حديدىّ فى أسفله سكاكين ناتئة وفيه أسطوانة تدور وعلى محيطها سكاكين تتلاقى مع الأولى، فإذا أديرت الأسطوانة مزّقت الخرق فى وقتٍ قصير.

وقد نمت صناعة الورق كما ينمو الإنسان ، وتقدّمت على مرور الزمن ، وساعد على تقدّمها استخدام المواد الكيميائيّة التى تنظّف عجينة الورق وتذيب الموادّ الغريبة أو تجعل إزالتها بالغسل سهلة .

(١) تبسط (٢) شاعر من شعراء الدولة العباسية (٣) واسعة (٤) تعظم .



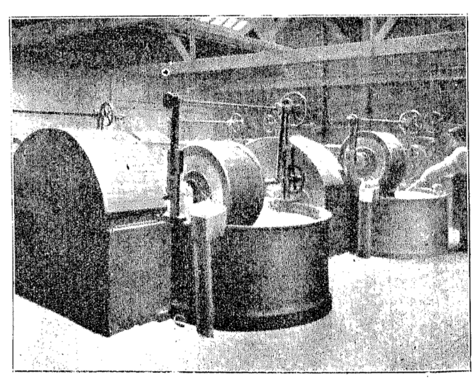
نبات الرتم

وازداد تقدّمها بعد استخدام الآلات البخاريّة التى كفت الإنسان كثير البطء وكبير العناء ، ومكّنت الصانعين من الافتنان والإتقان حتّى أظهروا من دقّة الصنع مايعدّ من خير أمثلة الجودة والإحكام .

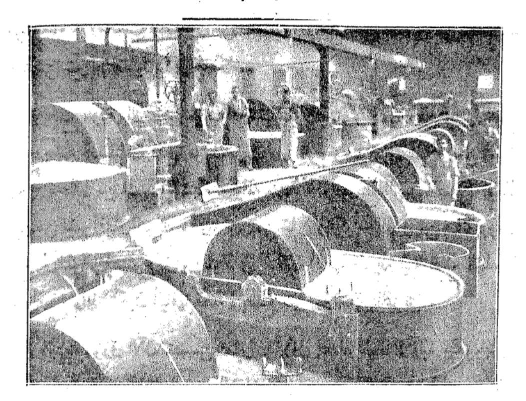
ويصنع الورق الآن من موادّ كثيرة نباتيّة كالكتّان والقنّب ومن تبن القمح والشعير ومن أصناف كثيرة من الخشب ومن الرتم ، والرّتم نبات يأتى من إسبانيا وفيه جزء عظيم من الموادّ الخشبيّة وأليافه متينة ، ويصنع الورق الصينىّ واليابانىّ المتين من قشر أشجار التوت ، وما ترى من تباين فى أنواع الورق من متانة ورخاوة راجع إلى المواد المصنوع منها ، فالموادّ التى تكون أليافها طويلة ليّنة يصنع منها ورق متين ليّن ، والتى تكون أليافها قصيرة يصنع منها ورق سهل التمزيق .

وصناعة الورق الآن تتضمّن عملين : الأوّل إعداد الموادّ الأوّليّة وتحويلها إلى عجينة ويدخل فى هذا التنظيف والإغلاء وإزالة الموادّ الملوّنة وغيرها لتصير بيضاء نقيّة ، والثانى تحويل العجينة إلى ورق وفى هذا تحديد سطح الورق وصقله وغير ذلك .

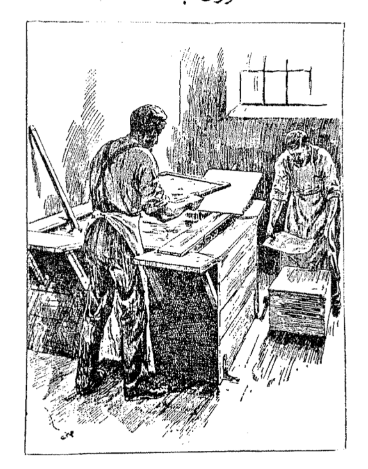
مراجل الإغلاء



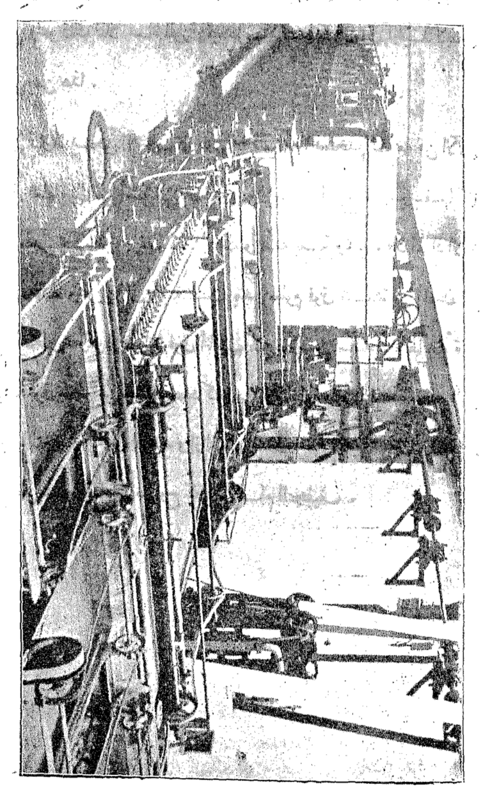
مراجل الإغلاء



الورق بعد عمله



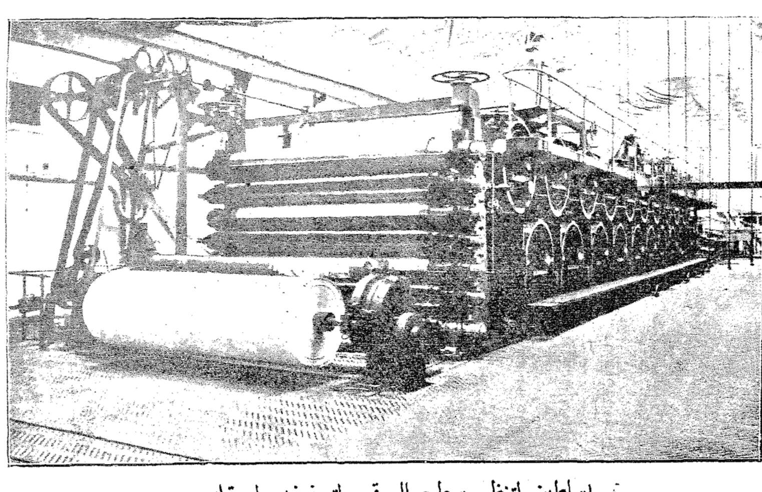
ويستعمل للإغلاء مراجل كبيرة يوضع فيها بعض الموادّ الكيميائيّة كالصودا أو الجير الكاوى لتنظيف الموادّ الأوّليّة، ثمّ يزال السائل من أسفل المراجل ويكثر



معمل الورق

ذلك حتّى يتم التنظيف ، وجميع أنواع الورق يضاف إلى عجينتها مادّة صمغيّة ماعدا ورق التجفيف ، ويضاف إلى بعض الأنواع موادّ ترابيّة كتراب الخزف وكبريتات الكلس ونحو ذلك لتملأ مسامّ الورق فيسهل صقله ولكن الورق الجيّد لايضاف إليه شيء من هذا .

وأكثر ما يستحقّ الإعجاب فى صناعة الورق ما يستخدم لصنعه من الآلات فهى فى عملها مثال من أمثلة الإتقان الفائق والإحكام البديع ، تسير بنفسها كأنّها إنسانٌ ماهر يحكم أمره ويفهم دقائق عمله ويتمّمه بعناية وتدبير ، فإنّ الموادّ الأوّليّة بعد إعدادها وتحويلها إلى عجينة تصبّ بقدر معلوم فوق شبكة من المعدن تدور حول أساطين ، وتمرّ فى دورانها فوق أنابيب كثيرة كى يبقى سطحها منظّما ، ثمّ تنتقل العجينة فوق سطح من اللبد إلى عدد كثير من الأساطين بعضها لتنظيم سطح الورق وبعضها لتجفيفه وأخرى لصقله وإزالة ماعلى سطحه من آثار الشبكة أو قطع اللبد وفى بعض هذه الأساطين مراوح تتحرك لإتمام التجفيف .



اساطين لتنظيم سطح الورق ولتجفيفه ولصقله

وورق الكتابة المصقول يمرّ فى سيره بإناء فيه موادّ غرائيّة تكسبه نعومة ولمعانا ، أمّا ورق الصحف اليوميّة ونحوها فلا يصقل بالغراء ولذا ترى سطحه خشنا .

والكتابة الشافّة التى تراها فى الورق تصنع بأسطوانة خفيفة من السلك عليها الكتابة أو النقش المطلوب و يضغط بها على عجينة الورق قرب نهاية الشبكة المعدنيّة ، فيستمرّ هذا النقش حتّى يخرج الورق تامّ الصنع فى لفائف يبلغ طولها أميالا كثيرة ، ثمّ يسطّر و يقطّع أدراجا[1] كما نريد .

وجميع أصناف الورق تصنع بالآلات إلّا فى أحوال خاصّة يصنع فيها باليد كأوراق النقد وورق الرسم وغير ذلك من الأنواع الدقيقة الصنع .

أمّا الورق الشافّ المستعمل فى الرسم فهو نوع من الورق النسيجىّ المتين يدهن بموادّ دهنيّة معدّة إعدادا خاصّا ثمّ يجفف فيصير كما تراه .

ويستعمل الورق الآن فى أغراض شتّى ، والنوع المتين منه لا يقلّ عن الخشب صلابة وقوّة ، ونتّخذ منه أطر العجلات ، ويصنع من الورق أيضا كثير من اللعب وأدوات الزينة والمناديل وأكياس الدقيق وغيره والأوانى المتينة والأطباق ونحوها ، وقد اتّخذ منه سكّان النمسا وغيرها فى السنوات الأخيرة حللا تلبس مدّة غير قصيرة ، وتفضل الحلل النسيجيّة برخص ثمنها .

---

(١) جمع دَرج وهو الذى يكتب فيه ونسميه الآن "فرخ ورق" .

تقـــــرير

لجنة التجارة والصناعة عن صناعة الورق فى مصر

أنشئت هـذه اللجنة بقرار من مجلس الوزراء مؤرخ ٨ من مارس سنة ١٩١٦ ميلادية للنظر فى التدابير التى تؤدى إلى إيجاد أسواق جديدة لتصريف الحاصلات المصرية وللبحث فى ترقية الصناعة والتجارة فى مصر .

وقد ضمّنت اللجنة تقريرها معلومات ذات قيمة واقتراحات نافعة . وإنّا هنا نلخّص بتصرّف يسير ما جاء فى هذا التقرير عن صناعة الورق فى مصر .

بدأ التقرير مذكرته عن صناعة الورق بموجز تاريخى "يذكّر القارئ بأنّ مصر التى طالما افتتحت قريحتها سُبُل الابتكار فى مجاهل الصناعة كانت أيضا مهد صناعة الورق . فلا غرو إذا اتّجهت الأنظار إلى هـذه المسألة كلّما قامت فى القطر نهضة صادقة ترمى إلى إيجاد حركة صناعيّة تستغلّ موارد البلاد وتفى بمطالب السكّان" .

ثمّ جاء فى المذكّرة بعد ذلك ما يأتى :

إنّ العوامل اللازمة لنجاح كلّ صناعة كبيرة هى :

(ا) المواد الأوليّة (الخامات) .

(ب) العمّال .

(ج) الوقود .

(د) التصريف .

(هـ) رأس المـال .

(١) المواد الأوليّة — وهى على أنواع . فإمّا أن تكون أليافا نباتيّة (كالبَرْدى والحلفاء الخ) . وإمّا أن تكون قشّا من جميع الأنواع (كقشّ الأرز وفضلات قصب السكّر وتبن الحبوب الخ) . وإمّا أن تكون منسوجات (كالخرق والقطن الخ) . وقد اقترح المسيو "تادل" الانتفاع بالبَرْدى لصنع رُبّ الورق بعد ما قضى زمنا طويلا فى معالجة هذا النبات المائىّ للغرض المذكور . ومن البَرْدىّ نوعان يكثران فى بحيرات الوجه البحرى ويغطّيان مساحات واسعة منها . ويقدّر ما يُغِلّه الفدان الواحد منه كلّ سنة ٩٥ طنّا من البردى الأخضر ، فإذا جفّف هذا المقدار فى الشمس أصبح نحو ٧٥ طنّا من البردى الناشف . ويمكن الحصول بلا عناء على ٦٥ ألف طنّ من البردى الأخضر أى ٥٠ ألف طنّ من البَرْدى الناشف يستخرج منها ٤٢٥٠٠ طنّ من ربّ الورق باعتبار أنّ نسبة الإنتاج ٨٥ ٪

ولمّا كانت الاختراعات والكشوف فى مصر غير محميّة كتم المسيو "تادل" طريقته أشدّ الكتمان فلا يسعنا إبداء الحكم فيها . ولكنّ النماذج التى عرضها على لجنة التجارة والصناعة أرسلت إلى أوربا وفحصها الخبيرون فقالوا إنّها من أحسن ما يفى بالغرض .

وقد وضعت مشروعات عدّة لعمل ورق اللفّ وغيره من أنواع الورق وكلّها مبنيّة على الطريقة القديمة وهى تقطيع القشّ ثمّ طبخه فى مراجل كريّة ، ثمّ طحنه بطواحين مخروطيّة .

وارتأى المسيو "ويبر" صاحب أحد هذه المشروعات أن يصنع ورق اللفّ من فضلات قصب السكّر . واقترح المسيو "راديس" صنعه من قشّ الأرز . واقترح

المرحوم الحاجّ خليل عفيفى أن تصنع أنواع الورق كافّة من قشّ الأرز أيضا وليس لهذه الموادّ ثمن يذكر فى أيّام السلم .

وإذا استعملت فضلات قصب السكّر فى صنع الورق فإنّ المصانع اللازمة تنشأ فى الوجه القبلىّ حيث تنتشر زراعة قصب السكّر وهى تشغل نحو ٥٥٠٠٠ فدّان يخرج الفدّان منها فى المتوسّط أربعة أطنان من الفضلات فيكون المجموع ٢٢٠٠٠٠ طنّ تكفى عمل ١٧٠٠٠٠ طنّ من الورق باعتبار أنّ كلّ ١٥٧ كيلو من القشّ كافية لإنتاج ١٠٠ كيلو من الورق .

وتوافر الموادّ الأوّليّة بهذه الكثرة يجعل الأمل عظيما فى أنّه متى وفت صناعة الورق بحاجة القطر وحاجة البلاد المجاورة أمكن توسيع نطاقها توسيعا عظيما بتصدير الربّ إلى البلاد التى تستنفد منه كمّيّة كبيرة كفرنسا وإنجلترا اللتين تستجلبان الربّ من السويد والنرويج .

(ب) العمّال — إنّ أجور العمّال فى مصر أرخص منها فى سائر البلدان ولا يصعب تعليم العمّال المصريّين صناعة الورق لأنّها لا تقتضى استعدادا خاصّا كصناعة الغزل مثلا وقد عرف العامل المصرىّ بأنّه من خير العمّال .

أمّا المستخدمون اللازمون للسيطرة والمراقبة فهؤلاء لا يشترط فيهم أن تتجاوز معارفهم الفنّيّة الحدّ الذى يكتسب من التجربة المقرونة بالذكاء وحسن الإدارة . وإنّا لنرجو ألّا تجد صعوبة فى اختيارهم من المصريّين ولا سيّما بعد ما أخذ التعليم الفنّىّ يذكى الآمال ويبشّر بالنجاح .

إنّ هذا القول لا ينطبق على كبار الرؤساء والمديرين فهؤلاء يشترط فيهم أن يكونوا محيطين أتمّ الإحاطة بأسرار الصناعة فى فروعها كافّة نظريّها وعمليّها حتّى

يكون فى طاقتهم على الدوام الرقىّ بها فى معارج التقدّم إمّا بفضل مبتكرات قرائحهم وإمّا أخذا بما يبتدعه غيرهم من ضروب التحسين .

ونحن فى هذا المقام لا يسعنا إلّا أن نكرّر الأمنيّة التى أعربت عنها لجنة التجارة والصناعة إذ أشارت على الحكومة أن تتوسّع فى تعليم الكيمياء بمدارسها العالية وأن تجعل لهذه المادّة منزلة أرفع ممّا هى عليه الآن .

ومن البدائه المقررة أنّ أجدر الصناعات بالنجاح فى بلد زراعىّ كمصرهى الصناعات القائمة بنوع خاصّ على الاستفادة من حاصلات الأرض . ولما كان معظم هذه الحاصلات يتكوّن من موادّ عضوية متنوعة الأجزاء فلا حرج إذا قلنا إنّا إذا استثنينا صناعات القطن «الحلاجة والكبس والغزل والنساجة» التى هى من النوع الآلىّ فجميع الصناعات المصريّة «كصناعات السكّر والعسل والصابون والأدهان والغول وربّ الورق والسماد والأسمنت الخ» كلّها من النوع الكيميائىّ المحض .

لهذا كان من الضرورىّ أن نذكى فى صدور النابتة المصريّة حبّ الاستقلال بإدارة مشروعاتهم الصناعيّة ، وأن نزوّدهم بأكبر قسط من المعارف الكيميائيّة .

(ج) الوقود — إذا كان سعر الفحم كسعره قبل الحرب فإنّه لا يكون عبئا فادحا على صناعة الورق فإن الكيلو من ورق اللفّ يقتضى كيلو من الفحم والكيلو من أنواع الورق الأخرى يقتضى كيلو وربعا من الفحم . أمّا إذا ظلّ سعر الفحم غاليا فمن الممكن استعمال جانب من قشّ الأرز أو فضلات قصب السكّر فمن ذلك بمصر ما يكفى الورق والوقود . وفى هذه الحال تستعمل أفران خاصّة ليس فى استخدامها أدنى صعوبة .

وإذا أنشئت مصانع فى الوجه القبلىّ أمكن الانتفاع بالقوّة الناجمة عن انحدار المـاء فى خزّان أسوان وهى مسألة معروضة للنظر على الحكومة المصريّة .

(د) التصريف — هـذا أمر مضمون فى القطر نفسه فقد بلغت واردات الورق إلى مصر مبلغا يزيد على ما يستطيع مصنع واحد أن ينتجه كما يعلم من إحصاءات المكوس "الجمرك" .

فيرى ممّـا تقدّم أنّ أركان النجاح الكبرى اللازمة لصـناعة الورق وهى الموادّ الأوّليّة والعمّال والوقود والتصريف متوافرة فى مصر . وهـذا ما حمل لجنة التجارة والصناعة على الإشارة بتنشيط هذه الصناعة لمـا يرجى لها من النجاح .

تبقى مسألة تدبير رأس المال وهى العقبة الكبرى فى سبيل كلّ مشروع صناعى فى مصر فإنّ الغالب أنّ أصحـاب القرائح وذوى الابتكار لا يملكون المـال اللازم لإخراج مشروعاتهم من حيّز القول إلى حيّز الفعل . وهذا ظاهر من المباحث التى عرضت على لجنـة التجارة والصناعة فإنّها مفعمة بالأدلّة على حسن النيّـة والرغبة فى بذل قصارى الجهد، وحافلة بالبيّنات على المعرفة والعلم ، ولكن ليس فيها مشروع واحد مؤيّد بالمـال الذى يكفل لها النجاح مع أنّ أصحابهـا لم يتركوا بابا إلّا قرعوه طمعا فى إحراز النجاح وتحقيق الأمانىّ فى هذه السبيل .

وهذا هو منبع الضرر الجوهرىّ النازل بتجارتنا وصناعتنا أى سـوء نظام الثقة الماليّة . ومنشأ الصعوبة هو أنّ الثروة المصريّة تكاد تكون كلّها مستغرقة فى الأرض والعقار . واسـتغلال هذه الأملاك لعمل الفرد يوافق مقـدرة أهل البلاد موافقة خاصّـة .

فالصناعة التى تستمدّ قوّتها من التعاون والاشتراك لا تجد لها من الاهتمام متّسعا ولا يعنى بها سوى أفراد يعـدّون على الأصـابع . فالذين يطلبون التعاون المـالىّ لا يسـتطيعون الاعتماد على أموال مصريّة بحتـة بل لا مناص لهم من الالتجاء الى أصحاب الأموال الأجنبيّة ، وهؤلاء يشترطون لاستخدام أموالهم فى بلدان أجنبيّة بعيـدة عن أوطانهم أن تأتيهـم بربح وافر يزيد على ما يجنونه منهـا او استخدموها فى بلادهم .

هـذا ولا يخفى أنّ رءوس الأموال المطلوبة للصناعة المعتـدلة يمكن تدبيرهـا فى الاسواق المحلّيّة .

ويمكن القول بأن مسألة رأس المـال فى صناعة الورق قليلة الأهمّيّـة بالنسبة الى سائر الصناعات ، ولا سيّمـا إذا ذكرنا أنّ ارتقاء هذه الصناعة فى مصر لا يكون إلّا تدريجا ، فيبدأ بصنع ربّ الورق ثمّ ورق اللفّ ثمّ سائر أنواع الورق ، ولا يخشى على ما ينفق من الأموال فى هذا المشروع إذا جرى العمل على هذه الوتيرة لأنّ الحركة الصناعيّة تسير بخطوات مأمونة وإن تكن بطيئة نحو الصناعة الكبرى التى نرجو أن تصل إليها الأجيال المقبلة متى تمّ إعدادها بفضل التعليم الفنّىّ الحديث العهد فى مصر ، ومتى تشبّعت أفكارها بروح التعاون الذى ظهرت باكورته فى الأيّام الأخيرة بفضل النقابات الزراعيّة ، ومتى أدرك القوم حقّ الإدراك أنّ رقىّ البـلاد لا يتمّ إلّا بتآزر العوامل الثلاثة العظمى وهى الزراعة والصناعة والتجارة . وهذا ما يرجوه كلّ وطنىّ مخلص من صميم قلبه لرخاء مصر وعظمتها .

المطابع

(١)

لم تصل الممالك إلى ما نرى من رفعة وتقدّم إلّا بعد أن كدّت وتعبت وقطعت أشواطا بعيدة ومراحل طويلة وسلكت مفاوز ومجاهل قضت فيها السنين وسارت تكبو(١) وتنهض وتحبو وتدرج(٢) . وإنّا لنجنى ثمار ما غرس الماضون ونبنى على أساس وضعه السابقون ونتّخذ من نافع المخترعات مراكب ذللا(٣) نصل بها إلى جليل الغايات والمقاصد .

ولئن نظرنا لنعلم أىّ الاختراعات أعظم أثرا فى نشر العلم وتذليل صعابه وجعل منهله صافيا وجناه(٤) دانيا لنجدنّ للمطابع من جليل الفوائد ما تشهد به الآلاف من الكتب القيّمة والصحف النافعة والمؤلّفات الكثيرة فى متنوّع العلوم والفنون وناضج المباحث والآراء ، ولا يكاد المفكّر يخطّ شيئا ممّا تجود به قريحته ويمليه عليه ضميره حتّى تنشر الطباعة نفعه وتذيع فضله فى أقاصى الممالك ويقطف الباحثون والمتعلّمون من ثماره ما ينفعون به وينتفعون . وما ظنّك باختراع خفّف عن المتعلّمين والمنقّبين عناء يلتهم من وقتهم القدر الكبير ويستنفد من صحّتهم وقوّتهم ما لا يقدر بمال . وماذا كنّا نعمل لو لم تشُدّ(٥) المطابع أزر العلم وتعن على إقامة دعائم التعليم فى المدارس وغيرها ؟ إذًا لعانينا من المشاقّ جسيما ، وللاقينا ما لا قبل لنا باحتماله ،

---

(١) كبا : انكب على وجهه (٢) درج الصبى من باب قعد : مشى قليلا فى أول ما يمشى (٣) ذلّت الدابة : سهلت وانقادت فهى ذلول (٤) الجنى : ما يجنى من الشجر ما دام غضا (٥) الأزر : الظهر أو القوة .

ولأصبحنا لا نجـد من الكتب ما نغذّى به العقول ، ولا من الصحف ما نتعرّف منه الآراء والأفكار، ولا من الروايات والكتب الفكاهيّة ما نروّح به النفس ونجنى منه خلقا وأدبا وعلما ، ولكانت الفوائد العلميّة محصورة فى دائرة صغيرة لا يصل إليها إلّا القليل .

وقد اتّخذت المطابع فى تقدّمها وارتقائها طريق سواها من المخترعات، فلم يكن رقيّها طفرة(١) ولم تولد يافعة(٢) ، بل نشأت وليدة ثمّ شبّت وترعرعت بعناية المخترعين والمفكّرين الذين لا يألون(٣) جهدا فى إعمال العقل وكدّ القرائح وتلك سنّة الله فى خلقه . وإنّا لذاكرون مجمل المراحل التى قطعتها فى نموّها وتدرّجها :

فكّر الصينيّون والعرب فى الطباعة قبل أن تعرفها أوربا بعدّة قرون . وقد كان الصينيّون ينقشون الحروف بارزة معكوسة على قطع من الخشب على قدر ما يريدون من مساحة الصفحات . وهذا شبيه بما يصنع الآن من نقش الكتابة على الرخام . ثمّ يدهن السطح بالحبر ويوضع الورق فوقه فتنطبع الحروف كما تنطبع أختام مصلحة البريد وغيرها من الأسماء المنقوشة على قطع المعادن المستعملة الآن .

وقد ترسّمت أوربا هذه الخطا ونسجت على هذا المنوال فاستعملت هذا النوع من الطباعة، وظلّت الحال بها كذلك حينا من الدهر لم يكن العلم بين ربوعها شيئا مذكورا، وما كانت تجد إلى تعميم المعارف وتبادل الاراء ونشر الأفكار وسيلة غير هذا النوع البطىء من الطباعة ، فقد كانت كل صفحة يراد طبعها تتطلّب نقشا جديدا فى الخشب لإيجاد قالب جديد لا يصلح للاستعمال إلّا فى حال واحدة .

---

(١) الوثب فى ارتفاع (٢) الذى قارب العشرين (٣) لا يدعون جهدا .

ولو استمرّت الحال على ذلك ما كنّا لنصل إلى مدى بعيد في التعليم والتعلم والارتقاء ولكان للعالم الآن شأن آخر في المدنيّة والحياة العلميّة والعقليّة . بيد أنّ الله قد قيّض[1] للناس من وضع أساس الطباعة بحروف متفرّقة فقد جاء "حنا غوتمبرغ[2]" فكان له الفضل في اختراع هذا النوع من الطباعة .

ولد غوتمبرغ في مدينة مينتس في ألمانيا سنة ١٣٩٧ م ثمّ ذهب حين شبّ إلى مدينة استراسبرغ وعاش بها ردحا[3] من الزمن وقد كانت تلوح عليه مخايل[4] المهارة في علوم الآلات والنقش على الأحجار وصقل المرايا ونحو ذلك من العلوم والفنون . ثمّ عاد إلى مدينة مينتس واشترك مع صائغ غنيّ يسمّى فوست[5] فأمدّه بالمال لإبراز اختراعه في عالم الطباعة . وبعد مدّة انفصلا سنة ١٤٤٥ م وأنشأ غوتمبرغ مطبعة أخرى وظلّ يعمل حتّى آخر حياته سنة ١٤٦٨ م . وقد عمّ اختراعه كثيراً من مدن ألمانيا التي لا تزال إلى الآن مشهورة بالطباعة وتجارة الكتب . ثمّ انتشر في كثير من ممالك أوربا وتناولته الأيدي بالاهتمام والعقول بالتهذيب والتحسين . وكانت مطبعة غوتمبرغ وحروفها مصنوعتين من الخشب وهي أشبه شيء بالمكابس الضاغطة التي تستعمل الآن .

وقد وصلت المطابع الخشبيّة أرقى درجاتها في الإتقان والدقّة بفضل بلايو[6] من مدينة امستردام . وقد ظلّت مستعملة إلى أواخر القرن الثامن عشر حتّى جاء الإرل ستنهوب[7] الإنكليزي فأدخل على المطبعة تغييرا كبيرا حين أراد طبع كتاب له في علم

(١) سبب (٢) Gutenberg. (٣) مدة طويلة (٤) جمع مخيلة وهي المظنة أي ظهرت عليه علامات المهارة (٥) Fust. (٦) Blaeu. (١٥٧١ — ١٨٦٣)
(٧) Stanhope.

الطبيعة فاستعاض الحديد عن الخشب . ثمّ جاء بعد ذلك أمريكيّ يسمّى "كليمر"[1] من مدينة فيلادلفيا فاخترع مطبعة تمتاز عن غيرها بالخفّة والسهولة والسرعة. وفى كلّ هذه الأنواع كان السطحان الأسفل الذى تصف عليه الحروف والأعلى الذى يستخدم للضغط مستويين حتّى جاء «فردريك كونن»[2] الألمانىّ سنة ١٨١٢ فجعل السطح العلوىّ أسطوانيًّا . وقد استرعى هذا الاختراع نظر المستر « ولتر»[3] صاحب صحيفة "التَيْمِسْ" فطلب إلى فردريك أن يصنع له مطبعة ذات أسطوانتين تطبع صفحتين فى وقت واحد فأتمّ له ذلك سنة ١٨١٤ م .

وقد عمّت منافع المطابع وعظم شأنها وازدادت فوائدها حين استخدم البخار فى إدارتها . ففى ٢٨ من نوفمبر سنة ١٨١٤ م ظهرت صحيفة التيمس فى مطبعة يديرها البخار وقد اضطرّ المستر "ولتر" المتقدّم أن ينقلها سرًّا مخافة أن يعلم بها عمال مطبعته فيتذمّروا أو يتمرّدوا فيحدثوا ما لا تحمد مغبّته[4]. وفى الساعة السادسة صباحا كان العمّال ينتظرون الشروع فى عملهم فجاءهم صاحب "التيمس" وقال إنّ الصحيفة قد طبعت بالبخار وأنذرهم بما أعدّ لهم من وسائل القمع إذا جنحوا[5] إلى العنف ووعدهم أن يبقيهم إذا أخلدوا[6] إلى السكينة فلم يسعهم إلّا الإذعان . وقد سمّرت هذه المطبعة عدّة سنين وكانت تطبع فى الساعة ألفا وثمانمائة صفحة .

وفى سنة ١٨٤٨ م صنع "الميرالاى هو"[7] الأمريكىّ مطبعته المشهورة باسمه ، يوضع فيها الورق لفائف كبيرة فتتخرج الصحف مطبوعة مقطوعة . وقد كانت

---

(١) Clymer. (٢) Friedrick. Konig (٣) Walter. (٤) قعه من باب فتح قهره وذلله (٥) مالوا (٦) اخلدوا الى السكينة لزموها واطمأنوا اليها (٧) Colonel Hoe.

هـذه المطبعة تخرج خمسة عشر ألف نسخة فى الساعة وقد تقدّمت الآن وزيدت أساطينها حتّى أصبحت تطبع فى الساعة مائة وخمسين ألف نسخة من صحيفة فيها ثمانى صفحات .

وهناك من المطابع الآن أنواع شتّى تتزاحم فى الإجادة وتتسابق فى الافتنان ، وتتبارى فى خدمة بنى الإنسان .

المطابع
(٢)

أشرقت الطباعة فى سماء مصر فى أواخر القرن الثامن عشر . وأوّل مطبعة عربيّة دخلت هذه الديار هى التى كانت مع اللجنة العلميّة التى حضرت مع "نابليون بونابرت" سنة ١٧٩٨ م ولمّا تولّى المغفور له محمّد علىّ باشا عرش مصر أسّس المطبعة الأميرية على دعائم مطبعة نابليون سـنة ١٨٢٠م وكان يطبع عليها الوقائع المصريّة وغيرها من الكتب والمطبوعات التى عمّ نفعها وذاع فضلها .

ثمّ تتابعت المطابع وأخذ كثير من الناس يستحضرون أنواعا منها فأحيوا بذلك اللغة وعلومها وآدابها وعمّموا العلم وقرّبوا مناله وعبّدوا[1] سبيله . وأوّل مطبعة من النوع الأسطوانىّ استخدمت فى مصر هى التى استحضرها صاحب "المؤيّد" سنة ١٩٠٧ ثمّ تلتها صحف أخرى فعنيت باستخدام هذا النوع من المطابع

---

(١) عبّد الطريق ذلّله وسهّله .

أمّا حروف الطباعة فقد كانت فى أوّل نشأتها حين اخترعها «غوتمبرغ» تصنع من الخشب . ثمّ صنعت من الحديد وكانت حينئذ تسبك باليد فى قالب يصبّ فيه ذَوْب المعدن وهو مزيج من الرصاص والقصدير و «الأنتيمون» وقد يضاف إليه شيء من النحاس .

وفى سنة ١٨٢٢ م صنعت أوّل آلة لسبك الحروف ووصلت إلى درجة عظيمة من الإتقان سنة ١٨٨٨م .

وتسبك الحروف الآن كى تعدّ للطبعة بطريقة تمكّن من سبك قوالب أخرى على شاكلتها ، وذلك بأن تجمع الحروف وتصفّ ثمّ توضع عليها قطعة من الورق المبلّل أو الشمع أو نحو ذلك وتضغط حتّى تظهر الحروف غائرة ، ثمّ يصبّ عليها السائل المذاب فتظهر الأسطر والصفحات على شكل كتلة واحدة فيها الحروف بارزة مصفوفة صفّا متقنا محكما فتوضع فى أسطوانة المطبعة ويكرّر ذلك مرارا حتّى نحصل على القدر المطلوب من الصفحات فى زمن قصير .

أمّا جمع الحروف وترتيبها فهو عمل بطيء شاقّ ويستخدم فيه العمّال الذين يلتقطون الحروف من أمكنتها ويصفّونها بأيديهم ويجمع العامل النشيط فى ثلاث ساعات صفحتين من الصفحات المعتادة للكتب . ولا تزال هذه الطريقة مستعملة فى كثير من المطابع أو جميعها . غير أنّ المخترعين والمفكّرين لم يقفوا عند هذا الحدّ بل دأبوا وشحذوا قرائحهم ليستنبطوا ما يذلّل الصعاب ويخفّف العناء ويرقى بالطباعة إلى حدّ عظيم فاخترعوا آلات تأتمر بأمر الإنسان وتخضع لإشارته فى جمع الحروف وترتيبها صفوفا مرصوصة وهى أدوات من الحديد لها أزرار كآلة الكتابة تحرّك بالأصابع فتجمع

ما تريد من الحروف وتصفّها وتضغطها على الورق المعدّ لذلك ويصبّ ذوب المعدن على الحروف المجوّفة بالضغط فتتكوّن الصفحات ثمّ تعاد الحروف الأصلية إلى أمكنتها وتستعمل مرّة أخرى فى تكوين صفحات جديدة . ويستطيع المتمرّن أن يجمع بهذه الآلة فى الساعة ٤٨ صفحة وفى هذا من توفير الوقت وتخفيف العناء ما لا يجحد مقداره إنسان .

ومن المطابع نوع آخر عمّ نفعه وأضاف إلى فضل الطباعة محاسن زادت من شأنها وهو "مطابع الحجر" . كشفها ألمانىّ يسمى سِنِفِلْد[1] سنة ١٧٩٦ م فقد اهتدى إلى كشف حجر من صفاته أن تثبت فوق سطحه الموادّ الدهنيّة أو الزيتيّة . ومعلوم أنّ هذه الموادّ لا تمتزج بالماء بل تنفر منه وينفر منها ولذلك تكتب الصفحات أو ترسم الصور المراد طبعها بحبر زيتىّ مخصوص فوق الورق المغطّى بطبقة من النشا ، ثمّ توضع الورقة فوق الحجر وتضغط فتثبت الكتابة أو الرسم ، ثمّ يوضع الحجر فى آلة خاصّة تدار باليد أو البخار أو الكهرباء فيتحرّك ذهابا وجيئة حتّى يلمس سطحه أُسطوانة تبلّله بالماء وأخرى تجىء بعدها فتدهن سطحه بالحبر الزيتىّ فوق الماء ، غير أنّ الحبر ينفر من الماء ولا يثبت إلّا على الكتابة أو الرسم الثابت فوق السطح ، وبهذا يمكن أن نطبع ما نريد . ثمّ ينظّف الحجر " بالبترول " " زيت الحجر " ويصقل بالرمل ويعدّ للطبع من جديد .

وإذا كان ما يراد طبعه مكوّنا من عدّة ألوان رسم كلّ جزء بلونه الخاصّ على حجر فتكون عدّة أحجار تطبع الصورة منها بالتتابع وتمرّ الورقة فوق هذه الأحجار فتنشأ

---

(١) Senefelde.

الصورة بألوانها المطلوبة . وبهذه الطريقة تطبع المصورات التى تستخدم فى دروس تقويم البلدان وغيرها وكذا الإعلانات التى تلصق على الجدران فى الشوارع وغيرذلك مما ظهرت فيه قيمة هذا الاختراع العظيم . وخير أنواع هذا الحجر ما يجلب الآن من ألمانيا وإيطاليا .

وتصنع الصور التى فى الكتب ونحوها بطريقة أخرى وهى أن ترسم بآلة التصوير الشمسىّ ثمّ تحفر بوسائل كيميائيّة فى قالب من المعدن فيصير هذا القالب حينئذ كحروف الطباعة نستخدمه كما نريد وقد تطبع منه صورة بالحبر الزيتىّ ثمّ تنقل إلى حجر الطباعة وتطبع بالطريقة المتقدّمة .

فإذا كانت الصورة مركّبة من عدّة ألوان رسمت بآلة التصوير ثلاث مرات باستخدام زجاجات لا ينفذ منها إلّا الألوان الأصليّة الثلاثة : الأصفر والأحمر والأزرق . ثمّ يصنع من هذه الصور الثلاث قوالب من المعدن كما تقدّم ، فإذا ما طبعت هذه القوالب على التعاقب أحدها فوق الآخر على الورق ظهرت الصورة بألوانها الأصليّة جميعها .

تلك هى المطابع التى نفعت الإنسان وأدّت للعلم وللإنسانيّة خيرا كثيرا وغيّرت وجه المدنيّة . غذّاها العاملون والمفكّرون فنمت وتدرّجت حتّى أصبحت الآن فى درجة من الرقىّ تسترعى الأنظار وتملأ القلوب عجبا . ولا ندرى أ كان العالم بالغا حدّه من الرقىّ لو لم يهد الله الإنسان لهذا الاختراع . أم كانت المدنيّة تنتقل من حالها الغابرة إلى هذه الحال التى تتحدّث بفضلها الشعوب ؟

فسبحان من فطر (١) الإنسان وأحكم عقله وعلّمه ما لم يعلم .

جلّ شأن الله هادى خلقه * بهدى العلم ونور العلماء

---

(١) خلق

المصارف المالية

(١)

إذا مررت فى الشوارع العظمى من الحواضر فقد يستوقف نظرك بنية ضخمة ذات أسس متينة ، وأركان ركينة ، وجنادل من الصُّمِّ[1] الصِلاب[2] ، قد شيدت منها الجوانب وأقيمت عليها الأبواب ، فكأنّما قد نقر البناء فى الجبل ، أو قُدّ الجبل من البناء .

ذلك هو فى الأغلب الشائع مصرف مالىّ أقيم حصنا للمال ، مناعته[3] تسلب الشرير صولته ، وتخيّب جولته ، فلا تنفعه حيلة ولا يغنيه مِحال[4] .

تجعل أموال المصارف بسراديبها[5] فى خزائن من حديد تفنى أمام صلابتها كلّ إرادة ، ويتضاءل كلّ عزم ، حتّى النار التى تُلِمّ[6] فتلتهم[7] ، وتمرّ ، فلا تبقى ولا تذر ، لها وقفة أمام هذه الخزائن فلا تستطيع أن تصهر حديدها مهما اشتدّ هولها إلّا بعد الوقت الطويل ، وفى ذلك نُهزة[8] للماء الذى دبّر أمره فى هذه المصارف فيستطيع أن يُبرِّد غلّ النار ويُخمد جَذْوتها قبل أن يكون منها اعتداء أو إتلاف .

يختار للمصارف قلب المدينة ليكون وسطا بين القُصّاد فتتمّ للناس مآربهم من غير مشقّة ولا عسر ، وقد اعتيد أن تكون المصارف فى مدينة واحدة متدانية ليسهل بينها التعامل وهو كثير مشتبك ، حتّى لقد اجتمعت فى نيو يورك فى شارع واحد يسمّى شارع الذهب .

---

(١) جمع أصم وهو الحجر الأصم (٢) جمع صلب وهو الشديد (٣) قوته (٤) الحذق والقدرة على التصرف (٥) جمع سرداب وهو البناء تحت الأرض (٦) تدنو (٧) تبتلع جملة (٨) فرصة .

وصف مصرف

فإذا اتّفق لك أن تدخل إحدى هذه البِنَى صعدت بعد بابها الحديدىّ فى سلم قليل الدرجات ، ثمّ دفعت بابا سهل الانزلاج يدور على وجهيه ، فينكشف لك عن بهو ، وهو إمّا مستطيل أو إهليلجىّ [١] ، يحيط به مناضد من الرخام يعلوها ممّا يلى الواقف فيه شبابيك من الصُفر [٢] قد فتحت فيها نوافذ يجلس وراءها عمّال المصرف ، وقد عُلّق فوق كلّ نافذة صفحة من النحاس [٣] كتب عليها نوع العمل الذى يؤدّيه الموظف الجالس وراءها ، فتقرأ فى هذه الصفاح [٤] السفاتج "الكمبيالات" ، الأوراق الماليّة ، الخزانة (الصادر ، الوارد) ، سعر النقود ، الحساب الجارى ... ... الخ .

والذى يروعك [٥] من المصرف نشاط عمّاله وحضور أذهانهم وبشاشة لقائهم وحسن هدايتهم ، حتّى إنّه لو دخل المصرف من لم يسبق له دخول وأفضى إلى بعض العمال بحاجته لألفى منه صدرا رحبا لما يريد ، ودلالة واضحة على الطريق التى يسلكها لحاجته ، وكأنّهم يشعرون فى كلّ حين بأنّ فى عملهم معونة للناس وتسهيلا لتعاملهم ، وحفظا لأموالهم ، وتيسيرا على معسرهم ، وإغاثة لملهوفهم ، فتراهم ظراف الشمائل ، سِراع الحركات ، أيقاظا فى كلّ ما يؤدّون .

أعمال المصارف

(٢)

١ — حفظ الودائع : قبل أن تنشأ المصارف أو قبل أن يثق الناس بها كان كلّ ذى مال ساهرا على حفظه ، مشغولا بتخبئته ، محتالا لمواراته ، فكان يحفر

---

(١) مستدير فى استطالة (٢) النحاس (٣) لوح (٤) جمع صفحة (٥) يبهرك .

له فى الأرض قبرا أو يشُقّ له فى جدار الحدا (١) ، وكأنّ اللصوص قد عرفوا هذة المخابئ فروّعوا أهل المنازل بالسطو عليها أو نقب جدرها . وظلّ أصحاب الأموال أشقياء بها حتّى أنشئت المصارف فأقبل عليها من أراد لنفسه الراحة من عناء الحراسة لحفظ ماله وسلم من العدوان .

تقبل المصارف الودائع أيّا كانت ، من نقود وحلىّ وعروض تجارة وأوراق ماليّة وعقود بين متعاملين ، تحفظ ذلك لأصحابه بأجر زهيد لا يقوم بشىء من صيانته ، إلّا النقود فلا أجر على حفظها بل يكون لصاحبها نصيب من الربح إذا قبل تثميرها .

٢ — الإقراض : من أعمال الرحمة التى تتولّاها المصارف إقراض المعسرين ، فمن أعوزه بعض المال وكان يملك شيئا ذا قيمة لا يريد أن يبرم فيه بيعا ، قدّمه إلى المصرف ليرتهنه (٢) فى نظير إقراضه مقدارا من المال يكون عادة دون قيمة الرهينة فيتمّ ذلك الرهن بشروط عادلة ويتسلّم الراهن (٣) المال على أن يردّه فى ميعاد يعيّنه فإن لم يكن منه وفاء غلق (٤) الرهن فى يد المصرف وباعه فاستردّ لنفسه مقدار القرض وأعطى الراهن بقيّة الثمن .

ولعلّ أجلّ عمل للمصارف هو الإقراض فإنّ شيوعه فى العهد الأخير على يد المصارف قد أثّر فى الصناعة والزراعة والتجارة أحسن تأثير ، فراجت أسواقها واتّسعت دوائرها واشتدّت حركتها ، وقد اعترف رجال الاقتصاد لعهدنا الأخير «عهد الإقراض» بأعظم فضل حتّى لقد قال أحدهم : إنّ شيوع الإقراض قد أضاف إلى العالم ثروة هى أضعاف ما أفادته مناجم الدنيا .

---

(١) الشق (٢) يأخذه رهنا (٣) صاحب الرهن (٤) استحقه المرتهن وذلك إذا لم يفك فى الوقت المشروط .

٣ — الحساب الجارى : كذلك من أعمال المصارف فتح الحساب الجارى، وهو عمل يشبه أن يكون المصرف فيه وكيلا عن صاحب المـال ، فإنّه يتسلّم عنه الأموال التى ترد باسمه ويضيفها إلى ماعنده له ، ويؤدّى إلى دائنيه مايأمره بأدائه إليهم ، ويدفع إليه فى أىّ وقت شاء ما يطلب منه ، وهذا العمل على تشعّبه يؤدّيه المصرف على أتمّ حال من الضبط والأمانة .

هذا العمل إلى جانب تسهيله للتعامل يثمّر فى حَرِيف المصرف (معامله) خلق التدبير والقصد ، فإنّ كثيرا من الناس إذا رأوا أموالهم بين أيديهم بذروها وأسرفوا فيها ، فإذا بعـدت عنهم بعض البعد غفلوا عنها إلّا فى الحاجة الحـافزة والضرورة القصوى .

٤ — الأوراق المـاليّة : يراد بها فى الاصطلاح المـالىّ تلك الأوراق ذات القيمة المـاليّة من نحو أسناد[1] الحكومات كسند الدين الموحّد المصرىّ وسند الحرب للحكومة الإنجليزيّة، ومن نحو سهام[2] الشركات كسهام شركة قناة السويس، وشركات الفنادق، وشركة السكّر بالحوامديّة، وشركة كوم أمبو الزراعيّة بأسوان إلى غير ذلك ممـا ترى أسعاره فى الصحف اليوميّة .

ولهذه الأوراق سوق تباع فيها وتشـترى وتلك السوق تسمّى مَصْفق الأوراق "بورصـة الأوراق" لمن أراد الاتّجـار بها وكّل مصرفا فى الشراء ودفع له مع الثمن سمسرة هيّنة جدّا تسعّرها الحكومات لكلّ نوع من الأوراق ، فإن أراد البيع فالمصرف يتولّى ذلك ويقبض عنه الثمن ويحفظه له حتّى يتسلّمه .

---

(١) نصيب من دين تقترضـه حكومة أو شركة من الشركات وله الغنم ولا شىء عليه من الغرم

(٢) السهم نصيب من رأس المـال الذى تكوّنه الشركة للقيام بأعمـالها وله كبير الغنم وعليه كل الغرم .

٥ — تبديل النقود : إذا أزمعت السفر إلى فرنسا مثلا وجب أن يكون معى نقود فرنسيّة حتّى أستطيع التعامل بها فى تلك البلاد .

وسبيل الحصول عليها أن أذهب إلى أحد المصارف فى مصر وأدفع إليه النقد المصرىّ الذى أحتاج إلى قيمته فى فرنسا ، فيشترى المصرف بهذا المقدار نقدا فرنسيّا من فرنسا و يودعه باسمى أحد مصارفها ، و يعطينى صكّا على هذا المصرف فآخذه معى ، وحين أكون هناك أقصد إلى هذا المصرف وأقبض منه قيمة الصّكّ نقودا فرنسيّة .

وهكذا يعمل التجّار فى مصر إذا هم اشتروا بضاعة من تاجر فى إحدى الممالك فإنّهم يدفعون قيمتها من نقود مصريّة فى أحد المصارف وهو يحوّلها إليه فيتسلّمها من نقد بلاده .

وقد تحطّ قيمة النقد فى بلد من البلاد إذا أسرفت حكومته فى إصدار الأوراق النقديّة ، كما هو الشأن فى المارك الألمانىّ الذى قيمته الأصليّة خمسون مليّما مصريّا تقريبا ، فقد تدهور تدهورا متتاليا حتّى صار لا يكاد يساوى شيئا . وقد انتهز كثير من سكّان المعمورة فرصة انخفاضه فأحرزوا منه مقادير عظيمة وجلبوا بها بضائع من ألمانيا أو ذهبوا إليها سائحين فكانت نفقاتهم فيها دونها فى بلادهم على شدّة الغلاء هناك .

٦ — قبض السفاتج «الكمبيالات» إذا كان لك عند أحد دين وبيدك سفتجة فإنّ المصرف يقبل أن يعطيك قيمتها قبل حلول ميعادها أو بعده ، ثمّ يتولّى هو قبضها فيريحك من عناء الطلب و يوصل إليك حقّك من غير جهد أو قبل حلول ميعاده .

٧ — ورق المصرف "البنك نوت" لسهولة التعامل تختار الحكومة مصرفا من مصارف بلادها تثق به وتأذن له بإصدار أوراق نقدية بقدر محدود يكتب على كل منها قيمتها ، فمنها فى مصر ما قيمته جنيه أو نصفه أو خمسة منه أو عشرة أو خمسون أو مائة .

وهذه الأوراق لا يسمح للمصرف بإشاعتها فى التداول حتى يكون قد رصد قيمتها فى خزائنه . والحكومة المصرية "تشترط على البنك الأهلى" الذى خولته هذه الثقة وقصرت عليه هذا الحق أن يجعل نصف هـذه القيمة ذهبا والباقى أسنادا حكومية حتى لا يعجز عن تبديلها بالذهب إذا أريد منه ذلك فى أى وقت .

هذه هى أهم أعمال المصارف ، وقد بان لك منها أن المصرف مروج التجارة ، ووسيلة التعامل وغوث الملهوف وأمن الخائف . فوجب علينا أن نستفيد من هذا الأثر العظيم للمدنية الحديثة ولا ننكص عن الانتفاع بمزاياه .

والعجب أن من أغنياء مصر من لا يعرف فضـل المصـارف ولا عظيم أثرها فى حياة التعامل ، فيظل محروما هذه المزايا الجليلة مسلوب الراحة على أمواله ضائع الثروة لغلطه فى حسابه .

الشىء بالشىء يذكر

قد مضى قولنا فى المصارف المـالية وما تقوم به من الحركة الدائمة من مداولة النقود وتيسير الانتفاع بها ، فذكرنا ذلك بشأن المـال ومكانه من نفوس الناس إذ كان قاضى الحـاجات ، وميسر اللبانات [1] ، ومحقق الرجاء ، ومجيب الدعاء . وكان

---

(١) جمع لبانة وهى المأرب والحاجة .

عون الشدّة ، وأقوى عدّة ، وأمان الفقر ، والملجأ من الدهر ، والمعين على المروءات (١) ، والآسى (٢) للجراحات ، والمجفّف لدموع البؤس ، والمبدّد لغيوم اليأس .

هو فى حياتنا المدنيّة ضرورة دفعت كلّ حىّ إلى العمل ، وخوّفته المستقبل ، فأصبح مشمّرا ، وبات مدبّرا مفكّرا ، وخاض الغمرات (٣) ، وقطع الفلوات (٤) ، وقلّب بطن الأرض لظهرها ، واستعان بعرق جبينه على ريّها ، لا يعرف هوادة (٥) فى مسعاه ، ولا غاية لمبتغاه ، فهو المال شعار (٦) كلّ قلب ، ونَهْمة (٧) كلّ نفس ، ونُهزة (٨) كلّ راصد ، وطريدة (٩) كلّ صائد . ولقد أحسن الشاعر البليغ عبد السلام بن رغبان (١٠) فى الحث على طلبه والدأب فى سبيله إذ قال :

لا تقف للزمان فى منزل الضيـ (١١) ـم ولا تستكن لرقّة حال

وأهن نفسك الكريمة للمو (١٢) * ت وقحّم بها على الأهوال

فلعمري للموت أزين للحـ (١٣) ـرّ من الذلّ ضارعا للرجال

أىّ ماء يدور فى وجهك الحـ (١٤) ـرّ إذا ما امتهنته بالسؤال

ثمّ لا سيّما إذا عَصَف الدهـ (١٥) ـر بأهل الندى وأهل النوال

غاضت المكرمات (١٦) وانقرض النا * س وبادت سحائب الإفضال

---

(١) جمع مروءة وهى ما به كمال الانسان فى مساعدة محتاج ومعونة مستعين الى غير ذلك (٢) المداوى (٣) جمع غمرة وهى فى الأصل الماء الكثير والمراد هنا الشدّة (٤) جمع فلاة وهى الصحراء (٥) اللين والرفق (٦) الشعار من الثياب ما لصق بالجسم والمراد بشعار القلب ما علق به واتصل (٧) النهمة الحاجة أو شدة الرغبة (٨) فرصة (٩) الطريدة الصيد المطلوب (١٠) شاعر عباسى من أهل حمص مجيد كان متشيعا وله مراث حسنة فى الحسين بن على (١١) الضيم الذل والاستكانة مثله . رقة الحال الفقر (١٢) قحّم نفسه على الهول رمى بها فيه (١٣) الضراعة الذل والضارع الذليل (١٤) الحر هو الكريم . امتهنه لم يصنه (١٥) عصف به الدهر أهلكه وذهب به (١٦) غاض الماء غار فى الأرض . باد الشىء انعدم . الافضال الجود .

فقليـــل من الورى من تراه * يُرتجى أو يصون عِرْضا بمال[1]

عادِ تدميثـك المضـاجع للجنـــب فعال الخرِيدة المِكسـال[2]

وادّرِعْ يَلْمَق اجتياب دجى الليـــل بِطِرفٍ مُضَبَّر الأوصـال[3]

واتّخذ ظهره من الذُّلّ حِصْنا * نعم حصن الكريم فى الزلزال[4]

لا أحبّ الفــتى أراه إذا ما * عضّه الدهر جاثما فى الضلال[5]

مستكينا لذى الغنى خاشع الطر * ف ذليـل الإدبار والإقبـال[6]

اين جوبُ البلاد شرقا وغربا؟ * واعتساف السهول والأجبال[7]

اموال الحكومات

جبايتها ونفقتها

مَثَل الحكومة فى تدبير شأن البلاد كمثل ربّ الأسرة يتعـــرّف لبيته حاجاته ويقدّر[8] نفقته بدخله . والذى يقوم بذلك التـدبير فى الحكومات هو بيت المـال «وزارة المالية» . وضبط الجباية والنفقة يسمّى ميزانا[9] «ميزانية» .

---

(١) الورى الناس . يرتجى يطلب عنده الخير العرض مفاخر المرء من شرف وحسب (٢) عاد تجنب التدميث التليين . الخريدة من النساء الطويلة السكوت الخافضة الصوت المتحجبة . المكسال من الكسل وقد كانت العرب تمدح بالكسل فى النساء كناية عن كونها منعمة مقضية الحـاجة لا تكاد تبرح مجلسها والمراد من البيت هجر الراحة فان ذلك شأن النساء (٣) ادرع البس اليلمق معرب (يلمه) وهو بالفارسية القباء اجتياب قطع الطرف . الطرف الأصيل من الخيل . المضبر المكتنز اللحم . الأوصال الأعضاء (٤) الزلزال رجة الأرض المراد هنا الهول والخطب العظيم (٥) الجاثم اللاصق بالأرض لا يبرح مكانه (٦) خشع طرفه سكن بصره ولم يرتفع كناية عن الذل (٧) الاعتساف السـير على غير هدى (٨) مدبر ويزن (٩) حسابها باحكام .

أبواب الجباية

(١)

١ — الضرائب : هى أعظم مورد للحكومات تتكوّن منه ثروتها وتعتمد عليه فى عمار خزانتها . وهى الآن تجبى فى مصر على الأراضى المزروعة والأبنية . أمّا الأراضى فقد جعلتها الحكومة مراتب على حسب درجتها فى الإنتاج وفرضت عليها قيما أدناها قرشان وأقصاها مائة وأربعة وستون قرشا عن الفدّان فى العام . وأمّا الأبنية فقد فرضت عليها أجرة شهر عن كلّ عام . فإذا كان لمالك منزل يُغِلّ(١) فى السنة ستّة وثلاثين جنيها فرضت عليه ثلاثة ، وهذا فى غير القاهرة فالضريبة فيها عشر الدخل السنوىّ . وفى غير بلاد مصر تجبى على أشياء كثيرة فمعظم ممالك أوربا تجبى ضرائب على الإيراد السنوىّ فتؤخذ من الموظّف عن مرتّبه ، ومن التاجر عن ربحه ، ومن المموّل عن ماله .

وليس لأنواعها فى عامّة الحكومة حصر ، فقد رأينا فى أيّام الحرب الكبرى أنّ الحكومات حين أعوزها المال فرضتها على الكمالات كالحرير والسكّر والدخان والخمور . حتّى لقد فرضها بعضها على الآكلين فى المطاعم إذا هم تناولوا ألوانا من الطعام فوق الحاجة . وإنّ الحكومات لا تكون رشيدة إلّا إذا راعت طاقة الناس ودرجة احتمالهم فلم تفرض عليهم إلّا ما يستطيعون أداءه من غير جهد ولا عسر . أمّا إذا هى أثقلت الكواهل بالضرائب واتّخذت من قوّتها وسلطانها سيفا تَسُلُّه(٢) على الرقاب فى سبيل تحصيلها فإنّ مصير خزانتها إلى الخراب ؛ لأنّ المرء إذا علم أنّ ثمرة جهده مغتصبة منه وأنّ كدّه فى الحياة سيكون لغيره انقطع أمله الذى كان يبعث من همّته ، فترى الناس وقد زهدوا فى العمل ورغبوا عن التحصيل .

---

(١) يأتى بأجرة (٢) سل السيف جرده من الغمد .

وتلك العاقبة هى التى أنذر بها ابن خلدون فى مقدّمته إذ يقول :

«اعلم أنّ العدوان على الناس فى أموالهم ذاهب بآمالهم فى تحصيلها واكتسابها، لما يرونه حينئذ من أنّ غايتها ومصيرها انتهابها[1] من أيديهم . وإذا ذهبت آمالهم فى اكتسابها وتحصيلها انقبضت أيديهم عن السعى فى ذلك . وعلى قدر الاعتداء ونسبته يكون انقباض الرعايا عن السعى فى الاكتساب ، فإذا كان الاعتداء كثيرا عامّا فى جميع أبواب المعاش كان القوم عن الكسب كذلك ، لذهابه بالآمال جملة بدخوله فى جميع أبوابها . وإن كان الاعتداء يسيرا كان الانقباض عن الكسب على نسبته . والعمران ووفوره ونفاق أسواقه إنّما هو بالأعمال وسعى الناس فى المصالح والمكاسب ذاهبين وجائين . فإذا قعد الناس عن المعاش وانقبضت أيديهم عن المكاسب كسدت الأسواق وانتقضت الأحوال وابذعر[2] الناس فى الآفاق من غير تلك الإيالة ، فى طلب الرزق فيما خرج عن نطاقها فخفّ ساكن القطر وخلت دياره وخربت أمصاره » .

ومن أعلى الحكم التى تروى عن الملوك فى توقّيهم هذه العاقبة ما يحكى عن محمّد علىّ باشا رأس الأسرة المالكة فى مصر .

فقد ذكروا أنّ مديرا من رجاله ظنّ أنّ رضا مولاه فى أن يجمع له مالا كثيرا فعنُف بالناس حتّى جمع ما استطاع فارتفعت الأصوات بالشكوى ووصل إلى مسامع الباشا ما أتاه هذا الغاشم[3] فأحضره وأدناه منه وأخذ بلحيته وجعل يستلّ[4] منها الشعر واحدةً واحدةً فلم يجد الرجل لذلك ألما ، ثمّ ضمّ خُصْلة[5] منها بمقدار ما استلّه متفرّقا

---

(١) سلبها وغصبها (٢) تفرق (٣) الظالم (٤) ينزع (٥) جملة من الشعر .

واجتثّها[1] من منابتها فنبع من تحتها الدم[2] فوجد الرجل لذلك أكبر ألم ، فقال له الباشا : «فهكذا حالك مع الرعيّة ، فليس العنف والإعنات[3] بأجدى من الرفق والتسهيل» .

ومن الضرائب المكوسُ «الجمارك» التى تؤخذ على المتاجر الواردة بحساب ثمانية عن المائة من قيمة البضاعة فى أغلب الأنواع . أمّا البضاعة الصادرة فيؤخذ عنها واحد عن المائة من قيمتها . وقد وضعت كلّ حكومة حرّاسا على حدود بلادها يسمّون «خفر السواحل» يصادرون البضائع التى يحاول أصحابها تهريبها تخلّصا من دفع ضريبتها وكذلك يسدّون الطريق على من يحاول المرور بالمتاجر المحرّم إصدارها أو إيرادها . وكثيرا ما نسمع أنّ هؤلاء الحرّاس اليقظين فى مصر قد صادروا ما يدخل إلى مصر خفية من القنّب الهندىّ « الحشيش » ذلك النبات السامّ الذاهب بالعقل الذى يمتلىء بضحاياه مستشفيا المجاذيب بالعبّاسية والخانقاه .

وممّا يدخل فى باب الضرائب ما تأخذه الحكومة من رسوم القضايا المدنيّة ففى مصر إذا كان الحقّ الذى يطالب به المدّعى مائة جنيه مثلا أخذت المحكمة عنه ثمانية فإن زاد فعن المائة الأولى تسعة وعن الثانية أربعة . وكذلك عن الثالثة فإن زاد فاثنان عن كلّ مائة بعد ذلك إلى الألف ، فيكون مجموع ما يؤخذ عنه واحدا وثلاثين يدفع منه سبعة عشر مقدّما والباقى عند فوز المدّعى بحقه .

ووضع الضرائب أو تعديلها لا يصير قانونا نافذا إلّا بعد أن تقرّه المجالس النيابيّة التى تحكم البلاد .

(٢) الأعمال التى تديرها الحكومة : إنّ كثيرا من الحكومات تقوم بأعمال أو تحتكر صناعات فتستغلّ منها أموالا كثيرة . فحكومتنا مثلا تدير سكك الحديد والبرق

(١) اقتلعها (٢) ظهر (٣) التشديد .

والبريد . والحكومة الفرنسيّة تحتكر الكبريت والدخان . والحكومة الهنديّة تحتكر الأفيون .

ويدخل فى هـذا الباب ما تربحه الحكومات من سكّ[1] النقود فإنّ القرش مثلا لا يكلّف الحكومة من ثمن معدن وأجرة سكّ قيمتَه التى يُتداول بها .

كذلك يعدّ من هذا الباب ما تربحه الحكومة ممّا يظهر بأرضها من معـادن أو يعثر عليه من كنوز ومخبّآت .

(٣) ثمن الأراضى أو أجرتها : لبعض الحكومات نظام يقتضى أن تملك ما لا مالك له من أرض بلادها ، فهى تتصرّف فيها بالبيع لمن أراد أن يتملك قطعة منها أو تؤجّرها لمن أراد أن ينتفع بها أو يثمّرها .

ولحكومتنا إدارة تابعة لوزارة المـاليّة تسـمّى « مصلحة الأملاك الأميريّة » نشأتها سنة ١٩١٣ لتتولّى ذلك الشأن فهى التى أخذت تبيع للأهالى سنة ١٩١٤ مساحة تبلغ أربعين ألف فدّان بالفيّوم فباعتها ولم يبق منها إلى وقتنا هذا (سنة ١٩٢٣) إلاّ ألفا فدّان لا تزال محتاجة إلى إصلاح طرق ريّها ، فإذا تمّ ذلك استؤنف البيع منها . وكذلك هى التى أخذت منذ سنة ١٩١٨ تبيع قطعا من الأراضى متفرّقة فى البلاد ، وقد أتّمت إلى سنة ١٩٢١ بيع خمسة وخمسين ألف فدان .

(٤) الوراثة : ومن موارد الحكومات ما يصير إليها من تركات من لا وارث له من رعاياها . والأصل فى ذلك أنّ هذا المـال ملك للأمّة فتستولى الحكومة عليه لأنها هى القيّمة على الأمّة المتولّية لشؤونها .

---

(١) ضرب .

وجوه النفقة

(٢)

يقول أرسطو : إنّ الحكومة لم توجد إلّا لتجعل الحياة ميسورة هنيئة ، فالحكومة السديدة هى التى تجود بالمال لتسهيل الحياة . فإذا استطاعت أن تردّ الاعتداء وتبثّ الأمن وتحفظ الصحّة وتيسّر العيش وتهذّب النفوس فقد أصابت شاكلة[١] السداد ، وأحسنت إلى المستظلّين بعدالتها ، الخاضعين لقضائها .

لذلك كانت وجوه النفقة فى موازين الحكومات مرتّبة فى المنزلة كما يلى :

(١) الدفاع : يراد به ما ينفق فى سبيل صدّ الأعداء عن البلاد فتحشد لذلك الجيوش وتُدّخر الذخائر توقّعا[٢] للواثبة[٣] وتأهّبا[٤] للذود[٥] . وإنّ الحكومات الكبرى لتجود فى هذه السبيل جودا قد يظنّ إسرافا وهو غاية الحكمة ، لأنّها إذا صارت قويّة الجانب مستحصدة المِرّة[٦] قطعت أمل العدوّ فى الظفر بها ، فيصدّ عنها يائسا ، وتسلم من تعريض أبنائها للقتل . ولذلك قالوا : ليس أدعى إلى السلم من الاستعداد للحرب .

(٢) الأمن : وهو يلى الدفاع فى المرتبة ، لأنّ كليهما موضوعه النفوس البشريّة وسلامة حياتها . وإذا كان الدفاع متعلّقا بأمر خارج عن البلاد، طارئ عليها فإنّ علاقة الأمن بداخل البلاد وسكّانها .

يتعلّق الأمن بتأمين الحياة بين أهل الوطن ، فتحمى الحكومة الضعيف وتقتصّ من المعتدى وتضبط الجانى ، وتردّ الحقّ إلى أهله وتقيم الآداب ، وتحارب الفسوق

---

(١) ناحية (٢) انتظارا (٣) الهجوم (٤) استعدادا (٥) الدفاع (٦) الحصد شدة الفتل والمرة الحبل والمعنى أن حبلها يصير محكم الفتل أى أنها تكون قوية عزيزة .

ويقوم بذلك رجال الشُرَط والقضاء، وليس الفشل فى الأمن بأهون من الفشل فى الدفاع فإنّ الأمن إذا اضطرب حبله تواثب الناس فأكل قويّهم ضعيفهم . وفى ذلك الثورة ، وفى الثورة موت الحضارة والقضاء على العمران .

(٣) التعليم : تعوّل الحكومات الراقية على التعليم وتبذل فى سبيله المال الكثير، لأنّها تراه عونها الأكبر على ما تريد من تهذيب النفوس وتوسيع المدنيّة وترفيه العيش وتيسير الرزق . فإذا راقك من مدنيّة أوربا مظهر فإنّه إلى التعليم يرجع . ولقد بلغ من عنايتها به أن عممته حتّى قضت على الأمّيّة ، وخصّصته حتّى خرّجت الفلاسفة .

(٤) الصحّة : تشعر الحكومات بالحاجة الشديدة إلى العناية بصحّة شعوبها وتوفير الراحة لهم فى أساليب معيشتهم ، لأنّ الحياة لا تكون هنيئة إلّا بالسلامة ، والنفوس لاتستغلّ إلّا بالعافية . فإذا جادت الحكومات فى تلك السبيل فلأن تستغلّ الجهود وتثمّر العقول وتتوقّى الأوبئة المبيدة والعاهات المشوّهة .

فهى لذلك ترصف الشوارع وتطليها بالقار ، وتتولّى كنسها ورشّها وتغرس على جانبيها الأشجار المظلّلة ، وتمدّ الجوادّ [1] وتفسح الميادين وتغرس الحدائق وتنير الشوارع وتبنى المستشفيات لعلاج أنواع المرض ، وتقيم المحاجر الصحّيّة لينزل فيها القادمون من بلاد موبوءة حتّى يفحصوا ، فإن ظهرت سلامتهم أبيح لهم الدخول إلى البلاد وإلّا حجزوا ومنعوا أن يخالطوا الناس . وللحكومة وجوه أخرى للنفقة كإصلاح طرق الرىّ وترقية الصناعة وإنعاش التجارة وكلّها تلتقى مع ما ذكرنا ، لأنّ الغرض منها ترقية الأمّة وتيسير سعادتها .

---

[1] جمع جادّة وهى جانب الطريق .

وإنّ علماء الاقتصاد فى هذا العصر يتبيّنون رقىّ الأمّة ممّا يحويه ميزانها من أرقام فى كلا جانبيه « الجباية والنفقة » لأنّ كثرة الجباية دليل الرخاء وكثرة النفقة برهان الإصلاح .

وميزان كلّ حكومة يضبط لكلّ عام وتستبق بعض الحكومات من الجباية نصيبا يدّخر يسمّى « الاحتياطى » يسدّ به العجز الذى يحدث فى بعض السنين أو يستمدّ منه فى أثناء العام للنفقة التى زادت على ما قدّر لها ، أو التى طرأت لأمر غير متوقّع .

وهذا مثال فى الحزم تأتيه الحكومات التى هى فى باب الاستطاعة أقوى من آحاد الناس . فوجب علينا أيّها الأفراد أن نحتذيها فندّخر للطوارئ إذ كنّا عن الاستطاعة أبعد و بوصف العجز أولى .

حسم الداء خير من علاجه

يسبق إلى ذهن كثير من الناس أن يقصروا الداء على ما يعترى الأجسام من الأمراض والعلل، مخرجين ما ساء من الأخلاق والمعتقدات عن دائرة الأدواء. ولكنّ هؤلاء متى تدبّروا الأمر وروّوا فيه مليّا بدا لهم أنّهم ليسوا فيما سبق إلى ذهنهم على شىء من سداد[1] الفكر وأصالة[2] الرأى . فكلّ رذيلة داء ؛ وكلّ عجز عن تحكيم النظر الصائب والفكر الثاقب فيما يصدر عن الإنسان من الأفعال أو يجرى على لسانه من الأقوال داء ، كما أنّ كلّ وجع يصيب البدن داء .

---

(١) سداد الفكر إصابته (٢) أصالة الرأى جودته .

فالأدواء ثلاثة : جسمية وعقليّة وخلقيّة . على أنّ مجال الداء أوسع من هذا : فهو ينتظم(١) كلّ مكروه يصيب الإنسان فى نفسه أو ماله أو أهله .

وحسم الأدواءِ منعها باجتناب ما تنجم عنه : فحسم التُّخَمة(٢) بالحمية(٣) وتجنبِ البِطنة(٤) والقصد(٥) فى القوت . وحسم الجدرِىّ بالتطعيم . وحسم الأخلاق الفاسدة بالبعد عن مجالس السوء وملازمة البيئاتِ الصالحة . وحسم عثراتِ اللسانِ بالروِيّة والتفكير قبل النطق .

بيد أنّ من الأدواء ما يعرِض ولم يخطر بالبال ولا جال بالوهم ولا جرى فى الظنّ . فحسمه أن تعمِد إلى أعراضه متى بدت ، فتستأصل شأفتها(٦) ، وتفلّ شباتها(٧) ، فتقِف نموّها قبل أن يستفحل أمرها ويجِلّ خطبها ، فبذلك تأمن بوائقه(٨) ، وتسلم من جرائره(٩) .

وتوقّى الأدواء خير أنواع علاجها . قال ابن الرومىّ :

توقّى الداءِ خير من تصدّ * لأيسره وإن قرب الطبيب

---

(١) ينتظم يجمع (٢) التخمة الداء يصيب الانسان من أكل الطعام الوخيم . وأصلها وخمة . وجمعها تخمات وتخم (٣) الحمية اسم من احتمى المريض عما يضره إذا امتنع عنه . وفى الحديث (المعدة بيت الداء والحمية رأس كل دواء) . ويقابل الحمية التخليط (٤) البطنة الكظة وهى أن تمتلىء من الطعام امتلاء شديدا وفى المثل (البطنة تأفن الفطنة) أى تذهبها (٥) القصد نقيض الإفراط (٦) الشأفة قرحة تخرج فى أسفل القدم ، فتكوى فتذهب ومعنى تستأصل شأفتها تزيلها من أصلها وتذهبها كما تذهب تلك القرحة (٧) الشباة إبرة العقرب وحدّ كل شىء . وفل السيف ثلمه . وبابه نصر (٨) البوائق الشرور واحدتها بائقة (٩) الجرائر الذنوب والجنايات .

ومراعاته أصل كثيرٍ من الخير : فالتربية الجسميّة فى الصغر أمان من إسراع الضعف فى الكبر . والرويّة فى القول والفعل تكفل لك النجاح ، وتكفيك شرّ مواقف التنصّل[1] والاعتذار ، وتقيك مرارة اللوم وألم العقاب . ومن شبّ على الفضائل شاب عليها ، وربأ بنفسه عن الدنايا ، وكفّ عن الجرائم والآثام .

وحسم الداء خفيف المئونة قليل الكلفة . وهو دليل الحزم وبعد النظر فى عواقب الأمور . قال بعض الحكماء : مبادرة حسمِ الأمور ضعيفةً قبل أن تقوى ومحاولة قطع الأصول ضئيلةً قبل أن تغلُظ ، أحزم فى الرأى وأصحّ فى التدبير من التأخير لها والتهاون بها ، حتّى يلتئم قليلها بكثيرها ، وتجتمع أطرافها إلى جمهورها .

ولا يترك الداءَ ينمو حتّى تشتدّ شوكته ، ويتفاقم أمره ، ويَستشرى[2] شرّه ، إلّا العاجزُ الذى أَفِن[3] رأيه وضعفت حيلته . فإذا دهمته الخطوب أحال على المقادير .

وقد جاء بكليلة ودمنة : الرجال ثلاثة : حازم ، وأحزم منه ، وعاجز . فأحد الحازمين من إذا نزل به الأمر لم يَدْهَش له ، ولم يذهب قلبه شَعاعاً[4] ، ولم تَعْىَ به حيلته ومكيدته التى يرجو بها المخرَجَ منه . وأحزم من هذا المتقدّم ذو العُدّة الذى يعرِف الابتلاء قبل وقوعه فيُعْظِمه[5] إعظاماً ، ويحتال له حتّى كأنّه قد لزمه ، فيحسِم الداء قبل أن يُبتلى به ، ويدفع الأمر قبل وقوعه . وأما العاجز فهو فى تردّدٍ وتمنّ وتوانٍ حتّى يهلِك .

---

(١) التنصل التبرؤ . يقال : تنصل إلىّ فلان من الجناية إذا خرج منها وتبرأ (٢) يعظم (٣) ضعف (٤) يقال طارت نفسه شعاعا اذا تبددت من الخوف ونحوه فلم يدر وجه الصواب (٥) أعظم فلان الشيء عظمه وفخمه وكبره . «ما يعظمنى أن أفعل كذا» أى ما يهولنى .

ومن أمثـال ذلك مثل السمكات الثـلاث . فقد زعموا أنّ غديرا كان فيـه ثلاث سمكات : كيسة ، وأكيس منهـا ، وعاجزة . وكان ذلك الغـدير بنجوة من الأرض لا يكاد يقربه أحد ، وبِقربه نهر جار . فاتّفق أنّه اجتاز بذلك النهر صيّادان فأبصرا الغدير، فتواعدا أن يرجعا إليه بشباكهما فيصيدا ما فيه من السمك . فسمع السمكات قولهما .

فأمّا أكيسهنّ فإنّها لما سمعت قولهما ارتابت بهما ، وتخوّفت منهما ، فلم تعرِج على شيء حتّى خرجت من المكان الذى يدخل فيه الماء من النهر إلى الغدير ؛

وأما الكيّسة فإنهـا مكثت مكانها حتى جاء الصيّادان . فلمّا رأتهما وعرفت ما يريدان، ذهبت لتخرج من حيث يدخل المـاء . فإذا بهما قد سدّا ذلك المكان . فحينئذ قالت : فرّطت وهـذه عاقبة التفريط . فكيف الحيلة على هـذه الحال ؟ وقلّما تنجح حيلة العجلة والإرهاق . غير أنّ العـاقل لا يقنط من منافع الرأى ، ولا ييأس على حال ، ولا يدع الرأى والجهـد . ثمّ إنّها تمـاوتت فطَفَتْ على وجه المـاء ، منقلبـة على ظهرها تارة وتارة على بطنها . فأخذها الصيّادان فوضعاها على الأرض بين النهر والغدير فوثبت إلى النهر فنجت .

وأمّا العاجز فلم تزل فى إقبال وإدبار حتى صيدت اهـ .

وإذا أهمِل حسم الداء فربّمـا لا ينجع الدواء : إنّا نعالج فساد لساننا ، ونحارب انتشار العامّيّة بيننا ، فمن لنـا بالنجاح وأمّهاتنا يرضعن أولادهنّ العامّيّة مع ألبانهنّ؟ وإنّا لنشكو نقص أخلاقنا ، فكيف نصلحها وبيئة أطفالنا ليست منزّهة عن السوء والنقص ؟

ولحسم الداء يعمل الصالحون من الأئمة والمرشدين ، والحازمون من الساسة والملوك ، إذ يحكمون بين الناس بالعدل ، ويأسون المظالم [1] ، ويغيثون الملهوف ، ويسوسون رعاياهم بالرفق والأناة ، ويذودونهم عن مراتع الهلكة ، ومهاوى الغواية ، ومراقد الضلال .

ومن هذا الباب ما تقوم به مصلحة الصحة من تلقيح الأطفال وهم صغار ، وتنبيه الناس إلى [2] أعراض الأوبئة ليحتاطوا لها ويتقوها ، فيسلموا من شرها وينجوا من أذاها . وكذلك مصلحة التنظيم تنظف المدن وتوسع شوارعها ، وتنشئ بها الميادين ، وتغرس فى أرجائها الحدائق والبساتين . ووزارة الزراعة تلزم الزراع أن يطهروا أقطانهم من جراثيم الدود حتى لا يفتك بها ، فتفوتهم ثمرات ما بذلوا فى زراعتها من الجهد والمال . ووزارة المعارف تفصل من طلبة المدارس من يصيبه داء معد ، ولا تتركه يخالط إخوانه حتى يبرأ من علته .

وكذلك يعمل لحسم الداء كل طبيب يبتغى بطبه أجر الآخرة ، ويرجو به فى الدنيا طيب الذكر وحسن الأحدوثة .

---

(١) يداوونها كأنها جراح تولم المظلومين (٢) يتعدى نبه بألى كما يتعدى بعلى .

الأغذية

(١)

النباتيون[1]

اختلفت طرق التغذّى باختلاف البيئات والأقاليم : فالإسكمو وهنود أمريكا الشماليّة حياتهم من صيدٍ لحمه كثير الزلال قليل النشا . وبعض أعراب الصحارى لا قوت لهم إلّا لِبان النوق ولُحمان الإبل ، على حين تجد آخرين منهم قوتهم التمر . وأهل الأقاليم الحارّة والمعتدلة تكثر فى أقواتهم المواد النّشَوية : فالهنود وأهل سرنديب يأكلون الأرز كثيرا ؛ وأهل أوربا وأمريكا قِوام أغذيتهم القمح والبطاطس وما ضاهاها . وفلاحو مصر وفرنسا وإسبانيا غذاؤهم غلّة أرضهم مع السمن والزيت ، ولا يطعمون اللحم إلّا قليلا . وقديما كان عمّال إيقوسيا «اسكتلانده» يعيشون من اللبن المخيض[2] ودشيشة الزوان[3] . ولم يكونوا يتعاطون اللحم إلّا مرّة كلّ أسبوع .

فهؤلاء وأضرابهم اتّبعوا تلك النظم فى مطاعمهم مضطرّين ، وجعلوا منها كفايتهم مكرهين : أكرهتهم على ذلك بيئتهم وطبيعة بلادهم .

ومن الناس من كثرت فى بلادهم الخيرات وتنوّعت الأقوات . ولكنّهم جعلوا منها حراما وحلالا طائعين غير مكرهين . أولئك هم النباتيّون .

---

(١) يطلق النباتى على العالم بالنبات . والمراد به هنا محرم لحم الحيوان وسائر ما يتولد منه ، المقتصر فى طعامه على المواد النباتية (٢) هو الذى استخرج زبده بوضع الماء فيه وتحريكه . ومخض من باب نفع وضرب ونصر (٣) هو المعروف بالشوفان وهو الأوتس (Oats) بالانجليزية .

وهم فى ذلك فرق وأحزاب : فمنهم من حرّم الحيوان وما يخرج من الثمرات : فلم يستبيحوا اللحم ولا اللبن ولا الجبن . ومنهم من حرّموا كلّ مطبوخ ، واقتصروا فى طعامهم على ما نَضِج بطبعه من الحبوب والفواكه كالجوز واللوز والبندق .

وعلى الجملة فهم يحرمون التغذّى بلحم الحيوان إلّا قليلا منهم يستحلّون أكل السمك ، لأنّهم لا يرون فى التغذّى به ضررا .

ومن النباتيّين براهمة الهنود . وكان أبو العلاء المعرّى الشاعر العربىّ يرى رأيهم ، ويأخذ إخذهم (١) . فبقى زمانا لا يطعم اللحم ولا ما تولّد من الحيوان رحمة له ، وتحرّجا (٢) من إزهاق النفوس .

وممّا يدلّ على ذلك فى شعره ، عهده الذى أخذه على نفسه إذ يقول .

لا أفجع (٣) الأمّ بالرضيـع ولا * أشرَك هذا الفرير (٤) فى اللبن

وإنّما كان طعامه العـدس ، وحلاوته التين . وكان يرى أنّه تمّت له بذلك الصحّة والعافية من الأمراض . حدّث هو عن نفسه قال :

أفدت (٥) بهجران المطاعم صحّة * فما بى من داء يخاف ولا حبن (٦)

وكان يعتقد أنّ الناس قد رزئوا بنقص فى العقل ووكس (٧) فى الدين ، إذ يأكلون اللحم ، ويطعمون مايخرج الحيوان من الثمرات ، ومن ثمّ أوصاهم أن يذهبوا مذهبه ويكفّوا كما كفّ عن الحيوان ليغدوا أصحاء موفورى العقل والدين . فذلك حيث يقول :

---

(١) أخذ إخذ فلان و بأخذه سار سيرته وتخلق بأخلاقه (٢) التحرج — التأثم وهو مجانبة الحرج أى الإثم (٣) الفجع أن يوجع الانسان بشىء يكرم عليه فيعدمه . ويقال فجع فى ماله وأهله وبأهله وماله فهو مفجوع (٤) الفرير بالفاء ولد النعجة والماعز والبقرة الوحشية . وجمعه فرار (٥) استفدت (٦) هو عظم البطن وورمه (٧) الوكس النقص .

غدوت مريض العقل والدين فالقنى * لتسمع أنباء الأمور الصحائح
فلا تأكلنْ ما أخرج الماء ظالما[1] * ولا تبغ قوتا من غريض الذبائح
ولا تفجعنّ الطير وهى غوافل * بما وضعت فالظلم شرّ القبائح
ودع ضَرَب[2] النحل الذى بكرت له * كواسب من أزهار نبت فوائح
فما أحرزته كى يكون لغيرها * ولا جمعته للندى والمنائح[3]

وقد حاجّه فى ذلك داعى الدعاة بمصر لوقته . ولما حجّه[4] زعم أنّه لم يحرّم على نفسه ولا على الناس لحم الحيوان ولا ما أنتج ، وأنّه إنّما تركه وأراد حمل الناس عليه زهدا ورحمة .

ثم انتحل الفقر له عذرا . ولما وعده داعى الدعاة الغِنى على أن يعود إلى أكل اللحم أبى ، معتذرا بأنّه كفّ عنه[5] خمسا وأربعين حِجّة حتّى اعتاده « وشديدٌ عادةٌ منتزعة » .

ولقيه رجل فقال له : لم لا تأكل اللحم ؟ فقال : أرحم الحيوان . قال : فما تقول فى السباع التى لا طعام لها إلّا لحوم الحيوان ؟ فإن كان لذلك خالق ، فما أنت بأرأف منه ! وإن كان الطبائع هى المحدثة لذلك ، فما أنت بأحذق منها ولا أتقن ! فسكت .

---

(١) طرى جديد (طازج) (٢) هو العسل الأبيض الغليظ . يذكر ويؤنث (٣) جمع منيحة وهى منحة اللبن ، كالناقة والشاة تعطيها غيرك يحتلبها ثم يردها عليك (٤) غلبه بالحجة (٥) الضمير للكف المأخوذ من الفعل كف قبله . فهو على حدّ قوله تعالى "اعدلوا هو أقرب للتقوى" فان هو ضمير العدل المأخوذ من اعدلوا .

وللنباتيّين جماعات فى أوربا وأمريكا وسواهما من البلدان ، يعملون على نشر آرائهم بالخطب والمؤلّفات ، ويقومون بتجارب فى الطهى تبيّن للناس أنّ فى الطعام النباتىّ من اللذّة والتفنّن ما فيه مقنع لأكثر الناس رفاهية ، وأشدّهم فى مطاعمهم تأنّقا .

وهم يدّعمون مذهبهم بأدلّة كثيرة : منها أنّ المغذّيات فى الموادّ النباتيّة أرخص منها فى اللحوم . ذلك أنّ رغيفين ومائتين وسبعين جراما من العدس على رخصها تغنى ما لا تغنيه أقّتان من اللحم على غلائهما .

ومنها أنّ النباتىّ أقوى من غيره . وربما عزى إلى هذا فوز النباتيّين فى مسابقة المشى بين درسدن وبرلن مسافة مائة وخمسة وعشرين ميلا ، وحوزهم قصب السبق فى مسابقات أخرى كثيرة [١] .

بيد أنّه اتّضح بامتحان عمّال المصانع والحقول بفرنسا أنّ النباتىّ يزداد قوة إذا أضاف إلى طعامه قليلا من اللحم .

وقد أثّرت آراء النباتيّين تأثيرا حسنا فى المجتمع على غرابتها وشذوذها . فقد استفاد منها كثير من الناس أنّ الاعتدال فى التغذّى باللحوم خير من الإفراط . فقلّلوا اللحوم فى موائدهم [٢] وأكثروا فيها ألوان الأطعمة النباتيّة .

---

(١) راجع دائرة معارف بريتانكا (Gne. Bri.) مادة (Vegetarianism.) (٢) جمع مائدة وهى الطعام .

الأغذية

(٢)

تعقيمها [١]

تعقيم الأطعمة جعلها غير قابلة للاختمار والفساد . وبه تبقى صالحة للتغذّى بها مدّة أطول من المدّة المعتادة . وبه يتهيّأ للإنسان ادّخار الأطعمة وحفظها للانتفاع بها فى غير مواسمها ومواضعها التى أنتجت فيها .

وقد كان العرب يعقمون اللحوم بتقديدها [٢] . وكثر ذلك منهم فى ثلاثة الأيّام التى تلى يوم النحر، إذ كانوا يشرّقون لحوم الأضاحى وينشرونها فى الشمس لتجفّ . ومِن ثَمّ سمّوا تلك الأيّام أيّام التشريق .

ومدبّرات المنازل يعرِفن قيمة التعقيم وينتفعن به ، إذ يجعلن اللبن أقِطا [٣] وسمنا ، وإذ يطبخن الأطعمة ويسخّنّها مرّة بعد أخرى ، ويملّحن اللحم النّىء ، ويجفّفنَ الخُضَر .

وتقوم الطبيعة نفسها بالتعقيم أو تجفّف كثيرا من الفواكه والحبوب وتنضجها أتمّ إنضاج .

ويشغل تعقيم الأطعمة الآن ميدانا فسيحا من ميادين الصناعة . وطرقهم فيه كثيرة : منها ثلج اللحوم ، ومنها إضافة موانع الفساد ، ومنها قتل الجراثيم بالحرارة ثمّ منع الهواء .

---

(١) العقيم ذات العقم . يقال امرأة عقيم أى لا تلد . وعقمها جعلها عقيما . وتعقيم الأطعمة من هذا جعلها غير صالحة لنموّ الجراثيم فيها وتوالدها منها (٢) تقديدها تجفيفها (٣) الأقط الجبن المتخذ من اللبن الحامض « ج » أقطان .

فأمّا ثلج اللحوم فتدبير مؤقّت يحتال به على نقلها من قارّة إلى أخرى . وهو صناعة كثيرين بأمريكا وأستراليه وزيلنده الجديدة : تجمّد الذبائح بآلة مبرّدة ، وتوضع على السفن فى غرف مبرّدة كذلك ، فتصل من تلك البلاد إلى أوربا سليمة صالحة للتغذّى بها ؛ حتّى إنّها إذا أذيبت بمهارة ورفق ، كانت فى طعمها ونفعها كاللحم الغريض[1] .

وأمّا موانع الفساد التى تضاف إلى الأغذية فتقتل جراثيمها وتصونها عن الفساد والعفونة ، فكثيرة . منها ملح الطعام المعروف .

فمدبّرات المنازل يعقّمن به اللحوم كما رأيت . ومنها حامض البورق : يحقن به الحيوان فى الأوردة الغلاظ وهو حىّ فتحمله مجارى الدورة الدمويّة إلى أجزاء بدنه كلها ، ثمّ يذبح . واللحم الذى يعقّم بهذه الطريقة يبقى طيّبا صالحا لذيذا مدّة ثلاثة أشهر .

وأمّا قتل الجراثيم بالحرارة ثمّ منع الهواء ، فطريق تعقيم اللحوم والأحسية المحفوظة فى العلب : تملأ آنية من الصفيح لحما أو حساء ، ثمّ توضع فى ذوب (كلورات الكلسيوم) ، ويحمى عليها حتّى يصير الذوب فى درجة مائتين وسبعين من مقياس فرنهيت ، وتبقى كذلك ثلاث ساعات ليستأصل ما باللحم أو الحساء من الجراثيم . ويكون بكلّ إناء ثقب كسمّ[2] الخياط[3] يخرج منه البخار . فمتى أخرجت الآنية من الذوب تلاءم ثقوبها بلحام وتترك حتّى تبرد .

---

(١) غير البائت « الطازج » (٢) السم الثقب كثقب الإبرة ونحوها . تقول هو أضيق من سم الإبرة ، (٣) الإبرة ومنه قوله تعالى : حتّى يلج الجمل فى سم الخياط أى حبل السفينة فى ثقب الإبرة .

وتبقى الأطعمة التى تعقم على هذا الوجه فى أوانيها عشرين ســنة لا تسرى إليها عفونة ولا فساد . بيد أنه قد يبقى فى بعض الأوانى هواء تنمو جراثيمه داخل العلب فتفسد ما بها من الطعام . وإنّما ينجم ذلك عن إهمال قلّما يكون من شركات حذقت الصنعة ومهرت فيها .

ويعرف الإناء الذى تعفّن ما به أو فســد قبــل فتحه بمــا يبدو على جوانبــه من التفلطح والانتفاخ اللذين يكونان غالبا من ضــغط غاز العفونة والفساد جدران الإناء .

وعيب هذه الطريقة تجاوز الحدّ فى الطبخ . وهو يغيّر طعم اللحم والحساء ويشوّه منظرهمــا ، وينقص بلا شك قيمتهما الغذائيّة .

ويعقّمون البيض بذوب الزجاج أن[1] يعتريه فساد إذا ادّخر أو نقل من قارّة إلى أخرى . فذلك الذوب يسُدّ مسامّ قيضه[2] ، فلا يصل الهواء إلى داخله .

تلك بعض طرق التعقيم التى حفظت اللحوم والفواكه وسواها من المطاعم ، فأمكن نقلها إلى حيث يحتاج إليها ، وادّخارها للتغذّى بها فى غير مواسمها ، لا يمسّها عطب ولا يلحقها فساد .

---

(١) التقدير خشية أن يعتريه . فهو على حدّ قوله تعالى "وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم" أى كراهية أن تميل بكم وتضطرب (٢) القيض القشرة العليا اليابسة على البيضة .

وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ (قرآن كريم)

(١)

إنّا نسبّح بحمد الله والثناء عليه وعلى حسن أفعاله وكمال صفاته . وكذلك يسبّح الله ويثنى عليه سائر مخلوقاته : سواء فى ذلكناميها وجامدها ، أرضيّها وسمائيّها .

ولا غرو[1] من ذلك . فإنّ التسبيح والثناء كما يجريان على لسـان المقال ، تنطق بهما الأحوال .

وفى كلّ تحـــريكة * وتسكينة فى الورى شاهد

وفى كـلّ شىء له آية * تدلّ على أنّه الواحـــد

بيد أنّ فى تسبيحها بحمده تعالى شتّى الطرق .

وإنّا هاهنا مختارون أربعـا من تلك الطرق موضّحوها بمختلف الأمثـلة لتكون نموذجا يمتثله[2] من منحه الله الهـداية ، ويحتذيه من آتاه الله التوفيق للنظر إلى ما لله تعالى من بدائع المصنوعات ، وروائع الآثار والآيات .

(١) الطريق الأولى تسبيحها بحمده بدلالتها على أنّه تعالى حىّ قادر ، جبّار قاهر ، له القدرة والملكوت ، والعزّة والجبروت .

تلك طريق تسبيح الكواكب فى أفلاكها ، والنجوم فى مصـاماتها[3] ، وما على الأرض من ماء متلاطم تيّاره[4] ، مترا كم[5] زخّاره[6] ؛ ورواسٍ شامخات ، وجبال راسيات .

(١) لا عجب . يقـال لا غروى من كذا كما يقال لا غرو منه (٢) يتخذه مثالا (٣) مواقفها

(٤) موجه (٥) بعضه فوق بعض (٦) الزخار شديد الزخر أى الامتداد والارتفاع .

فقـد خلقها ، جلّت قدرته ، فى أسرع مدّة ؛ بلا رويّة[1] أجالهـا[2] ، ولا تجربة استفادها ، ولا حركة أحدثها ، ولا همامة[3] نفس اضطرب فيها "إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ".

ثمّ تركها ، جلّ شأنه ، فى الفضاء معلّقة بلا سبب ، مرفوعة بلا عمـد ؛ تسـبّح فى أفلاكها ، وتجرى إلى منازلهـا التى قدّرت لها ، غير متخطّيـة إيّاها ، ولا متقاصرة عنها .

وإنّها لتتبع هذا النظام العجيب ولسان حالهـا يقول :

كلّ ما ترتقى إليـه بوهم * من جلال وقدرة وسناء

فالذى أبدع البـريّة أعلى * منه، سبحان مبدع الأشياء

(٢) الطريق الثانية تسبيحها بحمده بدلالتها على إفضاله علينا ، وإحسانه إلينا ؛ وأنّه ذو الفيض العميم ، والفضل العظيم .

يثنى عليه بذلك كلّ شىء فى السموات والأرض ، نستمدّ منه سرورا ، وانتعاشا وحبورا ؛ كالسموات فى زرقتها ، والحقول فى خضرتها ، والبساتين فى نضرتها[4] ؛ والأشجار فى حفيفها[5] ، والمياه فى خريرها[6] ، والطيور فى تغريدها ، والشمس فى تدرّجها فى شروقها وغروبها ؛ وفيما تكسبه[7] السماء فى أثنائهما من جميل المناظر ، وبديع الألوان .

---

(١) فكر (٢) أدارها ورددها (٣) همـامة النفس اهتمامها بالأمر وقصدها إليه (٤) بهائها وجمالها (٥) صوتها (٦) صوتها (٧) كسبت زيدا مالا وعلما أى أنلته . و يقال أكسبته بالألف . وكما روى "فأكسبنى مالا وأكسبته حمدا" .

(٣) الطريق الثالثة تسبيحها بحمده بدلالتها على أنّه الرءوف الرحيم .

تلك طريق السحب وحركة الأرض حول محورها فى تسبيحها بحمد الله تعالى .

فمن رحمته أنزل من المعصرات[١] ماء ثجّاجا[٢] ، لنخرج به حبّا ونباتا ، وجنات ألفافا[٣] . ومن رحمته لم يدع الأرض ساكنة ، ولم يجعل النهار سرمدا[٤] إلى يوم القيامة على أقوام بلا ليل يسكنون فيه ، ويداوون متاعب الحياة ببلسم[٥] الراحة والنوم ؛ ولا الليل سرمدا إلى يوم القيامة على آخرين بلا ضياء يزاولون فيه أعمالهم ، ويبتغون من فضل الله ؛ بل سيّر الأرض من المغرب إلى المشرق ، وجعل الليل والنهار خلفة[٦] لمن أراد أن يذّكّر أو أراد شكورا .

(٤) الطريق الرابعة تسبيحها بحمده بدلالتها على أنّه المدبّر الحكيم .

فما من شيء من مخلوقاته تعالى إلّا وفيه شيء يثنى عليه بالحكمة البالغة وحسن التدبير .

تثنى عليه بذلك الأرض إذ جعلها من الشمس على مسافة لاتستمدّ فيها من حرارتها إلّا بمقدار ماتصير به صالحة لحياة الإنسان والحيوان والنبات . ولو شاء ربّك لجعلها منها على نصف تلك المسافة أو على ضعفيها[٧] ، لأصاب أهلها من لفحات الحرّ[٨] ، أو نفحات القُرّ والصِرّ[٩] مالا رويّة فيه ولا بقيّة معه .

---

(١) السحب . من أعصرت إذا دنا أن تمطر (٢) منصبا بكثرة (٣) ملتفة الأشجار واحده لف :
(٤) دائما (٥) البلسم دواء تضمد به الجراحات (٦) هى الحالة التى يخلف عليها الليل والنهار كل واحد منهما الآخر . والمعنى جعلهما ذوى خلفة يخلف أحدهما الآخر عند مضيه (٧) مثليها (٨) ما كان من الرياح نفحا فهو برد ، وما كان لفحا فهو حر (٩) فان الحرارة كما قرر علماء الطبيعة تتناسب تناسبا عكسيا مع مربع المسافة فلو صارت الأرض على نصف مسافتها من الشمس لبلغت حرارتها أربعة أضعاف حرارتها الآن . ولو صارت على ضعفيها لسقطت الحرارة الى ربعها .

وإذ[1] تسرع فى حركتها اليوميّة: فبه جعل الله النهار ثِنْتَىْ عَشْرَةَ ساعةً على المتوسّط، فلم يدع الأرض تحمى حتّى يكون فى اشتداد حرّها أذى لأهلها. وكذلك جعل متوسّط الليل ثِنْتَىْ عَشْرَةَ ساعةً تستمدّ فى أثنائها الكائنات الحيّة حرارتها من المدّخر منها فى الهواء واليابس والماء .

وبهذا التدبير الحكيم وقى الله الأرض شرّ تحوّلها بفأة من قيظ النهار إلى زمهرير الليل وبالعكس، ولو شاء ربّك أن تبطئ حتّى لاتتمّ دورتها إلّا فى مائة ساعة مثلا، لطال أمد النُّهُر[2] والليالى، ولمات معظم ما على الأرض من الكائنات الحيّة، أوآذتها حمارّة[3] القيظ ، وصبارّة[4] البرد .

وإذ تدور حول الشمس ومحورها مائل على فلكها بمقدار ٦٦½° فإلى هذا الميلان يرجع الفضل فى تقلّب المناطق المعتدلة فى الفصول الأربعة، وتمتّعها بخيراتها المتنوّعة. وبه امتدّ العمران شمالىّ الكرة الأرضيّة وجنوبيّها كما ترى .

ولو شاء ربّك فدارت حولها ومحورها فى مستوى فلكها كما هو شأن أرنوس[5] لكان لكلّ بقاع الأرض ليال ونُهُر كليالى ونُهُر المناطق المجمدة[6] ؛ ولكان البرد فى الشتاء أضرّ بالحياة من زمهرير تلك الأقاليم، والحرّ فى الصيف نيرانا تضطرم[7] ، وودائق[8] تحتدم ؛ وتلك حال لاتبقى ولا تذر .

---

(١) عطف على «اذ جعلها» فى الفصل السابق (٢) جمع نهار (٣) و (٤) شدتهما (٥) أول كوكب كشف منذ اختراع المجاهر «التليسكوب» . عرف سنة ١٧٨١ وبعده من الشمس بمقدار بعد الأرض عنها ٢٠ مرة تقريبا (٦) من جمد الهواء الماء اذ جعله يجمد (٧) تشتعل (٨) جمع وديقة وهى شدة الحر فى الهاجرة .

ولو جرت حول الشمس ومحورها عمود على فلكها لكانت حرارة بقاع الأرض على الدوام ثابتة ، ولم يكن ثمّة[1] اختلاف فى درجة الحرارة إلّا باختلاف العروض ؛ ولكان ارتفاع الشمس فوق أفق القاهرة دوما ٦٠° ؛ ولحرمت مصر ماتخرجه أرضها من خيرات الشتاء والصيف ؛ ولكانت الشمس فى جهات القطب الشمالىّ دائما على حافة الأفق أو قريبا منها ، فلا تستمدّ تلك الجهات من حرارتها مايذيب مياهها ، فتبقى بحارها على الدوام جمدا ، وأراضيها طول السنة مغطاة بالثلوج. وربّما تناولت تلك الحالة أجزاء من المناطق المعتدلة ، وطغت الثلوج فامتدّت جنوبا حتّى تستحيل الحياة ببلاد الشمال من انجلترا والبلاد التى معها فى إقليم واحد .

وكذلك الأشجار والنبات ، فى الحقول والمتنزّهات ، تسبّح لله بثنائها عليه بالحكمة البالغة وحسن التدبير: فقد جعل سمّ[2] الحيوان لها غذاء ؛ وأوحى إليها أن تستخلصه من الهواء لتتركه صالحا لتغذية الحيوان .

وتثنى عليه بذلك النحل إذ ألهمها أن تبنى بيوتها مسدّسات منتظمات ؛ وأودع فيها قوّة على هضم الرطوبات التى تجمعها من الأنوار ، وثمر الأشجار ، وورق النبات والأزهار ؛ وجعلها غذاء لذيذا ، وشرابا صافيا ، ودواء شافيا .

تلك بعض الطرق التى تسلكها مخلوقاته تعالى فى تسبيحها بحمده . وإنّها لقُلٌّ من كُثْر، وغيض من فيض. فتبارك الله أحسن الخالقين . سبحانه لامُعقِّبَ لحكمه ولا حول ولا قوّة إلّا به ، وهو العلىّ العظيم .

---

(١) ثَمّ اسم يشار به إلى المكان البعيد . وقد تلحقه التاء فيقال ثمّة وموضعه نصب على الظرفية

(٢) هو حامض الكربون .

وإنْ مِنْ شَيْءٍ إلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ

(٢)

قال علىّ بن أبى طالب كرّم الله وجهه ، فى بعض خطبه :

ولو فكّروا فى عظيم القدرة ، وجسيم النعمة ، لرجعوا إلى الطريق ، وخافوا عذاب الحريق . ولكنّ القلوب عليلة ، والبصائر مدخولة [١] .

ألا ينظرون إلى صغير ما خلق ! كيف أحكم خلقه ، وأتقن تركيبه ، وفلق له السمع والبصر ، وسوّى له العظم والبشر ! .

انظروا إلى النملة فى صغر جثّتها ، ولطافة هيئتها ؛ لا تكاد تُنال بلحظ البصر ، ولا بمستدرك الفكر ؛ كيف دبّت على أرضها ، وصبّت [٢] على رزقها ، تنقل الحبّة إلى جحرها ، وتعدّها فى مستقرّها ، وتجمع فى حرّها لبردها ، وفى ورودها لصدرها [٣] . مكفولة برزقها ، مرزوقة بوَفْقها ؛ لا يُغْفِلها المنّان ، ولا يحرمها الديّان ، ولو فى الصفا اليابس ، والحجر الجامس [٤] !

ولو فكّرت فى مجارى أكلها ، فى علوّها وسفلها ، وما فى الجوف من شراسيف [٥] بطنها ، وما فى الرأس من عينها وأذنها ، لقضيت من خلقها عجبا ، ولقيت من وصفها تعبا !

فتعالى الذى أقامها على قوائمها ، وبناها على دعائمها ؛ لم يشركه فى فطرتها فاطر ، ولم يعنه فى خلقها قادر .

---

(١) بها فساد (٢) انحدرت بطلبه (٣) الصـدر الرجوع بعد الورود (٤) الجامس الجامد
(٥) مقاطّ الأضلاع وهى أطرافها التى تشرف على البطن .

ولو ضربت فى مذاهب فكرك لتبلغ غاياته ، ما دلّتك الدلالة إلّا على أنّ فاطر النملة ، هو فاطر النخلة ؛ لدقيق تفصيل كلّ شيء ،(١) وغامض اختلاف كلّ حىّ وما الجليل واللطيف ، والثقيل والخفيف ، والقوىّ والضعيف ، فى خلقه إلّا سواء . وكذلك السماء والهواء ، والرياح والماء . فانظر إلى الشمس والقمر ، والنبات والشجر ، والماء والحجر ، واختلاف هذا الليل والنهار ، وتفجّر هذه البحار ، وكثرة هذه الجبال ، وطول هذه القلال(٢) ، وتفرّق اللغات ، والألسن المختلفات .

فالويل لمن جحد المقدِّر ، وأنكر المدبِّر : زعموا أنّهم كالنبات ما لهم زارع ، ولا لاختلاف صورهم صانع . ولم يلجئوا(٣) إلى حجّة فيما ادّعوا ، ولا تحقيق(٤) لما ادّعوا . وهل يكون بناء من غير بان ! أو جناية من غير جان !

وإن شئت قلت فى الجرادة ، إذ خلق لها عينين حمراوين ، وأسرج لها حدقتين قمراوين(٥) ، وجعل لها السمع الخفىّ ، وفتح لها الفم السوىّ ، وجعل لها نابين بهما تقرض ، ومنجلين(٦) بهما تقبض ، يرهبها الزرّاع فى زرعهم ، ولا يستطيعون ذبّها(٧) ولو أجلبوا بجمعهم ، حتّى ترد الحرث فى نزواتها(٨) ، وتقضى منه شهواتها ، وخلقها كلّه لا يكون إلّا إصبعا مستدقّة .

فتبارك الله الذى يسجد له من فى السموات والأرض طوعا وكرها ، ويعنو له خدّا ووجها . ويلقى إليه بالطاعة سلما وضعفا ، ويعطيه القياد رهبة وخوفا .

---

(١) أى ان دقة التفصيل فى النملة على صغرها ، والنخلة على طولها ، تدلك على أن الصانع واحد

(٢) جمع قلة وهى رءوس الجبال (٣) لم يستندوا الى حجة (٤) حفظوا (٥) مضيئتين (٦) هما رجلاها

(٧) دفعها (٨) وثباتها .

فالطير مسخّرة لأمره : أحصى عدد الريش منها والنفس ، وأرسى قوائمها على الندى واليبس[١]، وقدّر أقواتها ، وأحصى أجناسها : فهذا غراب ، وهذا عقاب ، وهذا حمام ، وهذا نعام . دعا كلّ طائر باسمه ، وكفل له برزقه .

وأنشأ السحاب الثقال : فأهطل دِيَمها ، وعدّد قِسَمها . فبلّ الأرض بعد جفوفها ، وأخرج نبتها بعد جدوبها اهـ .

أعياد العرب فى الجاهلية والاسلام

(١)

لكلّ أمّة أعيادها ومواسمها ، وما خلق الله أمّة إلّا وقدّر لها أيّاما تسكن فيها إلى زهو الحياة وصفوها ، وأعرف الأمم بالحياة آخذها من تلك الأيّام بنصيب ، ذلك أنّها على قدر ما تستروح[٢] من نسيم الحياة وما تستريح إلى نعيمها تنسى ما لقيت فى العمل من عناء ، وما احتملت من أعباء ، وتعِدّ للمستقبل عدّته من قوّة ومضاء ، وفطنة وذكاء ، وهى بمـا اجتمعت على الصفو وما ائتلفت على السرّاء ، تزيد شدّة فى البلاء ، وصبرا على اللأواء[٣] .

من أجل ذلك كان العرب — وهم أجهـد الأمم فى ابتغاء الرزق ، وأخوضها لغمرات الخطوب — أحرص الناس على أعيادهم ، وأشدّهم ارتقابا لها ، واعتدادا بها ، سواء فى ذلك سادتهم ودهماؤهم[٤] ، ورجالهم ونساؤهم .

وكانت أعيادهم فى الجاهليّة على ضربين : دينيّة وقوميّة .

---

(١) يريد أن الله جعل من الطير ما تثبت أرجله فى الماء ، ومنه ما لا يمشى إلا على الأرض اليابسة

(٢) استروح النسيم شمه (٣) اللأواء أشد البلاء (٤) الدهماء سواد الناس وجمهورهم .

أمّا الدينيّة فتختلف باختلاف عقائد العرب وأديانها، والعرب أمّة ذات خيال بعيد ، وقد طغى خيالها على قلوبها فشعّب عقائدها ، وفرّق مذاهبها : فمنهم عبدة الأوثان الذين يعبدون ما ينحتون، ومنهم المجوس الذين سلكوا سبيل الفرس في عبادة النار والكواكب ، ومنهم عبدة النخيل والأشجار ، ومنهم أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، ومنهم الزنادقة الذين خرجوا على كلّ دين ، وثاروا على كلّ عقيدة ، وقالوا إن هي إلّا بطون تدفع ، وقبور تبلع ، وما يهلكنا إلّا الدهر ، ومنهم — وقليل ما هم — الموحّدون الذين يعبدون الله لا يشركون به شيئا .

لذلك كلّه اختلفت أعياد العرب وتباينت مظاهرها ،

على أنّ جمهور العرب عبّاد أوثان وأصنام[1] ، ولكلّ صنم من أصنامهم يوم وذكرى خيّلتها لهم أهواؤهم وجوّفتها أوهامهم .

ثمّ خرجوا إليها وعكفوا عليها نهارهم وأطعموا حولها ليلهم .

وكانت مظاهر أعياد العرب ثلاثة : ملاعب الخيل ، ومجامع الأدب من شعر وخطب ، ومجالس الميسر يردّون كسبه على من مسّهم الضرّ وأذلّتهم الحاجة .

(٢)

وكان شأنهم إذا أرادوا الميسر أن يبتاعوا جزورا — ناقة أو جملا — ويتضمنون[2] ثمنه ، ثمّ ينحرونه ويقسّمونه عشرة أقسام لا كرش فيها ولا ذنب ، ثمّ يأتون بعشرة قداح وهنّ أعواد من غصون الشجر مشذّبة متساوية ، سبعة منهنّ موسّمة[3]

---

(١) الوثن ما اتخذ من الحجر أو الخشب من المعبودات ، والصنم ما اتخذ من المعادن كالنحاس والفضة

(٢) يشترونه مؤجل الثمن (٣) معلمة .

وثلاثة أغفال[1] ، ومن السبعة الموسّمة ما له سمة واحدة ويسمّى فذّا ، وما له اثنتان ويسمّى توءما ، وما له ثلاث ويسمّى رقيبا ، وما له أربع ويسمّى حِلسا ، وما له خمس ويسمّى نافِسا ، وما له ست ويسمّى مُسبِلا ، وما له سبع وذلك هوالمعلّى. وأمّا الثلاثة الأغفال فلا شأن لها ، وإنّما جيء بها لتكثير العـدد وللاسترواح بها إذا خرجت حين اللعب .

وكان ربح كلّ قِدح وخسارته على قدر ما به من سمات . فالفذّ يربح نصيبا إن ظفر ويخسر مثله إذا خاب ، وهكذا دواليك حتّى يأتى المعلّى . فله ربح سبعة إن ظفر وخسارة مثلهنّ إذا خاب . وإنّى مرسل لك بيان ربحها وخسارتها .

يأتى السبعة الفتيان اللاعبون ويأتون معهم بأمين من أمنائهم فيلقون إليه القداح العشرة مخبوءة فى خريطة مطويّة من الجلد حتّى لا يعرف علامات القداح فيقدّمَ من له هوى فى تقديمه . ثمّ يعيّن كلّ منهم القِدح الذى يريد أن يخرج باسمـه ليكون له ربحه أوعليه خسارته وهنالك يبتدئ الأمين بإخراج القداح واحدا فواحدا ويصيح عند إخراج كلّ قِدح باسم صاحبه الذى اختاره ، ولا تزال القداح التى تخرج رابحة حتّى تستوفى عشرة أجزاء الناقة ، فإذا اسـتوفتها عدّ ما بعدها خاسرا وخسر على قدر ما به من سمات .

ومثل ذلك إذا خرج المعلّى والرقيب فى أوّل عهد اللعب فقد ربح الأوّل سبعة والثانى ثلاثة وهما كلّ أجزاء الجزور فكلّ ما بعدها خاسر ، وعلى كلّ ذى قِدح أن يغرم من ثمن الجزور قدر سماته ، فإن قوّمت الناقة بعشرة دنانير فقد فاز بها الأوّلان ،

---

(١) لا علامة فيها .

وغرم الفذ دينارا والتوءم اثنين والحِلس أربعة والنافس خمسة والمسبل ستة . ومآل كلّ أولئك من ربح أو خسارة إلى ذوى الحاجات من أهل العشيرة .

وكان من العار أن يَطْعَم الرجل أو يُطْعِم ذويه من كسب ميسره ، كما كان من العار أن يشهد الرجل اللعب ولا يَشْرَك اللاعبين .

وبعد فذلك شأن عبدة الأصنام من العرب فى أعيادها ، فأمّا من سواهم من اليهود والنصارى والمجوس فشأنهم فى أعيادهم شأن من حولهم من الأمم التى اتّبعوا أديانها ، ونهجوا مناهجها .

وأكثر أعياد اليهود والنصارى معروف فلا حاجة بنا إلى القول فيه . أمّا المجوس الذين اتّبعوا سبيل الفرس فأحفل أعيادهم النيروز والمِهْرَجان ولهم من دونهما أعياد أخر لا يتّسع لذكرها هذا الكتاب .

(٣)

فأمّا النيروز فتعريب كلمتى "نو" "روز" ومعناهما "اليوم الجديد" وهو عيد رأس السنة عند الفرس ، ومأتاه فى أوّل الربيع ، ومداه ستة أيّام . ولم يكن فى بلاد فارس وما إليها من العراق ما هو أبهج منه وأكثر سلوة وإيناسا لأنّه يحلّ حين تأخذ الأرض زينتها وترتدى حلّتها وتستكمل حليتها .

وكان من عادة الفرس فيه أن يقف فى ليلته بباب المَلِك رجل صبيح الطلعة مبارك الاسم ، أغرّ اللقب ، قد أفرغ عليه أنعم ما يلبس القوم من ثياب ، فإذا أصبح دخل على الملك غير مستأذن والملك حينئذ فى أحفل مجالسه وأعزّ مظاهره ، فيقول له : من أنت ؟ ومن أين أقبلت ؟ وأين تريد ؟ ولأىّ شىء وردت ؟

وما معك ؟ فيقول مثلا : أنا المنصور، واسمى المبارك، ومن قِبل الله أقبلت، والملك السعيد أردت ، وبالصفو والسلامة وردت ، ومعى السنة الجديدة ، ثمّ يجلس ويدخل رجل يحمل طبقا من الفضّة فيه حنطة وشعير وجُلبان[1] وحمّص وسمسم وأرز : من كلّ صِنف سبع سنابل وسبع حبّات وقطعة سكّر ودينار ودرهم جديدان فيضع الطبق بين يدى الملك، ثمّ تدخل عليه الهدايا ويكون أوّل داخل وزيره ثمّ صاحب الخراج ثمّ صاحب المئونة ثمّ الناس على مراتبهم ثمّ يقدّم رغيف كبير مصنوع من تلك الحبوب فيأكل منه ويطعم من حوله ، ثمّ يقول : هذا يوم جديد من شهر جديد من عام جديد من زمان جديد يحتاج إلى أن نجدّد فيه ما أخلق الزمان . ثمّ يخلع على وجوه مملكته ويصلهم ويفرّق ما حمل إليه من الهدايا عليهم .

أمّا جمهور الفرس فيوقدون النار فى ليله فى السهول والجبال وفى أفنية المنازل حتّى ليخيّل لمن يرى فارس من مكان سحيق أنّ هناك بروقا متلاحقة تشق الفضاء، بل إنّ العرب ليشبّهون البروق إذا اشتدّ خفوقها وخطف الأبصار سناها بهذه النيران . ومن ذلك قول القائل .

أحارِ أريك برقا بات وهنا * كنار مجوس تستعر استعارا[2]

فإذا كان الصبح وخبت ألسنة النيران نضحوا أرضهم وديارهم بالماء ، وقد يمزجه المترفون منهم بماء الورد ، فإذا قضوا ذلك أخذوا يُنْفِدون أيّام العيد فى أنعم عيشة وأهنئها .

وأما المِهْرَجان فميقاته فى منتصف الخريف ومداه ستة أيّام كذلك .

---

(١) الجلبان حب القطانى ومنه البسلة (٢) حار ترخيم حارث ووهنا أى فى منتصف الليل .

وكان شأن الفرس أن تدّهن ملوكهم وسوقتهم فى ليله بدهن البان[1] تبرّكا به ، فإذا كان صباحه دخل على الملك الموبذان — وهو زعيم دينهم — بطبق فيه أُتْرُجة[2] وقطعة من السكّر ونبق وسَفَرْجَل وعُنّاب وتُفّاح وعنقود عنب وسبع طاقات آس قد زُمْزِم[3] عليها ثمّ يدخل الناس على تفاوت أقدارهم بمثل ذلك .

وكانوا يتهادون فى النيروز والمِهرجان بالمسك والعنبر والعود الهندىّ والزعفران والكافور .

و بعد فتلك صورة مجملة ممـا يفعل القوم فى أعيادهم الدينيّة . فأمّا القوميّة فأكثر ما تكون لذكرى يوم من أيّامهم التى انتصروا فيها على أعدائهم أو انتقموا لأنفسهم منهم ، ومثل هـذه الأعياد ممّـا ينفرد به بعض القبائل دون بعض ، بل ربّمـا كان اليوم عيدا لقوم ومأساة لآخرين يتذاكرون فيه أوتارهم ويشدّون لابتغاء الثأر مآزرهم .

و إنّ مظاهر هذه الأعياد لأنفذ فى النفس وأفعل فى القلب من مظاهر تلك .

وكان يوم تلك الذكرى عيدا مشهودا لهم يقدّمون للصنم فيـه جهد ما ملكوا من مطاعم ومشارب ومطارف ، وينحرون بين يديه الجُزُر ، ويطعمون الطعام ، ويتجاذبون التحيّات والتهنئات .

وكما كانت مكّة موطن الحرم وساحة الكعبة التى تهوِى إليها قلوب بنى إسمعيل من العرب كذلك كانت مجمع كلّ ذى ذِكر ذائع ومكانة نابهة[4] من أوثان العرب وأصنامها .

---

(١) البان شجر يطول فى استوائه ثمر كقرون اللوبياء به حب تؤخذ عصارته فتكون أطيب شىء رائحة (٢) الأترج نوع من الفاكهة ذهبى اللون حلو الطعم ذكى الرائحة (٣) قرئ عليها قراءة دينية

(٤) بعيدة الصيت .

وكان يحيط بالكعبة نطاق من التماثيل التى يدين لها مختلف القبائل والبطون وإليها يضربون أكباد الإبل قصّادا وعبّادا .

وأنبه هذه الأصنام ثلاثة اللات والعزّى ومناة .

وكانت اللات لآل مكّة والعزّى لآل الطائف ومناة لهذيل وخزاعة وآل يثرب من الأوس والخزرج .

وكان قبيل كلّ صنم إذا فرغ من حجّه عطف على صنمه وأَهَلّ[1] له وتقرّب إليه كما يُهِلّ لله تبارك اسمه ويتقرّب إليه ، وكان ذلك اليوم عيدهم الذى يتأنّقون له ، ويباهون القبائل به .

وكان لتلك الأصنام سَدَنة[2] وحجّاب كما كان للكعبة سدنة وحجّاب . وما عرف التاريخ موطنا من مواطن الأرض كان أحفل بالناس وأبهج مواسم وأعيادا وأبهى ليالى وأيّاما مثل ما عرف من مكّة فى شهرى ذى القَعْدة وذى الحِجّة ، فقد كانا يَنْفَدان فى مناسك تقضى ، ومواسم تزهى ، وأعياد تُشْهد ، وأسواق تعقد ، وأندية تنتدى ، ومجامع تقام .

وكان رجال كلّ قبيلة وفتيانها يظهرون فى عيدهم وعليهم المطارِف[3] الموشيّة ، والحلل اليمانيّة ، ومن تحتهم النجائب الفُرُه[4] ، والخيل العتاق .

---

(١) أهلّ الرجل رفع صوته بذكر الله جلت قدرته لحدوث نعمة أو عند ظهور شىء معجب (٢) جمع سادن وهو خادم الكعبة ونحوها ، والسدانة — بكسر السين — الخدمة (٣) جمع مطرف وهو شقة من الحرير يلتفع بها (٤) النجائب كرائم الابل والفره من البراذين والابل ذوات النشاط والخفة .

ذلك شأن العرب فى مكّة . أمّا فى اليمن فكان للوثنيّين من أهلها بيت مقصود يقال له الكعبة اليمانيّة . وبه صنم يدعونه "ذا الخَلَصَة" . فإذا كان عيد ذلك الصنم ألبسوه القلائد وحمّلوه ببيض النعام وساقوا إليه الإبل والبقر ينحرونها له .

وكان لأهل نَجْران من اليمن نخلة سحيقة يعبدونها ، فإذا كان عيدها خلعوا عليها كلّ ثوب ناعم وقلّدوها كلّ حلية مشرقة ، فكأنّك يومئذ بفتيات الحمى وقد خرجن إلى الساحات صادحات راقصات متغنّيات ، وكأنّك بالصبية وقد غدَوا على ملاعبهم يتغنّون بالأناشيد على عَزْف المزاهر والدفوف ، وكانت قرائح الرجال تتكشف لذلك اليوم عن سلسل فيّاض من الشعر الصفىّ (١) يتغنّون فيه بما نالوا من الدهر من مجد وما اكتسبوا لدى الناس من محمدة .

ولمثل ذلك اليوم ألهم الشعر وفاضت خواطرهم به .

وكان من أيّامهم الذائعة يوم السباسب كان لذبيان وأحلافهم من العرب ، وكانوا إذا تجاذبوا التهانى فيه تبادلوا أعواد الريحان ، وفى ذلك يقول النابغة : « يحيّون بالريحان يوم السباسب » . ويقال : إنّ العرب كانوا يتهادَوْن الريحان فى عامّة أعيادهم .

وكان لقبيل من العرب يوم يسمّى يوم السبع يشغل فيه فتيانهم وكهولهم بصنوف شتّى من اللهو واللعب .

وكان العرب إنّما يؤرّخون بعظائم أيّامهم إلّا ما كان من أهل الكتاب من اليهود والنصارى وأشباه الفرس من المجوس فلهم رءوس أعوامهم .

---

(١) الشديد الصفاء .

(٤)

وكان تباين العرب فى مشاعرهم ومنازعهم، وانقسامهم بين قاهر ومقهور، وواتر وموتور، وإسراف قوم فى اللهو والصفاء، وجِدُّ آخرين فى البكاء والإغراء مما أسرع بالفساد إلى قلوبهم، وأرّث[1] نيران العداوة والبغضاء بين جوانحهم، وأوردهم حياض الموت فتيانا لِدان[2] العود حتى لقد كادت تمّحى آثارهم وتُعفّى[3] أخبارهم، فما زال كذلك أمرهم حتى أشرقت أرضهم بنور الإسلام وأظلّهم الله بلوائه فأصبحوا بنعمته إخوانا، وهنالك بدّلهم الإسلام من أشتات أعيادهم عيدين آخرين ينعمون فيهما برضوان الله ويغتبطون برحمته ويأخذون فيهما زينتهم ويتناولون من طيّبات ما أحلّ الله لهم ويتعاطفون ويتواصلون ويتعاونون ويتآزرون .

وقد شرع الله هذين العيدين للسلمين بعد هجرة النبيّ الأمين إلى المدينة، وكان أهلها يحتفلون بالنيروز والمهرجان وقيل بيومين من أيّام انتصارهم وغلبتهم فأبدلهم الله خيرا منهما ، يوم الفطر ويوم الأضحى .

وكان من سنّة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أن يغدو بالمسلمين والمسلمات فى صبيحته إلى المسجد الحرام فلا يبقى رجل ولا امرأة ولا صبيّ ولا صبيّة حتّى يسير فى أجمل بزّة وأتمّ نظام ، فيشهدون جميعا صلاة العيد ثمّ يعودون من طريق آخر حتّى يطّلع أهل الطريقين على شوكة المسلمين .

وكثيرا ما سمع عزف الدفوف فى طلائع تلك الصفوف تنويها بها وإظهارا لشأنها .

---

(١) أوقد (٢) جمع لدن أى رطب (٣) تنطمس .

وممّا سنّه الإسلام للناس أن يغدو الرجل إلى الصلاة نظيف البدن نقيّ الثوب ذكيّ الروح حتّى يلتقى المسلمون بعضهم ببعض أصفياء القلوب أنقياء الأبدان .

وقد صبر المسلمون حينا لا يعرفون غير هذين العيدين إلّا أن تكون أيّام معدودات يتقربون فيها بمأثور العبادات وموفور الصدقات كليلة المعراج وليلة النصف من شعبان حتّى كان عهد الحجّاج بن يوسف الثَقَفِيّ فأهدى إلى أمير المؤمنين عبد الملك ابن مَرْوان يوم النيروز الهدايا وتقدّم إليه بالتهنئة . وعلى قدمه سار مَن بعده من الولاة بعد عبد الملك من الخلفاء حتّى حال عمر بن عبد العزيز بين عمّاله وذلك فانقطعت أمدا غير قليل حتّى عاد عودُها فى عهد أمير المؤمنين المأمون إذ أهدى إليه كبير كتّابه أحمد بن يوسف سَفَطا من الذهب فيه قطعة فى طوله وعرضه من العود وكتب معه :

«هذا يوم جرت فيه العادة، بألطاف العبيد للسادة ،

وقد قلت :

على العبد حقّ وهو لا شكّ فاعله * وإن عظم المولى وجلّت فواضله»

ثمّ انطلق العباسيّون منذ عهد المأمون يحتفون بالنيروز والمِهْرجان ويتجاذبون فيها التهاديَ والتهانى ويمرحون ويطربون كأشدّ ما كان الفرس ينالون من مَرَح وإطراب . ذلك أنّ الدولة العباسيّة نهضت على كواهل الفرس وقامت على سواعدهم وارتكزت على أسنّة رماحهم ، وهم الذين تولّوا الجليل والدقيق من عمل الدولة فهم الكتّاب والشعراء والقادة والوزراء ، وهم الساسة والكُفاة ، والعمّال والولاة ، فليس بدعا أن يقتفى العرب فى ذلك العهد أثر الفرس أنّى ساروا ، وينهجوا مناهجهم أين سلكوا .

وكان ممّا يمتاز به نيروز العباسيّين نثر الورد في أرضهم وعلى موائدهم ومناضدهم وسُطُحهم وأخونتهم ، حتّى كأنّ رياض مدائنهم وأرباضها لم تكن تنبت فى ذلك العهد إلّا وردا .

فى ليلة من ليالى العيد

حدّث أبو عبد الله محمد بن عمر الواقدىّ قال :

كان لى صديقان أحدهما هاشمىّ وكنّا كنفس واحدة فنالتنى ضائقة شديدة وحضر العيد فقالت امرأتى : أمّا نحن فنصبر على البؤس والشدّة وأمّا صبياننا هؤلاء فقد قطعوا قلبى رحمة لهم لأنّهم يرون صبيان الجيران قد تزيّنوا فى عيدهم وأصلحوا ثيابهم وهم على هذه الحال من الثياب الرثّة فلو احتلت فى شىء فصرفته فى كسوتهم ! قال فكتبت إلى صديقى الهاشمىّ أسأله التوسعة علىّ بما حضر فوجّه إلىّ كيسا مختوما ذكر أنّ فيه ألف درهم . فما استقرّ قرارى حتّى كتب إلىّ الصديق الآخر يشكو مثل ما شكوت إلى صاحبى الهاشمىّ فوجّهت إليه الكيس بختمه وخرجت إلى المسجد فأقمت فيه ليلتى مستحيا من امرأتى . فلمّا دخلت عليها استحسنت ما كان منّى ولم تعنّفنى عليه فبينا أنا كذلك إذ وافى صديقى الهاشمىّ ومعه الكيس كهيئته وقال لى أصدقنى عمّا فعلته فيما وجّهت به إليك ، فعرّفته الخبر على وجهه فقال لى : إنّك وجّهت إلىّ وما أملك على وجه الأرض إلّا ما بعثت به إليك وكتبت إلى صديقنا أسأله المواساة فوجّه إلىّ كيسى بخاتمى قال الواقدىّ فتواسينا ألف الدرهم .

أعراس العرب فى الجاهليّة والاسلام

للعرب فى اعراسهم مقصد أجلّ وأسمى ممّا يرى الناس جميعا ، فهم ينظرون إليها نظرهم إلى أبهج أعيادهم ، وأعزّ مواسمهم ، ذلك أنّ العربىّ مسوق باعتقاده إلى اختيار زوجة من غير حيّه لأنّه يرى أنّ الغرائب أنجب للولد ، وأصبر على اللأواء.(١) وأنت تعلم ما كان بين أحياء العرب من وقائع لا يخمد جمرها ، ولا يرقأ(٢) دمها ، فلا يزال ذلك دأبها حتّى يتصاهر الحيّان فتستوثق الصلة بينهما ويُنشر لواء السلام عليهما ، لذلك لا تجد فى مأثور حياة العرب ، ومشهور أيامهم يوما أتمّ بهاء ، ولا أعمّ صفاء ، ولا أكثر ضياء ، ولا أجمع للبهيج الهنىّ من محافلهم ومعالم أفراحهم — من يوم البِناء.

فهنالك يتبارى الفِتيانُ من مطلع الشمس إلى مغيبها فيلعبون بالرماح ، ويَنْتَضِلون بالصِفاح ، ويستبقون على متون الخيــل وينطلقون إلى غياث البائسين ، ومعونة المحتاجين ، ويَسْرَحون ويَمْرَحون ، ويشربون ويطرَبون ، ويَرْتعون ويلعبون .

أمّا بين يدى الدار وفى فسحاتها وحجراتها ، فهم يَبْسطون الأنمــاط(٣) ويشدّونها على الجدران ، وعليها النقوش المَوْشيّة(٤) والصور المذهّبة ، ومنها ما أشبهت رسومه عيون النَرْجس وما اجتمعت عليه كواسر الطير وغرائب الحيوان وما حكت نقوشه الأقواس والسهام ، أو تقاطعت خطوطه تقاطع الصلبان . وعلى النمــارق(٥) المصفوفة ، والزرابىّ المبثوثة ، يجلس النساء وتأخذ فَتَياتهنّ فيما عَفّ وظَرُف من عَزْفٍ وغِنَاء .

---

(١) البلاء (٢) يجف (٣) جمع نمط بفتحتين رداء من الصوف ذو لون من الألوان ولا يقال للأبيض نمط (٤) المزينة المرقومة (٥) النمــارق والبُسُط .

أمّا الليل فأحسن ما اكتحلت به نواظر العرب حتّى جعلوه مضرب أمثالهم فقال قائلهم :

* يا ليلة ما ليلة العروس *

فهنالك تجلى العروس فى الحلّة اليمانيّة ، وهى ثوبان أحدهما باطن مَوشىّ والآخر ظاهر شفّاف . وقد تحبك خيوطهما عند بنات الملوك والسَروات بأسلاك الذهب ، وذلك ما يَدْعُونه بالمذهّب من الثياب . ثمّ يُفْرغون عليها من الحلىّ ما تملك وما لا تملك لأنّ قومها يستعيرون لها أبدع ما فى الحىّ من حلىّ ، بل ربّما تجاوزوا أحياءهم إلى ما سواها فقد استعار عُتْبة بن ربيعة — وهو فى الشرف الصميم من قريش — حين زوّج ابنته هندا من أبى سفيان بن حرب — حلّى بنى أبى الحقيق — وهم عشيرة من اليهود — ورهنهم ابنه الوليد بها فأقام بينهم شهرا كاملا حتّى عاد الحَلْى فعاد الفتى إلى أبيه . وخير ما تزدان به العرائس : التاج أو الإكليل وهو عصابة مرصّعة بالجواهر تحيط بجبينها . والوشاح وهو شقّة مرصّعة باللآلئ تشدّها بين عاتقها وخصرها . ثمّ ما نعلمه من قِرَطَةٍ وعقود وأساور وخلاخيل ونحوها ولها كذلك الدُمْلج أو المِعضد وهو طوق من الذهب يحيط بالعضد كما يحيط السوار بالمعصم .

فى ذلك الزىّ البهىّ تسير العروس فى حَشْد(١) من لداتها واترابها(٢) وبين يديها جوارى الحىّ عازفاتٍ منشداتٍ راقصات فيغنّينها بمآثر قومها ومفاخر آلها ممّا يبهجها ويثير روح العزّة والكبرياء بين جوانحها .

---

(١) جماعة (٢) لدتك ذو سنك وتربك خليلك .

وفى تلك الليلة لا يحتجب النساء عن الرجال فهم يجتمعون جميعا فى مكان واحد وقد يكون ذلك فى غرفة العروس وهى مجلوّة بينهم .

وكان قولهم للزوج حين يفارقونه بالرِّفاء[١] والبنين وللزوجة باليمن والبركة . وكانوا يودّعونها حين ترتحل عن حيّها إلى حىّ زوجها بقولهم : على خير طائر .

(٢)

كلّ ذلك كان للعرب فى عهد جاهليّتهم . فلمّا افترّ ثغر الإسلام عبر[٢] العرب يفعلون ما كانوا يفعلون إلّا الخمر والميسر وإلّا نشر الأنماط التى تضمّ إلى صدورها صور أوثان العرب ومعبوداتها ، أمّا ما سوى ذلك من الغناء فقد أباحه الإسلام ، ولقد حضر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عُرْسا لإحدى عقائل الأنصار فجلس بمقربة منها وسمع الغناء يلقى بين يديها . بل لقد عاتب صلّى الله عليه وسلّم عائشة أمّ المؤمنين إذ أرسلت عروسا من قِبلها إلى زوجها ولم ترسل معها من يغنّى لها ، فقد روى ابن عبد ربّه عن عائشة أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم دخل عليها فقال : أهديتم الفتاة إلى بعلها ؟ قالت نعم . قال فبعثتم معها من يغنّى ؟ قالت لا ، قال هلّا بعثتم معها من يقول :

أتيناكم أتيناكم * فحيّونا نحيّيكم
ولولا الحبّة السمر[٣] * اء لم نحلل بواديكم ؟

ولمّا انبسط ظلّ الإسلام على بلاد فارس وامتزج الفرس بالعرب — ولا سيّما فى العهد العباسىّ — ونقلوا إليهم كثيرا من مظاهرهم وطرائف عاداتهم — حفلت

---

(١) الرفاء الاصلاح من رفوت الثوب اذا أصلحته (٢) عبر النهر جازه وتطلق بمعنى انطلق من بعده (٣) الحبة السمراء الحنطة وهذا مما يقوله أهل مكة لأهل المدينة .

الأعراس بكثير ممّا لم يعرف العرب ، ومن ذلك جمعها بين ألوان من الطعام بلغت فى القرن الثالث مائة لون . وكذلك زهوها بفنون من العزف والغناء هى خير ما عرف حتّى اليوم ، ونثر الزهر بين يدى العروس بل لقد ظهر يومئذ من نثر الذهب واللؤلؤ فى طريقها .

وكان من سنّتهم أن يقدّموا بين يدى العروس فى زفافها جارية قميئة[١] قبيحة المنظر حتّى يبهر من ورائها جمال صاحبتهم ، ولذلك ضربوا المثل فى سوء المنظر وقبحه بسوداء العروس .

وأحفل ما عرف من أعراس العرب ، عُرْس المأمون فى بنائه «ببوران» بنت الحسن بن سهل بفم الصِّلح[٢] من أعمال أواسط العراق .

فقد كان المِهْرَجان شهرا وبعض شهر كان فى خلالها خمسة آلاف زورق تنقل العابرين غدوّا ورواحا ، وهنالك على شطّ دجلة وقف عدد لا يناله الإحصاء من الحبالين والمكارين[٣] يستقبلون العابرين لينقلوهم إلى السرادقات حيث تمدّ الموائد وتقام المآدب . فإذا طعموا نثرت عليهم الدنانير والدراهم ونوافج[٤] المسك وبيض العنبر . أمّا خاصّة الناس من بنى هاشم ومن إليهم من القوّاد والكتّاب والوجوه فقد نثرت عليهم بنادق مسك فيها رقاع بأسماء ضياع وقصور وعبيد وخيل وأشباهها ، فكانت البندقة إذا وقعت فى يد الرجل فتحها فيقرأ ما فى الرقعة فإذا علم ما فيها مضى إلى الوكيل المرصد لذلك فدفعها إليه وتناول ما فيها .

---

(١) قصيرة (٢) الصلح نهر يخرج من دجلة فيروى إقليم واسط وبه سميت فم الصلح وقد فاض هذا النهر مرة فخرب الاقليم (٣) المكارى من كرى النهر استحدث حفره وهو من باب رضى (٤) جمع نافجة . وعاء المسك .

وفى ليلة البناء سارت «بوران» على بساط من الذهب وقد ألقى عليها من كرائم اللآلئ وغوالى الجواهر ما أثقلها وعاقها عن المسير حتّى رفع بعضه عنها . ولمّا انتهت إلى المأمون نثرت جدّتها ألف حبّة من اللؤلؤ وقد أوقدوا تلك الليلة شمعة من العنبر زنتها أربعون منًّا[1] فى بور[2] من الذهب وكان ما أنفق الحسن على حاشية المأمون وخدمه وجنده وقواده وقُصّاده ستين ألف ألف درهم .

إلى ذلك الحدّ بلغت الدولة من الشرف والترف ووفر الغنى وفيض الثراء . وليس ذلك بعزيز على دولة بسطت ظلّها على مناطق الفرس وسواد العراق وريف مصر ومشارف الشام وما إلى أولئك من كلّ سهل مُمْرِع وواد خصيب[3] .

على أنّ الذى ذكرناه من زهو العرب فى أفراحها لم يجاوز السراة المتحضّرين منهم ، لأنّ ذلك كلّه فوق منال الدهماء[4] من أهل البادية وإن كانوا يفعلون من ذلك فى أفراحهم جهد ما تصل إليه أيمانهم .

وهذا الذى نسوقه إليك وصف ظريف وصف به أعرابىّ هبط إحدى قرى الشام عرسا رآه فيها ولم يكن له عهد بمثله قال :

دخلت قرية بكر بن عاصم الهلالىّ وإذا أنا بدور متباينة ، وإذا خِصاص[5] بعضها إلى بعض ، وإذا بها ناس كثيرون مقبلون ومدبرون عليهم ثياب حكوا بها أنواع الزهر . فقلت فى نفسى هذا أحد العيدين الفطر أو الأضحى ! ثمّ رجع إلىّ ما عزب من عقلى فقلت : خرجت من أهلى فى عقب صفر وقد مضى العيدان قبل ذلك فبينا

(١) المن رطلان (٢) إناء (٣) خصيب (٤) الدهماء سواد الناس وعامتهم (٥) الخصاص جمع خص وهو البيت من القصب .

أنا واقف أتعجّب اتانى رجل نأخذ بيـدى فأدخلنى بيتا قد نجد(١) وفى وجهه فرس ممهر وعليها شابّ ينال فرع شـعره كتفيه .والناس حوله سمـاطان(٢) فقلت فى نفسى هذا الأمير الذى يحكى لنا جلوسه وجلوس الناس حوله ، وقلت وأنا ماثل بين يديه : السلام عليك أيّها الأمير ورحمة الله قال بجذب رجل بيدى وقال: ليس هذا بالأمير قلت فمن هو ؟ قال: عروس قلت: واثكل أمّاه ! لربّ عروس بالبادية قد رأيته أهون على أصحابه من هنة(٣) فلم ألبث أن أدخلت الرجال علينا آنات(٤) متـدوّرات من خشب، أمّا ما خفّ منها فتحمّل جملا، وأمّا ما ثقل فيدحرج فوضعت أمامنا وتحلّق القوم عليها ثمّ أُتينا بخرق بيض فألقيت عليها ، فهممت أن أسأل خرقة منها أرقع بها قميصى وذلك أنّى رأيت لها نسجا متلاحما لا يتبيّن لها سَدَى ولا لُحْمَة(٥) . فلمّا بسط القوم أيديهم إذا هو يتمزّق سريعا و إذا هو صنف من الخبز لا أعرفه . ثمّ أُتينا بطعام كثير من حلو وحامض وحارّ و بارد فأكثرت منه وأنا لا أعلم ما فى عقبـه من التخم والبَشَم(٦) . فلمّا انتهى الطعام هجم علينا شياطين أربعة أحدهم قد علّق جعبة فارسيّة مفتّحة الطرفين قد شـبكت بالخيوط وقد ألبست قطعة فرو كأنّهم يخافون عليها القُرّ ثمّ بدأ الرابع عليه قميص وسراويل قصيرة بجعل يقفِزُ صُلْبُه و يهُزّ كتفيه ثمّ التبط(٧) بالأرض . فقلت معتوه وربّ الكعبة ثمّ ما برح مكانه حتّى كان أغبط القوم عندى . ثمّ أرسلت إلينا النساء أن أمتعونا من لهوكم فبعثوا بهم إليهنّ و بقيت الأصوات تدور فى آذاننا . وكان معنا فى البيت شابّ لا آنة له فعلت الأصوات له بالدعاء نخرج بجاء بخشـبة

---

(١) تنجيد البيت تزيينه (٢) السماطان الجانبان (٣) الهنة كناية عن خسيس الشىء (٤) آنات جمع غير قياسى لإناء (٥) السدى من خيوط الثوب ما مد منها طولا واللحمة ما مد منها عرضا (٦) التخم ثقل الطعام والبشم سآمته (٧) تمرغ وضرب الأرض بجسمه .

فى يده عينها فى صدرها[1] فيها خيوط أربعة فاستخرج من جوانبها عودا فوضعه على أذنه ثمّ زمّ الخيوط الظاهرة فلمّا أحكمها عرك أذنها فنطق فوهـا فإذا هى أحسن قينة رأيتها قطُّ . فاستخفّنى حتّى قمت من مجلسى فجلست إليه فقلت : بأبى أنت وأمّى ما هذه الدابّة قال : يا أعرابى هذا البَرْبَطُ قلت فما هذه الخيوط قال أمّا الأسفل فزير والذى يليه مثنى والذى يليه مثلث والذى يليه بم فقلت آمنت بالله .

المرأة العربية

١ — ثيابها ٢ — حليها ٣ — بيتها

١ — ثيابها

لبست المرأة العربيّة ضروبا من الثياب مختلفا فنونُها وألوانها ممّا أخرجته مناسج اليمن وعُمَان والبحرين والشام والعراق وما اجتلبته من بلاد فارس وسواحل الهند . ومنها ما رقّ نسجه ، ودقّ خيطه ، وذلك ما تسمّيه بالمُهَلْهَل والمُسَلْسَل والهفّاف ، وما كثف حوكه وضوعفت حواشيه وذلك ماتدعوه بالصفيق والشبيع والحصيف ، ومنها ما لم يخالط لونه لون آخر ، ولهنّ فى ذلك الأبيض والأسود والأحمر والأصفر والأخضر والمُدمّى[2] والمشرق[3] والمفروق[4] ، وما اجتمع فيه اللونان فما فوقهما ومن ذلك

(١) يريد العود الذى يعزف به (٢) ذو الحمرة القانية (٣) ما كان وسطا بين الحمرة والبياض

(٤) ما أشرب بالزعفران .

المشرّب(١) والمخطّط(٢) والمسهّم والمفرّق(٣) والنميق او المنمق(٤) والموشي(٥) والمعين(٦) والمصلب(٧) والمذهب(٨) .

وأمّا مادتها فالحرير ومنه الديباج والدمقس والسندس والإستبرق والخزّ وهو وبر دابّة كالأرنب تدعى بذلك الاسم ويشبه الحرير فى ملاسته ونعومته، ووبر الأرنب وليس كلّ الأرانب يتّخذ وبرها ، وإنّما هو نوع خاصّ يجتلب من شمالي العراق ، والقطن ، والصوف ، والكتّان ، وأشباهها .

وأمّا أنواعها بجمّة العدد ، مختلفة الهيئات ، وأشملها وأعمّها ما أنا سائقه إليك ومنه الشعار والدثار .

أمّا شعارها(٩) — فالصدار والمجول «وهما قميصان قصيران متقاربان لا أكمام لها ودونهما السراويل» .

وأمّا دثارها(١٠) — فالدرع وهو جلباب شامل يحيط بشعارها ، والنطاق ويلبس دون الدرع — وهو ثوب تشدّه المرأة إلى وسطها وترخى نصفه الأعلى على نصفه الأسفل ، ومن فوق هذين البتّ ، وهو ثوب أخضر مهلهل يحيط بجسم المرأة ويقنع جزء منه رأسها ووجهها ، فإن لم يكن البتّ فالحلّة ، « وهى ثوب بظاهره ثوب آخر

---

(١) الذى يتماوج بين لونين (٢) ما أشبهت خطوطه أفاويق السهام (٣) ما اجتمع الى لونه خطوط بيض (٤) المنقوش (٥) ما اجتمع عليه الزخرف (٦) ما أشبهت نقوشه عيون النرجس (٧) ما تقاطعت خطوطه كتقاطع الصلبان (٨) ما حبك نسجه بخيوط من الذهب (٩) ما يلى الجسد (١٠) ما يلى الشعار .

ويغلب أن يكون ظاهر الثوبين رقيقا شفّافا ليظهر مايليه » ، وقد تطلق الحلّة على الثوب المبطّن، وقد ترتدى فوق ذلك بصنف من الأردية ازديانا[1] واختيالا أو تصوّنا واحتشاما .

ومن هذه الأرديةّ العِطاف ، أو المِعطف ، وهو رداء تلقيه على عطفيها وترسله على جسمها ، والرِيْطة وهى ملاءة ذات لِفق واحد أى شـقّة واحدة ، والحَـبِرة وهى برد موشيّ من برود اليمن، وليس هناك وصف أدقّ لها من قول صبيّ لحسّان ابن ثابت لسعه الزِنبار ولم يكن قد عرف اسمه فقال لابيه : ياأبت لسعنى طائركأنّه ملتفّ فى بردى حبرة يمانيّة ، وهى أغلى وأبهج ما ارتداه النساء فى ذلك العهد، وقد شبّه النبيّ صلّى الله عليه وسلّم الحواميم فى القرآن بالحَبِرات تنويها لها وإشادة بفضلها .

ومن أرديتهنّ المِرط ، وهى ملاءة ذات شقّتين، وليس بين أرديتهنّ ماهو أعمّ استعمالا منه ، ومنها اللِفاع وهو رداء تلتفع به وهو "بالشال" أشبه .

ولهنّ غير ذلك الوِشاح ، وهو شقّة مرصّعة بالجواهر تشدّها المرأة بين عاتقيها وخصرها، والسَّرَق ، واحدته سرقة، وهى شقاق من الحرير يلتففن بها، والمطرف وهو رداء مربّع من الخزّ موشيّ بالأعلام .

والعَمَرُ ، وهو منديل الرأس .

وهنالك المِيدع ، وهو ثوب تضعه عند معاناة عملها فتصون به غوالى ثيابها من الابتذال ، وهو شبيه بما ندعوه "بالمريلة" قال الضبّ :

أقدّمه من دون نفسى وأتّقى ❊ به الموت إنّ الصوف للخزّ ميدع

---

(١) من الزينة

ومن أرديتهنّ السِلاب وهو لفاع أسود تعصب به رأسها فى المآتم والمناحات، قال ضمرة بن ضمرة النهشلى :

هل تَخْمِشَنْ إبلى علىّ وجوهها * أم تعصبنّ رءوسها بسلاب

ولهنّ فى هذه المواطن المِسح، وجمعه مسوح، وفيه وفى السُّلُب، جمع سلاب، يقول لبيد :

يَخْمُشْنَ[1] حُرّ أوجـه صِحـاح * فى السُّلُب السود وفى الأمساح

وأمّا ما تحتذيه فالخفّ وهو ما طال من الأحذية ، والقفش أو الكوث وهو القصير المكشوف منها ، والجورب وهو شعار القدمين ، والقفّاز ويتّخذ للقدمين واليدين معا ، وهو أدقّ نسجا وأنضر لونا من الجورب ولذلك شبّهوا به الحنّاء فى اليدين والقدمين فقالوا : تقفّزت الفتاة إذا خضّبت بالحناء .

٢ — حليها

بلاد العرب محفوفة الجنبات بمغاوص اللؤلؤ والمَرْجان، وهى فوق ذلك مستورد للذهب والفضّة والزُمُرُّد والزبَرْجَد والعقيق والياقوت وأشباهها مما يهبط به التجّار من مختلف الأقطار ليبيعوه بلؤلؤ العرب ومرجانهم ، فليس بدعا بعد ذلك أن يتّخذ النساء تلك الجواهر معقد زينتهن ، ومجتلب الأبصار إليهن ، فلم يتجاف عنها إلّا واحدة من اثنتين : امرأة غنيت بفرط جمالها وبديع محاسنها ، فهى تتركها ثقة بذلك الجمال ، واستهانة بأمر الحلى، وتلك التى يدعونها العاطِل أو الغانية، وأخرى امرأة نكبها الدهر، واستلب منها عزيزا عليها ، فهى تطرحها كراهية للزينة وإيذانا بالحداد ، وهى التى يسمّونها المرهاء ، فأمّا من سواهنّ فهنّ جميعا حاليات .

---

(١) يخدشن .

تقلّد الصبيّة العربيّة صنوفا من الحلىّ منذ بدء عهدها وأوّل نشأتها ، وذلك حيث يقول الله جلّ ذكره حاكيا قول جهلة المشركين الذين إذا بشّر أحدهم بالأنثى ظلّ وجهه مسودّا وهو كظيم : "أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ" بجعلوا التنشئة فى الحلية شعار الإناث وموطن الكناية عنهنّ .

أمّا ماعقدت الخناصر عليه من صنوف حليهن ، وضروب زينتهن ، فذلك الذى أورده عليك :

فهنالك «التاج» أو «الإكليل» وهو عصابة مرصّعة بالجواهر تحوط جبين المرأة ، «والقرط» وهو ماعلّق فى أسفل الأذن ، فأمّا ماعلّق فى أعلاها «فالشَّنْف» ، والحِبّ وهو القرط من حبّة واحدة ، ويسمّى الخيط الذى يصل بين القرطين «بالعقاب» ، «والخُرص» الحلقة من الذهب أو الفضّة فى أذن الصبىّ والصبيّة والمرأة ، هذا ، ويغلب على القرط أن تعلّق به جوهرة أو لؤلؤة ، وقد ضربوا المثل بقرطى مَارِيَةَ ابنة ظالم بنِ وهبٍ الكِنْدىّ زوج الحارث الأكبر الغسّانىّ ملك الشام ، وفيهما درّتان كبيضتى الحمام لم ير الراءون أعجب منهما ولا أوضأ ، وقد توارثهما نساء الملوك من بعدها حتّى كان مآلها إلى فاطمة بنت عبد الملك ، وكانت زوجا لعمر بن عبد العزيز قبل أن يلى الخلافة ، فلما وليها قال لها : إن أحببت المقام عندى فضعى القرطين فى بيت مال المسلمين فصدعت بأمره ، فلم يزالا فى موطنهما من بيت المال حتّى انتقض الملك الأموىّ فذهب خبرهما .

ومن أمثالهم : أنفس من قرطى مارية ، يضربونه فى كلّ غال وعزيز عليهم ، وقولهم : آتيك بما شئت ولو بقرطى مارية ، قال قائلهم :

يأيّها الملك الذى * ملك الأنام علانيه
المال آخذه سوا * ىوكنت عنه ناحيه
أنّى أؤدّيه إليـ * ـك ولو بقرطى ماريه

وهنالك «القِلادة» وهى ما يجعل بالعنق ويسمّى موطنها بالمقلد، وأنفسها ما كان من اللؤلؤ وحده أو مفصّلا مع غيره من الجواهر، ومنها الزمرّد والزبرجد والياقوت والمرجان، وقد يضاف إلى ذلك الشَّذْر ، وهو حبّات من الذهب ، والجمان وهى لآلئ من الفضّة ، وهم يسمّون اللؤلؤة التى توسّطت حبّات العقد بالواسطة .

« والتِقصار » أو « المخنقة » قلادة لاصقة بالعنق .

وتسمّى الأهداب المتدلّيـة من القلادة على الصدر « بالسُموط » ، وواحدها سِمط ، والسمط أيضا الخيط ينظم فيه اللؤلؤ وغيره .

«والطوق» حلى يحيط بالعنق ويغلب أن يكون ذلك للأطفال .

«والسِخاب» قلادة من قرنفل أو ما يشابهه، ويغلب أن تكون للأطفال أيضا .

«والسَّلْس» نظم ينظم من الخرز، وللخرز صنوف جمّـة ، أجملها وأحبّها الخرز اليمانى وهو صنف من الخرز مُحلًّى .

«والوِشاح» وهو خيطان من الجوهر منظومان مخالف بينهما معطوف أحدهما على الآخر .

«والسِوار» أو « الأسوِرة » ، وهو نطاق المِعصم ، وهو من خصائص الحرائر وفى أمثالهم : لو ذات سوارٍ لطمتنى .

و«المعضد» أو «الدُمْلج» طوق العضد ، وهو شبيه بالسوار لليد .

و«الخاتم» و«الفَتَخ» ، وأولها ماله فصّ ، والثانى ما لا فصّ له ، وكلاهما يلبس فى أصابع اليدين والرجلين معا .

و«الخلخال» ، وإنّما يطلق على ماله رنين ، فإن لم يكن له رنين فهو الفتخ فإن غاص فى الساق فهو الخَـدَمة ، وعند العرب صنف من الحلىّ يصاغ مجوّفا ويحشى بالطيب ويسمى ذلك «الكبيس» .

ويسمّى صوت الحلى «الوسواس» أو «النقنقة» .

و«التميمة» خرزة تعلّق فى عنق الصبىّ أو الصبيّة أو خيط تعلّق فيـه التعاويذ بزعم أنّه يدفع عنهم الآفات .

ومن لواحق الزينة عندهنّ بل من أصولهـا ودعائمها الطيب وهو زينة العرب جميعا ، رجالا ونساء وأطفالا .

والطيب عندهنّ على صنفين : أعواد يتبخّر بها ، ودهن يدهن به .

فمن الأوّل الصندل ، والساج، واللبنى — وهو شجر يسـيل منه لبن كالعسل فى طعمه ، والعود والندّ — وهو المسـك يعجن بالعود ، والرند — وهو شجر ذكىّ الرائحة .

ومن أزهارهنّ الآس ومنه يعتصر دهن يتّخذ للتطيب .

ومن الثانى العنبر والمسك والغـالية وهى أذكى صنوف الطيب عندهنّ وتتّخذ من المسك يعجن بالعنبر والبان ، فأمّا البان فشجر يسمو ويطول فى استواء وورقه كورق الأثْل وثمرته كقرن اللوبياء ولها حبّ يعتصر فيخرج منه ذلك الدهن .

على أنّ هنالك من العرب ، وأخصّهم أهل البادية ، من يتواصون باطّراح الطيب وترك التضمّخ به ويرون فى الماء غناء عنه ، ومن ذلك ما يقول الحارث ابن كعب المِذحجى فيما يوصى به بنيه : وتزوّجوا الأكفاء ، وليستعملن فى طيبهنّ الماء .

٣ — بيئتها

لم تكن بيوت العرب على سواء فى تكوينها ونظامها ومادّتها ، فهى تختلف باختلاف مواطنها وأقدار ذويها ، فأهل البادية لحاجتهم إلى النُجعة ، واعتزامهم الرحيل ، وتأثّرهم مساقط الغيث ، ومنابت الكلأ ، كانت بيوتهم بحيث يسهل تقويضها ، ومتاعهم بحيث يحتمل حمله ، فلم يجاوزوا به مواطن الحاجة ، وسِداد العوز .

فأمّا بيوتهم فأكثرها خيام تضرب ثمّ تطوى ، وقلّ أن كانت من الحجر أو اللبن ، وهى من حيث هذا وذلك على عشرة أنحاء : خِباء من صوف ، وبِجاد من وبر ، وفسطاط من شعر ، وسرادِق من قطن ، وقَشّاعة من جلد ، وطِراف من أدم ، وحظيرة من شذب ، وخيمة من شجر ، وأقنة من حجر ، وقُبّة من لبن ، ومثلها فى ذلك كمثل ما أحاط بها من سهل وجبل وجوّ وأرض وسماء ، غير أنّ أشرافهم لغدوّهم على حواضر البلاد ، وغشيانهم مجالس الملوك ، كانوا يتأنّقون بعض الأنقة فى بيوتهم ، وينقلون إليها من تلك المظاهر ما لا تنبو عنه طباعهم ، وربّما جمع الرجل بين هذه البيوت كلّها أو بعضها ليتّخذ منها مأوى لضيفانه ، ومثوى لعشيرته ، وحظيرة لماشيته ، ومجلسا لنسائه ، ومهبطا لسمّاره ،

وكانت للنساء مجالس يجتمعن فيها فيتناقلن الحديث، ويتجاذبن أطراف الكلام، كما كانت للرجال أندية يتسامرون فيها ويتشاورون ، وذلك ما يراد من قول عمرو ابن كلثوم فى وصيّته لأبنائه حيث يقول : وأبعدوا بيوت النساء عن بيوت الرجال فإنّه أغض للبصر .

أمّا المدن فمستقرّ الدور والقصور ، وهى لا تقلّ فى شىء عمّا سواها فى مختلف الأقطار والأمصار ، وبينها أبدع ما وضعته الأيدى وأثمرته العقول ، ففى اليمن غُمدان وظَفَار وأشباههما ، وفى العراق الخَوَرْنَق والسَّدِير وأضرابهما ، وفى الشام السويداء وقصر الغدير ونظائرهما ، وفى تَدْمُر وتيماء الرِواق الأعظم والأبلق الفرد وأمثالها ، وفى كلّ مدينة من القصور الشم ، ما لا تناله العُصْم ، ومن دونها قصور لاتدانيها سناء ولا بناء ، على أنّ لها نصيبها من جلال وجمال ، ومن ذلك تعلم أنّ بلاد العرب لاتقلّ فى بيوتها عن كلّ بلد مُشرق العهد، عريق المجد، بعيد الأمد .

أمّا أثاثها ومتاعها فإنّى ناقل لك أعمّه وأهمّه، ففيها من الفرش «الحصير» ومنه المنمّق المنقوش ، وفى النساء صوانع خصصن بتنميق الحصير ، قال النابغة :

كأنّ مجرّ الرامساتِ[1] ذيولها * عليه حصير نمّقته الصوانع

و«البساط» وهو كلّ شىء بسط ليجلس عليه ، ومن البسط «الرفرف» وهى بسط خضر، واحدتها رفرفة ، و« الزرابى » جمع زَربىّ ، وهى بسط بديعة الرواء ، لها خَمْلٌ[2] ناعم دقيق ، وإنّما سمّيت بذلك تشبيها بالزربىّ من الزهر ، وهو نبت يجمع بين الصفرة والبياض ، و« الطنافس » جمع طُنْفُسة ، ومثلها كمثل الزرابى

(١) الرياح الدوافن للآثار .
(٢) هدب .

فى نحماها و إن كانت دونها ، فى رقّة نسجها ، ورواء منظرها ، و « العبقرِىّ » جمع عبقريّة ، وهى الطنافس الثخان ، أو البسط الموشية من الديباج أو أبدع الزرابىّ ، و « النمارق » ، جمع نمرقة ، ومنها وسائد و بسط وهى جميعا ذات وشى مرقوم وقد ذكر الله جلّ ذكره تلك الصنوف من البسط فى القرآن فى سياق وصف الجنّة ليصوّرها بذلك للعرب على أبدع ما يفهمون، وأحبّ ما يعلمون .

أمّا ما على الفراش من المقاعد فمنه «الحشايا» ، واحدته حَشِيّة ، وهى مقاعد محشوّة تبسط على الأرض للجلوس وفوق السرر للنوم ، وقد يبالغون فى حشوها فيتّخذونه ريش النعام ، فإذا ازداد حشوها وارتفع سمكها فهى «الوشائر» ؛

وعندهنّ الحَجَلة وهى غرفة العروس تزيّن بالفرش والأسرّة والستور ، وبها «الأرائك» ، واحدتها أريكة ، وهى شبيهة بالوشائز ، غير أنّها أرفع وأرقّ وأبهج ، ومن أجل ذلك اختصّوا بها غرفة العروس .

وأمّا الأسرّة فصنوف شتّى ، وأوضعها ما اتّخذ من سعف النخل ، وأعزّها ما كان من العاج ، وذلك يقول فيه القائل :

والله للنّوم على الديباج * على الحشايا وسرير العاج
أهون ياعمرو من الإدلاج[١] * وزفرات البازل[٢] العجعاج[٣]

ولهنّ غير ذلك « الكِلَل » ، واحدتها كِلّة ، وهى ستور رقيقة تقى المستور بها البعوض ، وموطنها فوق السرر ودونها .

وهنالك «الحلس» وكنّ يضعنه تحت الفراش بينه وبين الأرض ، ويقابله «النمط» وهو ظُهارة الفراش .

---

(١) السير فى أوّل الليل (٢) الرجل الكامل فى تجربته (٣) النجيب المسن من الخيل .

أمّا جدران الغرف وحيطانها فكنّ يشددن عليها « النجود » ، وهي ستور منمّقة ذات صور، تشدّ على جدران الغرف لتزدان بها .

ولهنّ ما يحفظن به حُرّ المتاع ، ومن ذلك الصندوق والخِزانة ، والجُوالق ، وبعضها قريب من بعض ، فأمّا صندوق الثياب خاصّة فهو الصِوان ، وفى الغرفة المرآة ، والمسرجة وموضعها فوق المنارة ، وما يشتعل فيها هو السراج ، والقنديل وتصله بسماء الغرفة سلسلة تدخل فى عراه ، وكلا المسرجة والقنديل تضىء فيه «الذُبالة» ، وهى فتيلة تستق من الدهن ، وأكثرما يكون دهن المصباح من الزيت ، وقد يتّخذ من السمن .

تلك هى غرفة المرأة العربيّة ، أتينا على خير ما حوت من زينة ، وضمّت من متاع ، حتّى تتراءى بذلك صورة ماعليها وما حولها وحتّى تعلم من كلّ ذلك أنّ المرأة العربيّة وإن أبرّت على كثير ممّن سواها فى فضلها فلم تقصر عنهنّ فى شىء من مادّتها وزينتها .

الكلب

الكلب حيوان أليف وهب من توفر الذكاء والجراءة والميل إلى معرفة ما تجهله نفسه ما حبّبه إلى الإنسان حتّى اتّخذه عضدا له فى كثير من الأعمال . وهو حسن الشكل شديد اليقظة كثيرالانتقال سريع الحركة يحرس صاحبه ويحمى ذماره ، ويذود عن حوضه ، ويتلقّاه بلطف وبشر ، ويعرفه ولو غاب عنه زمنا طويلا ، ويبدى عند لقائه من دلائل الارتياح وأمارات الفرح ما يدلّ على شدّة

الحنين وعظيم الشوق . يفهم بإشارة منه ما يريده ، ويقرأ فى وجهه ما يبتغيه ، يلاعب أولاد سيّده وقد ينالون منه فلا يثير ذلك ثائرة غضبه وانتقامه ولا يهيج من طبيعته ، وربّما عضّهم عضّ المداعبة الذى لا يؤثّر ولا يوجع ، مع أنّ له أضراسا لو أنشبه فى الصخر لنشب ، وأنيابا لو نال بها الحصى أو العظم لفتّه .

الكلب يراه الإنسان فلا يأبه له ولا يعبأ به ، وقد يزدريه ولا يفكّر فيه ، ولو عرف خلائقه التى امتاز بها من سائر الحيوان لعظم فى عينه وكبر عنده شأنه وأنزله من نفسه منزلة المحبّ المكرم . ولم لا يكون كذلك وهو مخلوق يفنى نفسه لبقاء صاحبه ويسهر لينام سيّده . وإن نام فأكثر ما يكون ذلك نهارا ولا يتذوّق النوم إلا غرارا [(١)] . ومن أتمّ صفاته وأكملها الإخلاص والولاء والأمانة والوفاء . قال أبو عبيدة : خرج رجل ينتظر ركاب رجل آخر فتبعه كلب كان له فلمّا بَصُر به خلفه ضربه وطرده وكره أن يتبعه ورماه بحجر فأبى الكلب إلّا أن يتبعه ، فلمّا صار الى الموضع الذى يريد الانتظار فيه ربض الكلب عن كِثب [(٢)] ، وبينما هو كذلك وافاه أعداء له يطلبونه بطائلة [(٣)] لهم عنده وكان مع الرجل جار له وأخوه فأسلماه لأعدائه وهربا عنه فنال منه أعداؤه وجرح جروحا مُثخِنة ورمى به فى بئر غير بعيدة القرار ثم حُثِى عليه التراب حتّى كاد يأخذ عليه متنفّسه ، كلّ ذلك بمرأى من الكلب وهو طورا يهرّ وتارة ينبح متألّما مسترحما متلمّسا الفرصة لتخليص صاحبه ممّا ارتطم فيه . فلمّا زال عنه أعداؤه أقبل إليه الكلب مسرعا وجعل ينحّى التراب حتّى كشفه عن رأسه وعادت إليه الروح ولم يبق منها إلّا حُشاشة .

تباعد عنه جاره وشقيقه * وينبش عنه كلبه وهو ضاربه

(١) قليلا — والغرار نقصان لبن الناقة . وفى الحديث : لاغرار فى الصلاة . وهو أن لا يتم ركوعها وسجودها (٢) الكثب بفتحتين القرب . وقد تبدل الباء ميما فيقال من كثم (٣) الثأر .

و بينما هو كذلك مر أناس فأنكروا مكان الكلب ورأوه كأنه يحفر قبرا فنظروا فإذا الرجل على تلك الحال فأخرجوه حيّا وأدوه إلى أهله . وهذا صنيع يدلّ على وفاء وألفة ومحاماة شديدة ومعرفة وصبر وكرم من غير تعمّل ولا تصنّع .

ومن آيات إخلاصه وجميل وفائه أنّ رجلا غليظ القلب خشن الطبع كان عنده كلب قد بدّله الكبر بقوّته ضعفا و بحركته سكونا و بتَجْواله كلالا وذهبت فائدته وقلّت عائدته ، فرغب الرجل فى إبعاده عنه والخلاص منه يضربه إذا جاء و يغلق الباب دونه والكلب مع ذلك لايبرح مكانا نشأ فيه ولا يفارق صاحبه ، ثم عمد الرجل إلى وسيلة من أقسى الوسائل وأخسّها ذلك أنّه ركب زورقا وأخذ كلبه حتّى وصل به ثَبَج البحر فَشَدَّ وِثاقه وقذف به فى الماء ليتخلّص منه (كبرت قسوة يحلّها الإنسان بالحيوان المسكين) . ألقى الكلب فى الماء فجاهد فى سبيل الحياة حقّ جهاد و بخل بروحه أن تفيض خضوعا لتلك القسوة ، وما زال ينشئ من ضعفه قوّة ومن يأسه رجاء حتّى آتته المقادير[1] بحلّ وَثاقه واقترب من الزورق عسى أن تناله من صاحبه رحمة أو تدركه عليه شفقة فيحفظ عليه حياته و ينتشله من الغرق الداهم . ولكن أبى ذلك الرجل إلّا تماديا فى القسوة وإرهاقا للحيوان المسكين وإغراقا ، وصار يبعده عنه كلّما قرب منه والكلب يدفعه الرجاء فيطفو فى الماء مؤمّلا أن يصل إلى المركب . وبينما الرجل فى هذا العمل والكلب يسبح فى بحر من الأمل زلت من الرجل قدمه فهوى فى اللجّة ، وعلته الموجة ، وفارق الزورق ، وكاد يغرق ، فأبصره الكلب من الموت

---

(١) آتته وافقته وطاوعته .

قاب قوسين أو أدنى ، فما تلكّأ فى مساعدته ، ولا تهاون فى معاونته ولا ونى عن نجدته ، ودفع بنفسه إليه ، وتقدّم بين يديه ، وأمسك ثيابه ونجّاه ، ونسى له ما قدّمتْ يداه ، ولولا الكلب لكان من المغرقين .

وللكلب أعمال جمّة الفوائد ، جليلة المنافع ، منها الصيد وقد يصيد الكلب بنفسه فيكلّبه[1] صاحبه ويعوّده ذلك من صغره ، حتّى إذا ما اشتدّ ساعده أرسله إلى الصيد فيمسكه عليه . وقد زعم أصحاب الصيد أن ليس فى الجوارح شىء أجدر أن يمسك على صاحبه ولا يمسك على نفسه من الكلب . وأحسن هذا النوع الكلاب السّلوقيّة[2] وقد يساعد صاحبه على الصيد فيخرج معه فى يوم الأرض فيه مغطّاة بالجليد قد تراكم عليها طبقا عن طبق وربّما ضربتها الريح فيعود كلّ طبق منها وكأنّه صفاة[3] ملساء لا تثبت عليها قدم إلّا بالتثبّت الشديد ، والجهد الجهيد ، وذلك الصيّاد العاقل ، والإنسان الكامل ، لا يدرى أين جحر الأرنب ، ولا موضع كِناس الظبى ، ولا مكمن الثعلب ، ولا غير ذلك من موالج وحوش الأرض ، فيتخرّق[4] الكلب بين يديه وخلفه وعن يمينه وشماله ويتشمّم ويتبصّر ولا يزال كذلك حتّى يقف على مواضع الفريسة فيثيرها فيها ، وذلك عمل لا ينهض به راع ولا قائف[5] ولا فلّاح . وإذا أدرك الكلب الصائد فريسته رجع بها إلى صاحبه دون أن ينال منها ويرفق بها بعد إمساكها ويقبل عليه هشّا بشّا بما أتيح له من فوز ، وما أدركه من نصر ، فما أشبهه بالجندىّ المدرّب الذى أشرب قلبه طاعة قائده وحبّب إليه القيام بالواجب واطمأنّت نفسه

---

(١) كلبه تكليبا . علمه الصيد والفاعل مكلب وكلّاب (٢) السلوقية نسبة الى سلوق من أرض اليمن
(٣) صخرة (٤) خرق الارض وتخرقها جابها (٥) الذى يعرف الآثار .

لتأديته ! ! ! فإذا خبا زنده ، وخالفه حظه ، وضلّ فريسته ، قفل راجعا خجلا من صاحبه كأنّما يشعر بتقصير . وهـذا النوع من كلاب الصيد أقوى ما يكون حاسّة شمّ وعليها اعتماده فى عمله .

أمّا كلب الراعى فالحاجة إليه ماسّة ، والضرورة حافزة ، لأنّ قطعان الماشية إن لم تحُطها الكلاب ، كانت نهبة للذئاب ولغير الذئاب ، وأكثر ما يتربّى هذا النوع فى الحقول ونشأ كما عوّده صاحبه من كثرة الانتقال والجولان حول القطيع . وقد يترك صاحبه نائما ويَعسّ بعناية ودقّة معتمدا فى كلّ عمله على حاسّتى السمع والبصر . وهو حذر يقظ إن مرّ بمكان مخصب وَقَفَ القطيعَ فيـه حتّى يرعاه ويمنعـه أن يرعى ما ليس من مرعاه وأن يتلف ما ليس له ، وبالليل لا يهدأ روعه ، ولا يستريح جسده ، من كثرة تجواله ودورانه حول القطيع . فإذا استشـعر خطرا داهمـا نبح ليوقظ الراعى وليجمع إليه الكلاب الأخرى وسرعان ما تلبّى نداءه وتتعاون على عدوّها وتمزّقه إربا إرْبا . وقد يقـاوم كلب الراعى عدوّا أقوى منه وهو الذئب لا طمعا فى إحراز النصر ولكن قياما بالواجب عليه .

وهناك نوع من الكلاب يسمى "سان برنار"(1) وهـذا النوع عظيم الجسم قوىّ العضل يخرق(2) ذلك المكان الثلجىّ حاملا المـاء أو المشروبات الروحيّـة أو الأغطية الصوفيّة ويقـدّم ذلك إلى المقرورين الذين نال منهم البرد القارس فذهبت قوتهـم وضعفوا عن متابعة السير وجمد الدم فى عروقهم فأشرفوا على الموت . وقد يتّخـذه المقرور مطيّة يعبر عليها ذلك المكان فيجد منه مركبا ذلولا ، ويرى فيه خير ناصر ومعين .

---

(1) اسم مكان فى جبال الألب بين سويسره وإيطاليا (2) خرق الأرض جابها وبابه ضرب .

وإذا وجد مقرورا فاضت روحه رجع إلى قوم يفهمون منه وأشار إليهم بما رأى فيتبعونه إلى مكانه ويدلّهم عليه وهم يتولّونه ويقومون له بما يجب على الإنسان للإنسان. وهذا النوع ينقذ من الغرق فى البحار والأنهار ويستخدم لذلك، فإذا رأى مشرفا على الغرق رمى بنفسه فى الماء واحتمله أو جرّه من ثيابه فينجيه. وهذه المخاطرة بالنفس قد يضنّ بها الإنسان وإن فعلها مرّة منّ بها ثم تشحّ نفسه أن يفعل ذلك مرّة أخرى وتسمعه يقول: «ما كلّ مرّة تسلم الجرّة».

أمّا الكلب المتّخذ لحراسة المنازل أو الحدائق فقد حرم كثيرا من حريّة تمتّع بها نوعه، ذلك أنه يسلك مدى النهار فى سلسلة، وإذا أطلق سراحه ساعة من نهار فذلك لعمل آخر يكلف القيام به إذ يحضر البريد وينبعث بالرسائل من مكان إلى مكان آخر ويصحب سيّده فيحمّله من أشياء المنزل ما يقدر عليه. وهو فى الليل يبيت طليقا ولكنّه بالأسير أشبه لأنّه لا يغادر البيت ولا الحديقة.

وفى بعض البلاد يستصحب الصانع المعدّن كلبا يهديه الطريق المستقيم ويجنّبه الوعر، وهذا النوع يدرك حاجة صاحبه إليه فيلازمه كظلّه ولو عرض له كلب آخر وتحرّش به لا يلتفت إليه حرصا منه على خدمة سيّده، وإذا جاء الليل ونام سيّده على فراش بؤسه بات ليله حارسا إيّاه فهو ملازمه فى السرّاء والضرّاء حتّى بعد الموت يلازم قبره أيّاما ولا يفارقه إلّا لحاجة يسدّ بها رمقه. وقد استخدمت الكلاب فى أعمال شتّى فقامت فى الحروب بحراسة الخنادق ونقل البريد وغير ذلك. وكانت قديما تجرّ العجلات الصغيرة التى يركبها صغار الأولاد ومعهم مربّيتهم، كما كانت تدير آلات صغيرة مدّة من النهار وتتولّى كور الحدّاد وتساعده. وهذه أعمال شاقّة يجب ألّا يقوم بها

ذلك الحيوان وهناك ما هو أقوى منه وأجدر بالقيام بها ، لذلك منعت جمعيّة الرفق بالحيوان كثيرا من ذلك لما فيه من القسوة والإيلام .

وقد يصاب الكلب بنوع من الجنون يسمّى «الكَلَب» وهو داء يقتل الكلاب وتقتل به كلّ شيء عضّته إلّا الإنسان فإنّه يعالج فيسلم . فيجب التحرّز منها إن أصيبت به ليؤمن شرّها وتحمد عاقبة اقتنائها .

آثار العلم فى الحضارة

كان الإنسان فى عصور الجهالة تائها فى بيداء الضلالة يضرب(١) فى أودية من الأوهام والتُّرّهات(٢)، ويخبط فى ظلمات بعضها فوق بعض، فكانت أحواله مضطربة وأموره ملتوية(٣) وكان أقرب إلى العجماوات . فلمّا أشرق عليه نور العلم وضح له الطريق وذلّلت له العقبات التى طالما اعترضته كلّما حاول الخطو نحو منازل السعادة، فأصبح بفضل العلم يرتع فى بحبوحة(٤) الهناءة ويرقى صُعُدا فى سلّم الحضارة ويأتى بالمدهشات من المخترعات التى يوطّد(٥) بها بناء الحضارة ويقوّى بها دعائم العمران ويخفّف بها من متاعب الحياة التى رزح(٦) تحت أعبائها حينا من الدهر . فللعلم أثر عظيم فى رقىّ النوع الإنسانىّ وانتشار رخائه . وإنّ من يحاول معرفة آثار العلم فى حضارة العالم لجدير به أن يوازن بين أحوال الأمم والأفراد فى العصور المظلمة وعصور العلم

---

(١) يسافر (٢) الترهة الباطل وقيل ان الترهات أصلها (القفاو) ثم نقلت الى الأقاويل الخالية من الحقائق ومثلها الأبطولة واحدة الأباطيل والخرافة على رأى فى القاموس (٣) صعبة (٤) وسط (٥) يثبت (٦) هزل — يقال رزح البعير ألقى بنفسه من الاعياء والهزال .

المشرقة ، فعند ذلك يتجلّى أمامه فضل العلم على أكمل وجه . فبالعلم توصّل الإنسان إلى استخدام البخار فى كثير من أعماله فعبر به البحار ، وقطع الفيافى[١] والقفار ، واجتاز السهول والأوعار[٢] ، لا يخشى لافح الحر ، ولا قارس البرد ، ولا يرهب عادى الوحوش ولا صولة الفتّاك ، وارتبط العالم برباط لا تنفصم عراه ، وامتزجت مدنيّة الشرق بمدنيّة الغرب وتبادل الناس المنافع وتعارف القاصى والدانى ، وانتشرت المعارف بسهولة فى أنحاء الأرض وسهل نقل المتاجر والتجّار ، وعمّ العمران كثيرا من المجاهل[٣] التى ظلّت أمدا طويلا وهى خراب يباب[٤] تأوى إليها الوحوش الضارية ، والهوامّ[٥] القاتلة ، ولولا العلم لظلّ العقل الإنسانىّ محجوبا بحجاب كثيف من الجهل ولظلّت عرا التعارف منفصمة ، وأبواب المعارف مُوصَدة[٦] ، ووسائل المعيشة مضطربة ، ولخفى على الناس كثير من عجائب الكون وآيات الخالق الدالّة على وحدانيّته وقدرته .

من كان يظنّ أنّ الإنسان يستطيع أن يحلّق فى جوّ السماء ويزاحم النسور فى الجِواء[٧] ، ويغوص فى أعماق المحيط فيهيج الأسماك فى مسابحها ، ويتسلّق شاهق الجبال فيروّع العُصْم[٨] فى معاقلها ، ويجتاز الصحارى المحرقة ، والبيد[٩] المهلكة ، فى القرّ[١٠] والقيظ لا يخشى هلاكا ولا يخاف عدوانا بعد أن كان السفر عنده قطعة من العذاب لا يلجأ إليه إلّا مكرها ، ولا يقدم عليه إلّا مخاطرا بماله وحياته ؟ وقد استخدم الناس البخار فى حرث الأرض وكرْى[١١] الأنهار والجداول وتعبيد[١٢] الطرق وحصد الزرع وغير ذلك ممّا عاد على

---

(١) جمع فيفاء وهى الصحراء (٢) الوعر الصعب وزنا ومعنى (٣) ج مجهل وهو المكان المجهول وضده المعلم (٤) دار يباب لا ساكن بها (٥) الهامة ماله سم يقتل (٦) مغلقة (٧) جمع جو (٨) جمع أعصم وهو التيس الممتنع فى الجبل (٩) جمع بيداء وهى الموضع المهلك الذى يضل سالكه ولا يأمن الهلاك (١٠) البرد — يقال قر المكان قرا برد والاسم القر بالضم (١١) حفر (١٢) تمهيد وتذليل .

الإنسان بالراحة وأبقى عليه صحّته وأحواله وأوقاته . وبالعلم اهتدى الناس إلى الكهرباء فأمكن الإنسان أن يخاطب أخاه بالبرق السلكىّ والأثيرىّ وأحدهما فى أقصى المشارق والآخر فى أقصى المغارب ، لايحول دون ذلك جبال شامخة ، وصحار شاسعة وبحار زاخرة[1] بعد أن كان البريد ينقل على ظهور الإبل تقطع به الأقطار فلا تصل إلى أصحابها إلّا بعد أيّام طوال بل شهور عدّة ، وقد يسطو عليها قطّاع الطرق فيسلبون البريد مامعه ، ولا تسل عمّا يعقب ذلك من اضطراب الأمور وزعزعة أركان الأمن وضيق سبل التجارة وقلّة أسباب الرزق وتقطّع أوصال العالم . وبالكهرباء أمكن الناس أن يديروا أضخم الآلات لإرواء أرضهم أو طحن غلالهم أو إجادة مصنوعاتهم . فقد استنبط العلماء الكهرباء من حركة مياه "الشلّالات" بلا كبير عناء فأغنت الناس عن كثير من الوقود الذى كانوا يشترونه بالمال الكثير . ولقد كان لشلّال "نياجرا" بأمريكا أثر عظيم فى إسعاد أهلها وتنمية ثروتهم ورواج مصنوعاتهم وكثرة إنتاجهم . وقد مرّت أزمنة طويلة على الشلّالات والناس عنها معرضون ، لا يفكّرون فى الاستفادة بما أودعته من قوّة عجيبة ، وأنّى للجاهل أن يهتدى إلى عجائب الكون ويعرف كُنه[2] أسراره "هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ؟ " وبالكهرباء اخترعت المراكب الكهربائيّة التى تشقّ المدن غادية رائحة فتريح الإنسان من عناء طالما كان يشكوه فلا يجد عنه محيصا[3] . فبالمراكب الكهربائيّة ازداد عمران المدن واتّسعت نواحيها واستتبّ[4] الأمن فيها . وبالكهرباء أنار الناس منازلهم فأصبح ضوؤها بهجة المدن وزينتها . وقد استطاع العلم أن يستخدم الكهرباء فى اختراع المسرّة فتيسّر للناس أن يكلّم بعضهم بعضا على بعد الشُّقّة[5] كأنّهم متجاورون

---

(١) مملوءة وطاميه (٢) حقيقة (٣) معدل ومفر (٤) تهيأ واستقام (٥) المسافة .

يجمعهم مجلس واحد . وقد اخترع العالم "ماركونى" الإيطالىّ مِسرّة أثيريّة يتيسر بها أن يخاطب المرء أخاه ولو كان أحدهما راكبا قطارا والآخر جالسا فى بيته . حتّى قيل إنّ جماعة سافروا فى يوليه سنة ١٩٢٠ بالباخرة "فكتوريا" من إنجلترا إلى أمريكا فسمعوا وهم فى عُرْض(١) البحر عزف الموسيقى من إحدى محطّات إنجلترا . وخطب الرئيس هاردنج(٢) خطبة فى مدفن إرْلنجتون يوم ١١ من نوفمبر من سنة ١٩٢١ أذيعت بالمسرّة الأثيريّة وسمعها عشرات الألوف فى نيويورك وسانفرنسسكو وكانت نبرات الخطيب واضحة . وبالعلم تمكّن العالم الفرنسىّ الشهير "باستور"(٣) من كشف جراثيم كثير من الأمراض التى كانت تفتك بالعالم فتكا ذريعا وعرف أطوار نموّها ، فأمكن مكافحة كثير منها بوسائل كثيرة أشهرها التلقيح الذى انقطع به دابر الجُدَرى فى العالم أوكاد . وقد اخترع العالم "رنتجن"(٤) أشعّته المشهورة التى عمّ نفعها وطار صيتها فى الآفاق ، فأمكن الطبيب أن يكشف باطن الجسم وأن يقف على جليّة(٥) المرض ويعرف حقيقة الداء وموطنه فيصف الدواء الناجع ولذلك فضل عظيم على الطبّ لايجحد . وقد اهتدت سيّدة(٦) فرنسية فى الأيّام الأخيرة إلى معدن "الراديوم" الذى اتّخذه الأطبّاء دواء للسرطان ، وجرّب هذا الدواء فكان نجاحه تامّا وظهر أنّه على فرط غلائه وندرة وجوده أنجع(٧) دواء لذلك الداء العُضَال(٨) الذى روّع الإنسان أحقابا طوالا وعىّ(٩) بعلاجه نُطُس(١٠) الأطبّاء .

---

(١) عرض البحر معظمه (٢) رئيس الولايات المتحدة توفى قريبا . كانت الخطبة يوم احتفال أمريكا بالجندى المجهول المنقول رفاته من ميدان الحرب بفرنسا (٣) هو لويس باستور الكيميائى الفرنسى ولد سنة ١٨٢٢ وتوفى سنة ١٨٩٥ (٤) عالم ألمانى اخترع أشعته المشهورة توفى فى سنة (١٩٢٣) وسنه ٧٨ سنة (٥) حقيقة (٦) مدام (كيورى) كشفت الراديوم سنة (١٨٩٨) (٧) أنفع (٨) الشديد (٩) عجز عنه (١٠) جمع نطيس وهو العالم بالطب كالنطاسى .

وقد أمكن نقل الدم من جسم السليم إلى جسم المريض حقنا فى الأوردة لتقوية الضعاف، كما أمكن فحص الدم وسائر مفرزات الجسم لمعرفة جراثيم الأمراض قبل البدء بالمعالجة ، وسهل استئصال عضو من باطن المريض كالكلية ومزاولة كثير من العمليّات الجراحيّة بدون أن يلقى حتفه [١] ، بل أمكن نقل عضو سليم من حيوان إلى إنسان مريض ، فقد روت الصحف أنّ بعض الأطباء نقل عين أرنب إلى إنسان تلفت عينه وذلك معجزة باهرة للطبّ هدى إليها العلم فما أعظم فضله وأظهر أثره !

وبالعلم انتشرت المراصد الجوّيّة فى جوانب الأرض فأمكن بها معرفة مَظَانّ [٢] الأمطار ومهابّ الرياح والأعاصير ومواطن الزلازل ، فلا تكاد تهبّ عاصفة أو يقع زلزال حتّى تبادر المراصد إلى نشر تفاصيلها مهما بعد مكانها . وبالعلم تحكّم المهندسون فى مياه الأنهار التى كانت تذهب سُدًى فى ماء البحار والمحيطات فوضعوا لها نظما متقنة وحجزوها وراء السدود "الخزانات" وشقّوا لها الجداول فى طول البلاد وعرضها فأحيَوْا بها أرضا مَواتا [٣] لولا العلم لظلّت جرداء مقفرة .

وإنّ من يوازن بين حال المدن فى العصور المظلمة وحالها اليوم وقد بزغت [٤] شمس العلوم وتبلّج [٥] صبح الحضارة ليرى أثر العلم ظاهرا فى زيادة عمرانها ، ودقّة نظامها وكمال نظافتها ، وضخامة بنيانها ، وكثرة شوارعها ، وسعة ميادينها ، ووفرة وسائل الانتقال بينها وما فيها من أمن وسكينة ، حتّى إن كثيرا من المدن بأوربا «كبرلين» «ولندن» تسير

---

(١) هلاكه (٢) المظان جمع مظنة وهى المعلم أى حيث يعلم الشيء (٣) ماتت الأرض موتانا ومواتا خلت من العمارة والسكان فهى موات تسمية بالمصدر (٤) طلعت (٥) أسفر وأضاء .

فيها المراكب الكهربائيّة تحت الأرض وفوقها وعلى طرق مرفوعة فى الهواء وتملؤها السيّارات غادية ورائحة ولما من كمال نظامها ، وانتشار الشُرَط فيها ، ما يمكن به ملافاة حوادث التصادم والاغتيال التى كثيرا ما أزهقت (١) نفوسا ذهبت ضحيّة سوء النظام .

حقّا إنّ العلم غيّر نظام الحياة ، وفسح للعقل مجال الإبداع والإجادة والافتنان (٢)، وأنهض العالم من همجيّة مظلمة، إلى حضارة مشرقة، ولا يعلم إلّا الله أيقف عقل الإنسان عند هذه الغاية أم يظلّ يأتى بالعجائب والمدهشات ؟

العزيمة

العزيمة هى الإرادة المؤكّدة وعقد النيّة على الأمر وتصميم (٣) المرء فيه من غير أن يجعل للتردّد إلى نفسه سبيلا . وهى خُلُق من أنبل الأخلاق عليها تتوقف سعادة المرء وعلى أساسها يبنى مستقبل حياته ، ومن لا عزيمة له لا يستقيم له أمر ، ولا ينتظم له عمل، بل تراه دائما متردّدا حائرا ينقض اليوم ما أبرم بالأمس . ولا يزال كلّما همّ بعمل من الأعمال يقدّم رجلا ويؤخّر أخرى لا يعلم أيُقدِم أم يُحجِم (٤) حتّى يلتوى عليه أمره، وينكُص (٥) على عقبه، ويقعد ملوما محسورا (٦) : وكم من تاجر زاول مهنة التجارة وجدّ فى سبيلها ما سَلِس (٧) له زمانه، وأقبلت عليه أيّامه، ثمّ خانه الحظّ يوما من الأيّام

---

(١) زهقت نفسه من باب تعب خرجت وأزهقها الله إزهاقا (٢) التصرف فى المخترعات والإتيان بها على فنون شتى وأصله من افتن الفرس لم يستقم على حال واحدة فى العدو (٣) صمم فى الأمر مضى فيه (٤) يصعب (٥) يرجع (٦) ذا حسرة وندامة (٧) سهل وبابه تعب .

لخسر خسارة لا تعدّ شيئا مذكورا إذا قيست بما أصاب من الربح فى أيامه الماضية ، فوهت[1] عزيمته ، وفترت همّته ، وتملكه اليأس فنفض يده من العمل ، وسقط فى هوّة الفقر والشقاء . ولو أنّه إذ كبا[2] به حظّه ، شحذ[3] همّته ، واستحثّ عزيمته ، وكافح الأيام غير هيّاب ولا وكل[4] ، لقرّ بالعافية عينا ، وشرح بالهناءة صدرا : وكم من طالب كان فى طليعة[5] إخوانه همّة ونشاطا ثمّ عثر به حظّه ، فأخفق فى بعض الامتحانات فتشاءم ، وظنّ أنّه مقضىّ عليه بالإخفاق فتكاسل وتراخى فأصبح فى مؤخّرة رفقته بعد أن كان فى مقدّمتهم . ولو أنّه كان قوىّ الإرادة ما حفل بتلك العثرة التى صادفته فى حياته ولاستمرّ فى نشاطه واجتهاده حتّى يتمّ له النجاح .

فالعزيمة هى القوّة التى لا تفلّها[6] الحوادث مهما تتابعت ، والمجنّ الذى لا تؤثّر فيه النكبات ولو توالت . وما من إنسان ذى عزيمة وجّه همّته إلى غاية من الغايات إلّا أدركها وعاد منها بالصفقة[7] الرابحة . وأقرب مثال لقوّة العزيمة أنّا نشاهد كثيرا من الطلبة الذين لم يرزقوا حظّا وافرا من الذكاء ولكنّهم أولو عزم وإقدام لا يزالون يشحذون العزائم ويصلون الليل بالنهار مثابرين على تحصيل العلم حتّى يبلغوا شأوا[8] يجعلهم أعزّة بين أقرانهم ومثالا فى النبوغ يقتدى به : وإنّ التاريخ ليدلّنا على ما كان للعزيمة من الأثر الظاهر فى نهضة الدول وتأسيس الأديان : هذا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم نهض وحيدا يدعو إلى الله قوما ألفوا عبادة الأوثان وتمسّكوا بسنن آبائهم

---

(١) ضعفت (٢) سقط لوجهه (٣) أحدّ (٤) ضعيف كثير الاتكال على غيره (٥) مقدمة (٦) تكسرها (٧) العقد : كانت العرب من عادتهم إذا وجب البيع ضرب أحد المتعاقدين يده على يد الآخر أى صفق ثم استعملت الصفقة فى العقد نفسه (٨) غاية .

الأولين وكان فى طبعهم الأنفة والحمية [1] فتهدّدوه وآذوه وافتنوا فى إساءته، طمعا فى أن يكفّ عن دعوته، وينكص على عقبه، ووعدوه ومنّوه [2] فما فلّ ذلك من عزيمته، ولا أوهى من همّته، بل زاده تمسّكا بأهداب الدعوة، وحرصا على نشر الدين، فذلّت له أعناق الجبابرة، ودخل الناس فى دين الله أفواجا. وهذا بلال [3] بن رَبَاح رضى الله عنه كان عبدا لأبى سُفْيان، فلمّا أسلم صبّ عليه سوط العذاب وتركه للصبيان يسحبونه بحبل فى عنقه طمعا فى ارتداده، فما زاده ذلك إلّا استمسا كا بعروة الدين ومضاء فى إسلامه، وهذا الخليفة الأوّل «أبو بكر الصدّيق» رضى الله عنه قلّد زمام الخلافة بعد وفاة النبى صلّى الله عليه وسلّم فرأى عصا المسلمين قد انصدعت [4] فمن مانع للزكاة، إلى مرتدّ عن الإسلام، إلى مدّع للنبوة، كمسيلمَة الكذّاب. فعوّل على كبح [5] جماحهم وخرج بنفسه لقتال «بنى عَبْس» و «ذُبْيان» فقال له المسلمون نَنْشُدك الله يا خليفة رسول الله ألّا تعرّض نفسك فإنّك إن تُصَب لم يكن للناس نظام، ومقامك أشدّ على العدو، فابعث رجلا فإن أصيب بعثت آخر فقال: لا والله لا أفعل ولأواسينّكم بنفسى. فقاتل القوم حتّى هزمهم وقفل [6] إلى المدينة وما هى إلّا مدّة قليلة حتّى خَفَق علم الإسلام فى أنحاء جزيرة العرب ودان العصاة للمسلمين، وعادوا إلى حظيرة الإسلام، ولولا عزيمة أبى بكر لقضى على الدين الحنيف فى مهده: وهذا «خرستوف كلمب» مرتاد أمريكا نهض والعصور مظلمة، والعقول خامدة، يستنهض الهمم لاستكشاف ذلك العالم الآخر، ونادى

---

(١) الحمية والاستنكاف والاستكبار (٢) وعدوه أمانى كثيرة (٣) هو مؤذن النبى عليه الصلاة والسلام (٤) انشقت والمراد تفرقت كلمتهم (٥) الكبح جذب الدابة لتقف والجماح والجموح الاستعصاء (٦) رجع.

بأنّه عالم عظيم مملوء بالخيرات ، حافل بالبركات والثمرات ، فسخر منه أهل أوربا ، فما ضعفت عزيمته ، بل قابل سخرية القوم بعزيمة الواثق برأيه ، المقتنع بصحّته ، حتّى كلّل مسعاه بالنجاح ، وفاز بطلبته ، وفتح للعالم فتحا عظيما بكشف أمريكا ، وقرن اسمه بها ، فاكتسب مجدا لا يفنى ما تعاقب الجديدان[1] .

فالعاقل من اعتمد على العزيمة ، واتّخذها عضده ، فى جميع أحواله ، وإنّما تقوى عزيمة المرء بالتروّى فى كلّ ما يهمّ به من الأعمال ، والنظر فى العواقب ، والاحتياط لما يتوقّع[2] ، والاهتداء بآراء العقلاء والمجرّبين ، حتّى إذا ما وضح له النهج[3] قصد إلى غايته وهو أمضى من الصارم[4] عزما ، ومصداق ذلك قوله تعالى «وشاورهم فى الأمر فإذا عزمت فتوكّل على الله» وليس من الحكمة أن يندفع الإنسان فى أمره بلا فكر ولا رويّة ولا استعانة بالمشورة والتجارب فذلك هو الطيش المهلك ، والحمق الذميم ، بل الحكمة وسداد الرأى فى التدبّر قبل الإقدام على الأمر ، فذلك أدعى للصواب وأجدى[5] على صاحبه ، وأنفى[6] للضلال ، وأبعد من العثار :

إذا كنت ذا رأى فكن ذا عزيمة * فإنّ فساد الرأى أن تتردّدا

الشجاعة

هى أن يُقدِم الإنسان حيث يكون الإقدام حميدا ، وأن يواجه الشدائد والمفزعات حين يكون ذلك جميلا . وهى فضيلة النفس الغضبيّة ، وعنوان الإرادة الحازمة القويّة وهى ضربان : الشجاعة الجنديّة والشجاعة الخلقيّة .

---

(١) الليل والنهار (٢) ينتظر ويرتقب (٣) الطريق (٤) السيف القاطع (٥) أعود بالفائدة
(٦) أبعد وأدفع للضلال .

١ — الشجاعة الجندية

هى شجاعة الفارس وصدق بأسه عند التحام الحروب واشتجار الأسنّة[(١)]، يركب الأهوال ، ويغشى الشـدائد ، ويخوض الغمرات فى سبيل الذود[(٢)] عن حقيقته[(٣)] ، والاحتفاظ بالراية التى بيده ، تهوى أمامه رءوس الكماة[(٤)] والأنجاد[(٥)]، ويشهد مصارع الفرسان والأبطال ، ويرى الآجال تفترس الآمال ، فلا يزداد إلّا جراءة صـدر ورباطة جأش[(٦)] .

ومن الشجاعة الجنديّة أن ترى الكتيبة[(٧)] نفسها فى ساحة القتال وقد تكاثر عليها الأعداء وقلّ المعين والنصير فتأبى أن تسلّم رايتها وتقع فى ذلّ الإسار ولكنّها تنهض إلى معاقلها[(٨)] ، وتخفّ إلى معاصمها لتمتنع فيها على الأعداء ، وتصبّ منها النـار على المغيرين والمهاجمين ، فإذا سدّ عليها العدوّ الطريق وحال بينها وبين ما تريد وقفت أمامه بأقدام ثابتـة ، ونفوس مطمئنة ، وجالدته[(٩)] مجالدة المستميت الذى لا يطمع فى حياة ، ولا يرضى بذلة ، ولا تزال كذلك حتى تموت أو تظفر حميـدة البلاء ، مشكورة الفعال .

ولقد كان للجنود الإسبرطيين[(١٠)] فى العصور الخاليـة من هـذه الشجاعة حظٌّ وفير ونصيب كبير . واعتـبر ذلك بمـا تقرأ فى التاريخ القديم من أمر ملكهم وجنوده

---

(١) الاشتجار الاختلاف والأسنة جمع سنان وهو نصل الرمح (٢) الذود الدفاع (٣) الحقيقة ما يجب على الإنسان أن يدافع عنه (٤) الكماة جمع كمى كغنى وهو الشجاع المتغطى المتستر بالدرع والبيضة (٥) الانجاد جمع نجد وهو الشجاع الماضى فيما يعجز غيره (٦) رباطة الجأش اشتداد القلب (٧) الكتيبة الجيش (٨) المعاقل جمع معقل كمنزل وهو الملجأ كالمعصم (٩) جالدوا بالسيف تضاربوا (١٠) الاسبرطيون نسبة إلى أسبرطة إحدى مدن اليونان .

فى وقعة الترموبيل[1] وكانت عدّتهم ثلثمائة اشتبكوا فى قتـال مع الفرس المغـيرين على البلاد اليونانيّة، وكان معهم كثيرون من الأحلاف والأولياء من أهل الولايات المجاورة، فخانهم الخائنون من عبدة المـال، وفرّ أحلافهم من وجه القتال، وتدفّقت عليهم الجيوش الفارسيّة وبغتتهم من فوقهم ومن خلفهم وعن أيمـانهم وعن شمائلهم . فمـا ارتاعوا ولا جنحوا[2] إلى فرار ولا صرفوا وجوههم عن القتال ، ولكن ثبتوا وهم يعلمون أنّهم يثبتون للموت واستقبال البلاء، وقاتلوا مستبسلين حتّى تكسّرت رماحهم وفُلّتْ سيوفهم وسقطوا فى ميدان القتال صنديدا إثر صنديد وبطلا بعد بطل، فكانوا بذلك فخرا لبلادهم وموضعا لإعجاب الأبطال من أوليائهم وأعدائهم .

أمّا العرب فقد كان قسطهم من هذه الشجاعة أوفى وأتمّ. كانوا يخوضون ميادين الحروب بثغور باسمة، ورءوس عالية، وكانوا يتفاخرون بالموت فى الهيجاء، ويتهاجون بالموت على الفراش : سمع عبد الله حفيدُ العوّام بقتل مصعب أخيه فخطب الناس وقال : « إن يقتل فقد قتل أبوه وأخوه وعمّه من قبل ، إنّا والله لا نموت حتفا[3] ولكن قطعا بأطراف الرماح ، وموتا تحت ظلال السيوف ، وإن يقتل مصعب فإنّ فى أهله خلفا منه » ومن قرأ شـعر العرب وتدبّر ما جاء فيه عرف بعض ما كانوا عليه من بسالة وحماسة وإقدام على المهالك وشغف بخوض المعامع ولقاء الأبطال .

قال عنترة العبسىّ .

---

(١) الترموبيل ممر ضـيق بين جبل "أوتيـا" والمستنقعات الممتدة على شواطئ خليج "ماليا" من بلاد اليونان (٢) جنحوا مالوا (٣) مات حتفا مات على فراشه من غير قتل ولا ضرب ولا غرق ولا حرق .

بَكَرَتْ تخوّفنى الحتوفَ كأنّنى * أصبحتُ عن عَرَض الحتوف بمَعْزِلِ (١)
فأجبتها إنّ المنيّة مَنْهَلٌ * لا بدّ أن أُسْقَى بكأس المنهل
فاقْنَىْ حياءك لا أبالك واعلمى * أنّى امرؤ سأموت إن لم أُقْتَلِ (٢)

وقال سَعْدُ بن ناشِبٍ المازنىّ يفتخر بنفسه .

إذا هَمّ ألقى بين عينيه عزمه * ونكّب عن ذكر العواقب جانبا (٣)
ولم يستشر فى أمره غير نفسه * ولم يرض إلّا قائم السيف صاحبا (٤)

وشجعان العرب كثيرون لايحصون عدّا ، ففى الجاهليّة كان عمرو بن كُلثوم (٥) . وعمرو ابن معد يكرب (٦) . وعنترة العبسىّ (٧) . ودُرَيْد بن الصِّمة (٨) . وزيد الخيل (٩) . وزيد الفوارس (١٠) .

---

(١) بكرت بادرت والحتوف جمع حتف وهو الموت (٢) أقنى حياءك الزميه (٣) نكب عدل ومال (٤) قائم السيف مقبضه (٥) عمرو بن كلثوم — من عرب الجزيرة وهو من شعراء الجاهلية المفلقين ساد قومه وهو ابن خمس عشرة سنة ومات بعد أن عمر طويلا وله المعلقة التى أولها "ألا هبى بصحنك فاصبحينا" (٦) عمرو بن معد يكرب الزبيدى — هو أبو ثور ينتهى نسبه إلى قحطان وكان فارس اليمن المظفر أسلم على يد رسول الله فى رجب سنة تسع ثم ارتد ثم عاد إلى الإسلام وتوفى سنة إحدى وعشرين من الهجرة (٧) عنترة العبسى — هو أبو عمرو بن شداد العبسى وأمه أمة سوداء كان من فحول الشعراء وفارسا من فرسان نجد المعدودين . عاش نحو تسعين سنة ثم مات قبل الاسلام وله المعلقة التى أولها "هل غادر الشعراء من متردم" (٨) دريد ابن الصمة — هو أبو قرة الجشمى من أهل نجد كان شاعرا مجيدا وفارسا بطلا أدرك الإسلام ولم يسلم وقد خرج مع قومه المشركين يوم حنين ظهيرا فقتل وكان ذلك سنة ثمان من الهجرة (٩) زيد الخيل — هو زيد بن مهلهل الطائى سمى بذلك لخمسة أفراس كانت له وهو شاعر مجيد وشجاع معدود قدم على رسول الله سنة تسع وأسلم فسماه النبى زيد الخيل وقد مات محموما بعد انصرافه من مجلس رسول الله (١٠) زيد الفوارس — هو ابن حصين ينتهى نسبه إلى عدنان وهو من فرسان الجاهلية شهد موقعة رأس فيها ثمانية عشر من أولاده فسمى زيد الفوارس .

وفى الإسلام كان أبطال المسلمين علىّ بن أبى طالب . وسعد بن أبى وقّاص ، وخالد بن الوليد ، وقَطَرِىّ[١] بن الفُجاءة ، وشبيب الحَرُورِىّ[٢] ، كانوا جميعا فى الشجاعة أمثلة سائرة وأخبارا شائعة .

٢ — الشجاعة الخلقية

ومنها المروءة والنجدة وهى استهانة الإنسان بما يصيبه من المكاره وما يلحقه من الأذى فى سبيل القيام بواجب تفرضه الرحمة وحقّ تقضى به المروءة .

ومنها أن يجود الإنسان بنفسه ويده ويبذل سعادته وهناءته ليدرأ عن الناس شرّا أو ليجلب لهم نفعا وخيرا . فالأبطال الذين يقتحمون لهيب النيران ليطفئوا حريقا ، والفتيان الذين يرمون بنفوسهم بين الأمواج لينتشلوا غريقا ، والقضاة الذين يتوعّدهم الخصوم فلا يعبئون بالوعيد . ولا يبالون التهديد . ويأبون أن يبرّئوا مذنبا ، أو يطلقوا مجرما ، والأطبّاء الذين يخالطون المرضى فيأسون جراحهم ويعالجون أسقامهم ، ولا يقعدهم عن الواجب خوف الإعداء[٣] ، وفتك الداء ، كلّ أولئك

(١) قطرى بن الفجاءة من أكبر زعماء الخوارج وشجعانهم وشعرائهم قال التبريزى فى شرحه ديوان الحماسة "القطرى منسوب إلى موضع يقال له قطر والفجاءة من قولهم فجأه الأمر يفجؤه فجاءة وفجاءة وهو أحد الخوارج (٢) شبيب الحرورى — أحد أبطال الخوارج الذين قادوا الجيوش لمحاربة الحجاج ابن يوسف الثقفى قال صاحب العقد : وكان شبيب الحرورى يصيح فى جنبات الجيش فلا يلوى أحد على أحد وفيه يقول الشاعر :

إن صاح يوما حسبت الصخر منحدرا   والريح عاصفة والموج يلتطم

ولما قتل أمر الحجاج بشق صدره فاذا له فؤاد مثل فؤاد الجمل (٣) الإعداء إنتقال الداء مثلا من إنسان إلى آخر ومن كلام العرب : إن الجرب ليعدى أى يجاوز صاحبه إلى من قاربه حتى يجرب .

أمثلة عالية للشجاعة المدنيّة الخلقيّة ، وجدير بنا أن ندعوهم أبطالا وأنجادا وإن لم يشهدوا كريهة ولم يقفوا يوما فى مواقف القتال .

وهذه الشجاعة على عظيم خطرها ، وجليل شأنها ، دانية القطوف ، ينال منها الغلام والشيخ حظوظا وافرة ، فلا يمنع منها حداثة ، ولا يحول دونها هَرَم .

زعموا أنّ غلاما صغيرا من غلمان الهولنديّين خرج ذات يوم للنزهة فى ضاحية المدينة ولمّا أقبل الليل وأراد العودة حانت منه التفاتة فرأى صدعا[1] صغيرا فى سدّ من السدود التى يقيمها الهولنديّون عادة لتحجز مياه البحر عن أرض بلادهم المنخفضة ، فتأمّل الصدع فإذا هو يتّسع قليلا قليلا ، وإذا الماء ينحدر فى البطاح والأودية فنظر حوله فلم يجد من يعينه على رأبه[2] ، فخاف إن هو تركه وذهب إلى تنبيه الناس فى المدينة تفاقم الأمر ، فغلب الماء وغرقت البلاد ، فلزم مكانه يفكّر فيما يفعل ، حتّى إذا رأى الثغرة قد اتّسعت وانبثق منها الماء انبثاقا مخيفا جثا[3] على ركبتيه وأدخل يده وذراعه فسدّ بهما الثغرة فامتنعت المياه ، وظلّ المسكين طول ليله على هذه الحال تهطل عليه الأمطار ، وتسقط فوقه الثلوج ، وتعصف به الريح ، وتغشاه أهوال الليل . فلمّا ظهر الصباح ومرّت به السابلة[4] وجدوه جسدا هامدا وذراعه الصغيرة فى مكانها تسدّ الثلمة وتحول بين الماء وطغيانه على البلاد ، فوقفوا أمامه مبهوتين وقد اعترتهم رَوْعَة من جلال الموت ، ودهشة من أعمال الشجاعة . ثمّ حملوه إلى أهله فى إجلال وإكبار ، فانهال عليه والده لثما وتقبيلا ، وكان فرحه بشجاعته وشهامته أكثر من حزنه على فقده .

---

(١) الصدع الشق فى شىء صلب (٢) رأب الصدع أصلحه (٣) جثا جلس على ركبتيه (٤) السابلة القوم المختلفون على الطريق .

ومنها أن يرى الإنسان صبورا فى الشدائد ، جَلْدا فى النائبات، تنزل به الأسقام وتتنابه المحن ، و يرميه الزمن بأحداثه وأرزائه فيقف موقف الأبطال لا يشكو ولا يجزع ولا يعمد إلى حيلة الجبناء الرعاديد فيبخَع نفســه ، ويُزْهِق روحه بيده ، ليفرّ من متاعب الحياة ، ويخلُص من تكاليفها وأكدارها . تلك «وايم الله» حيلة دنيئة ، وفعلة شنيعة ، يلجأ إليها ذوو الهمم الصغيرة والعزائم الخائرة . وإنّما الشجاع من إذا نزلت به المصائب ، وتناوبته المكاره ، لم يضق بها ذرعا ، بل يقف لها وِقفة البطل المقدام يكافحها ويدافعها حتّى تنقشع غمّتها ، وتنجلى ظلمتها ، ويحوّل حالها من شدّة إلى رخاء ، ومن عسر إلى يسر .

وما أشجع البائس الفقير تراه كلّ يوم وساعة يكافح ويناضل فى طلب الرزق والتماس القوت ، يستسهل الصعب من الأعمال ، ويستهين بما يلاقيه من الشدائد والأهوال ، فى سبيل القيام بمــا وجب عليه لأولاده وعياله ؛ تراه كلّ يوم وهو مقبل على عمله متجلّد صابر لا يسبّ الدهر ولا يشكو صروف الزمان ، ينقضى يومه فى تعب ونصب فيودّعه وداع الصديق الوفىّ ويستقبل يوما جديدا بعُدّة جديدة من صبره وتجلّده ، فأىّ شجاعة أكبر من شجاعته ؟ وأىّ فضيلة تفوق فضيلته ؟

والجلّد فى الشدائد خلق من أخلاق العرب حتّى إنّهم ليفخرون بالصبر عند نزول المصائب واشتداد الزمان ؛ قال قائلهم :

فلا أنا يأتينى طــــريف بفرحة * ولا أنا ممّــا أحْدَثَ الدهرُ جازع[1]

أتجزع ممّــا أحدث الدهر بالفتى * وأىّ كريم لم تصبه القوارع ؟[2]

---

(١) طريف جديد (٢) القوارع الدواهى الفاجئة .

ومنها الصراحة وهى الجرأة فى الرأى والحرّيّة فى إظهار الضمير والإبانة عن المقصود إبانة خالصة من شوائب الرياء والملق : يذهب الرجل مذهبا أو يرى رأيا فيصرف الهمة إلى تمحيصه وتحقيقه ، حتّى إذا ما رأى الأدلّة عليه قائمة والحجج ناهضة رفع الصوت به عاليا ، ودعا الناس إليه جهارا ولو كان فيه ما يخالف مألوفهم وما جرت به العادة بينهم ، لا يبالى سخرية الساخرين ولا غضب الغاضبين ، ولا يأبه لما قد يصيبه فى ذلك من أذى وشرّ ما دام يعتقد أنّ الحقّ فى جانبه وأنّه ما قصّر فى مراجعة الفكر ومطالعة العقل ؛

إذا بلغت الصراحة بالمرء هـذه الغاية وكان استهزاء الناس به وانحرافهم عنه وغضبهم عليه من أجل مذهب ذهب إليه ورأى أقام عليه لا يضرب فى صدر عزيمته ولا يحيد به عن عقيدته فقد وصل من الشجاعة إلى غاية ليس وراءها غاية .

أمّا الذين يرون فسادا فيما عليه الناس من دين أو سياسة أو أدب ، ويرون طرق الإصـلاح جليّة ظاهرة فيكتمون آراءهم ويلتزمون الصمت والسكوت خوفا من إغضاب أمير أو حبّا للتقرّب من كبير أو رغبة فى الإبقاء على صديق فهم الجبناء الضعفاء ذوو الهمم الصغيرة ، والنفوس الضعيفة .

وأنزل من هؤلاء وأحطّ أخلاقا من يرون الرأى فلا يكتفون بكتمانه ولا يقنعون بالصمت بل يجارون العامّة فى الاعتقاد ، ويسايرون الجمهور فى الرأى والفكر فيقولون مالا يعتقدون ويظهرون غير ما يبطنون ، أولئك هم المنافقون المراءون الذين يسيئون إلى أنفسهم وإلى الناس ويسجلون العار والخزى على الأمّة والبلاد .

وكتب التـاريخ والآداب مفعمة بأخبار الأبطال الذين بذلوا أموالهم ودماءهم فى سبيل حق يؤيّدونه أو باطل يخذلونه . وفى مقدّمة هؤلاء الأنبياء والرسل صلوات الله عليهم ، فكم أُوذوا ، وكم صبروا على ما أصابهم ، وكم جاهدوا فى سبيل الحقّ وإعلاء كلمته .

وقد كانت الصراحة فضيلة سائدة وخلقا راسخا فى العرب جاهلية وإسلاما . كانوا يحبّون الصراحة ويألفون الحرّية يجْهَرون بما يعتقدون، حتّى لقد كان الرجل منهم يعيب الخليفة أو الأمير فى وجهه ، ويناقضه فى رأيه ، لا يخشى بأسا ، ولا يخاف عقوبة فقد نازع مرْوان بن الحكم عبد الله حفيد العوّام عند معاوية فكان هوى معاوية مع مرْوان فقال عبد الله : « يا معاوية إنّ لك حقا وطاعة وإنّ لك بسطة وحرمة فأطع الله نطعك ، فإنّه لا طاعة لك علينا ما لم تطع الله ولا تطرق إطراق الأفعوان فى أصول الشجر » .

واستشار معاوية الأحنف بن قيس فى استخلافه يزيد فقال : «إن صدقناك أسخطناك وإن كذبناك أسخطنا الله، فسخط أمير المؤمنين أهون علينا من سخط الله» فقال له : صدقت .

وكان لنساء العرب من هذه الفضيلة مثل حظّ الرجال . واعتبر ذلك بما أورده صاحب العقد الفريد عن دَارِمِيَّةَ الحَجُونِيَّة[1] قال : حجّ معاوية فسأل عن امرأة من بنى كنانة يقال لها دَارِمِيَّةُ الحَجُونيَّةُ فجىء بها فلمّا مَثَلَت بين يديه قال لها : «أتدرين لم بعثت إليك ؟ قالت : «لا يعلم الغيب إلّا الله» قال : «بعثت إليك لأسألك علام أحببت عليّا وأبغضتنى ؟ وواليته وعاديتنى» قالت : أحببت عليّا على عدله فى الرعيّة، وقسمه بالسويّة، وأبغضتك على قتال من هو أولى منك بالأمر ، وطلبتك ما ليس لك بحقّ . وواليت عليّا على حبّه المساكين ، وإعظامه أهل الدين . وعاديتك على سفكك الدماء ، وجورك فى القضاء ، وحكمك بالهوى » .

---

(١) الحجونية نسبة الى الحجون وهو جبل بمعلاة مكة .

فقال لها يا هذه : « هل رأيت عليّا » ؟ قالت : أى والله . قال : « فكيف رأيته » ؟ قالت : « رأيته والله لم يفتنه الملك الذى فتنك ، ولم تشغله النعمة التى شغلتك » .

ولرجال العلم وحُماة الدين وأقطاب السياسة من هذه الشجاعة نصيب أوفر، وحظّ أكمل، وهم كثيرون يعدّون بالمئات والألوف . ومنهم غلّيليو الفلكى نابغة الطليان فى القرن السابع عشر . كان هذا النابغة شديد الشغف بعلم النجوم وقد أوصلته بحوثه الفلكيّة إلى رأى فى العلم يخالف آراء أهل الكنيسة فى ذلك الوقت . رأى أنّ الأرض تدور حول الشمس وخالف فى ذلك القسّيسين والرهبان الذين كانوا يذهبون إلى ثبوت الأرض ويزعمون أنّ روح الكتاب المقدّس يؤيّد ذلك .

ولمّا سمع القساوسة برأيه غضبوا لدينهم وعقيدتهم غضبا شديدا وطلبوا إليه أن يترك بدعته ويرجع إلى عقيدة الكنيسة فأبى ولم يزدد إلّا ثقة وإيمانا . ولمّا رأوا إباءه وإصراره على رأيه كادوا له ، وما لبث أن أدخل السجن ونال من العذاب صنوفا وألوانا . ولكنّها الشجاعة ملأت قلبه فصبر على البلاء وتحمّل الإيذاء حبّا للحقّ وغراما به . وقد قيل إنّ القسّيسين ألحوا معه مرّة وجرّوه إلى القول بثبوت الأرض ولكنّه لم يغادر مجلسه حتّى عطف ثانية وضرب الأرض برجله وصاح « إنّها برغم ذلك تدور » .

ومن الذين اشتهروا بالجرأة فى الرأى "تومس مور" أحد نوابغ الإنجليز فى القرن السادس عشر فإنّه أتى من ضروب الصراحة فى القول والحرّيّة فى إظهار الرأى ما يعدّ عجبا . ذلك أنّ هنرى الثامن ملك الإنجليز فى ذلك الوقت أراد أن يطلّق

زوجه كاترين على غير ذنب جنته ويبنى بغيرها «آن بولين» لمجرد هوى فى نفسه .
ولما كانت الشريعة تأبى عليه ذلك طلب من رجال دولته أن يتلمسوا له فتوى ،
فعصى تومس وأبى عليه كل الإباء واعتزل منصبه الرفيع فى الحكومة وفضل الفقر
والفاقة على بيع النهية وطاعة الملك فيما ليس بسائغ ولا مشروع . فأسرّها الملك
فى نفسه ومضى فى تنفيذ هواه غير مكترث لمن أبى وخالف ، فطلق الأولى واعتزم
البناء بالثانية وأرسل يدعو وجوه دولته ليحضروا الكنيسة ويشهدوا عقد زواجه ، فقبل
الدعوة خلق كثير وأباها تومس غير هيّاب ولا وجل ، فثارت لذلك ثائرة الملك وغلت
مراجل حقده وعزم على الوقيعة به ، فدسّ عليه من اتّهمه مرّة بالرشوة ومرّة بالخيانة
فصفّد فى الأغلال وسيق إلى السجن فقضى فيه عاما أو نحو عام ، ثمّ دعى إلى مجلس
القضاء فلم يلق فيه عدلا ولا إنصافا ، جار القضاة فى حكمهم وقضوا بقتله وإعدامه .
وهكذا ذهب هذا الشهيد فى سبيل الحقّ وفى سبيل الإصاخة إلى داعى النهية .

القصد فى الطعام أمنع وقاية للأجسام

لا بدّ للجسم إذا أريد حفظ حياته ودوام بقائه من الغذاء ، يعتاض به عمّا يفقده
فى حركته ويعيد به ما دثر (١) من جوهره وانحلّ من مادّته صونا لشخصه من الفناء ،
وتكميلا لبنائه من النقص . فالغذاء هو المادّة التى يتناولها الحىّ للتعوّض بها عمّا يفقده
بسبب الأعمال الحيويّة التى يقوم بها ، وهو الذى يجدّد المادّة ويولّد باحتراقه الحرارة
اللازمة للجسم ويتكفّل برجوع القوّة إليه ودوامها فيه ، فعليه قوام (٢) الحياة وهو عمادها .

(١) دثر يدثر امحى وذهب ، دثر الرسم درس وزال أثره ، الداثر الهالك (٢) قوام الأمر نظامه وعماره وملاكه الذى يقوم به .

وقد قيل : إنّ الإنسان لا يعيش بدون هواء إلّا ثلاث دقائق وبدون ماء إلّا ثلاثة أيام وبدون طعام إلّا ثلاثة أسابيع ، وهو قول تقريبيّ قد يتخلّف فى كثير من الناس . غير أنّه من الواضح أنّ ضرورة الطعام للحياة كضرورة الهواء والماء ، ومثله كمثل الوقود والماء للآلة البخاريّة فكما أنّها لا تعمل بدونهما لا تقوم الحياة إلّا بالطعام .

هذا شأن كلّ كائن حىّ من إنسان وغيره . غير أنّ الحيوان الأعجم إنّما يعيش ليأكل ، ويطعمه صاحبه لينتفع به ويستغلّ ثمرة حياته ولا يقصد من بقائه أكثر من هذا . أمّا ذلك المخلوق الكريم الذى سخّر الله له ما فى الأرض جميعا وجعل كلّ ما فى الوجود طوع أمره ، يستخدمه فى بلوغ أغراضه ، ويستعين به على قضاء مآربه ، فإنّ حياته ثمينة ، ومطالبه منها عالية ، فهو إنّما يأكل ليعيش ، ويجعل غذاءه وسيلة لبقاء حياته التى هى ظرف لأعماله النافعة ، وقيامه بما خلق من أجله .

ولئن كان مضطرا إلى الطعام إنّه لفى شديد الحاجة إلى القصد فيه والاكتفاء منه ا يقيم صلبه ويمسك عليه رمقه[1] من غير إفراط ولا تفريط فإنّ الغذاء وإن كان قوام الجسم ، وبه تجديد قواه ، هو أيضا سبب عظيم من أسباب ضعفه ، وإلحاح[2] السقم عليه .

أمّا الإفراط فيه فهو أصل كلّ داء ، ومنبع كلّ شقاء ، وما مُنِى[3] جسم الإنسان بأضرّ من إدخال الطعام على الطعام ، وازدحام المعدة بما لا تقدر على هضمه ، فالمعدة بيت الداء ، وقلّ أن يجد الباحث فى دواعى الأسقام داعيا شرّا من الغذاء .

فإنّ الداء أكثرُ ما تراه * يكون من الطعام أو الشراب

---

(١) الرمق بقية الروح وقد يطلق على القوة — أى ما يمسك القوّة ويحفظها — وعيش رمق يمسك الرمق (٢) ألح السقم عليه لا زمه من ألح السائل فى السؤال إذا ألحف وألح الدائن على غريمه ضايقه وداوم مطالبه (٣) منى بكذا ابتلى به وأصيب .

وما ملأ ابن آدم وعاء شرًا من بطنه . وقد قال بعض الحكماء : إذا كنت نهما فعدّ نفسك من الزمنى[1] . والشبع الزائد داعية إلى البشم[2]، والبشم داع إلى السقم، والسقم داع إلى الموت، ومن مات هذه الميتة فقد مات ميتة لئيمة لأنه قاتل نفسه، وقاتل نفسه ألأم من قاتل غيره ، ذلك أن ذا الشراهة النهم لا بدّ له من إحدى حالتين : فهو إمّا أن يكون ذا معـدة تهضم ما تكتظ[3] به من ذلك الطعام الكثير ، وإمّا أن تعيا معدته بهضمه .

فإن كانت تقوى على هضـمه فإنّه لا يلبث أن تظهر عليه قطيفة من نسج أضراسه[4] . إذ ينشأ عن ذلك غالبا سمن مفرط ، قد يعوق عن الحركة ، ويثقل البدن، حتّى يستولى عليه الكسل، ولا ينشط إلى عمل، ويحول ذلك بين الإنسان والتصرّف فى معاشه والقيام بما يرجى منه ، ويجعله بالحيوان الأعجم أشبه منه بالإنسان العاقل . وقبيح بالمرء أن يجعل نفسه بهيمة وقد جعله الله إنسانا ، ومثل هذا إن قدّر له أن يمتدّ أجله كمثل منزل فخم[5] ينبو[6] بكلّ ساكن، ظاهره فيه الرحمة وباطنه من قبله العـذاب . وهيهات أن يكون لصـاحبه عقل مفكّر أو أثر محمود « منزل عامر وعقل خراب » . وقد ينشأ عن ذلك السمن المفرط البغيض أدواء فاتكة كالنقرس[7] ، وداء النقطة، والاستسقاء[8]، والقروح الجلدية، ثمّ لا يلبث الجسم

---

(١) جمع زمن أو زمين صفة من زمن يزمن زمانة وزمنة إذا أصيب بعاهة (٢) البشم التخمة وفعله بشم يبشم وقد أبشمه الطعام إذا أكثر منه فأصابته تخمة (٣) تمتلئ (٤) ظهرت عليه قطيفة من نسج أضراسه معناها سمن، القطيفة دثار مخمل (أى ذو خمل وهو كالهدب فى وجهه والمخمل كساء له خمل) أى ظهر عليه دثار من اللحم والشحم نسجته له أضراسه لكثرة أكله (٥) عظيم (٦) نبا به المنزل لم يوافقه ولم تلائمه سكناه (٧) النقرس ورم ووجع فى مفاصل الكعبين وأصابع الرجلين (٨) حرارة فى الجوف تجعل المصاب بها يكثر من شرب الماء .

أن يضعف فيه كلّ عضو ما خلا الدورة الدمويّة ، وإذا ضعف الجسم ضعف العقل فيضعف من الإنسان النبه والذكاء ، ويظلم سراج العقل وينطفئ منه نور الحكمة ويصير جسما بلا حلم . فمن الغالب أنّ المفرطين فى السمن يفقدون مضاء الذهن وإن كان لذلك شواذّ مشهورة .

هذا والسمان — كالنحاف — عرضة للأمراض الحادّة غير أنّ النحاف أقدر منهم على مقاومة المرض واحتمال الإصابة كما يغلب فيهم إن لم تكن نحافتهم مفرطة وليدة الأسقام والعلل أن يكونوا أمضى ذهنا وأحدّ ذكاء ولقد صدق القائل :

إذا كان الفتى ضخم المعالى * فليس يضرّه الجسم النحيل
تراه من الذكاء نحيف جسم * عليه من توقّده دليل

على أنّ البادنين[1] لا يستطيعون أن يحافظوا على صحتهم طويلا ، لأنّ شدّة السمن تجعل الرياضة متعذّرة فتفضى هذه الحال بالسمين إلى ارتخاء عضلاته وضعف تغذيتها . ثم إنّ تجمّع الدهن فى الصدر والبطن قد يعوق حركة الأحشاء فيهما إلى درجة الخطر . وأقرب شاهد على ذلك تجمّع الدهن حول القلب وعرقلة حركته حتّى يفضى ذلك إلى المرض العُضال[2] .

والسمن هو زيادة تجمّع الدهن تحت الجلد وحول بعض الأحشاء ، ولا بدّ لكل جسم صحيح سوىّ من مقدار من الدهن كثير أو قليل لقضاء وظائفه ولاستكماله

---

(١) البادن والبدين الجسيم السمين وبدن يبدن بدونا (كعقد) عظم بدنه بكثرة لحمه فهو بادن يستوى فيه المذكر والمؤنث وبدن بدانة مثل ضخم ضخامة كذلك فهو بدين (٢) داء عضال ومرض عضال أى معى غالب شديد وأعضل الأمر اشتدّ وتعضل الداء الأطباء وأعضلهم غلبهم .

شروط الحسن والجمال . وقد يكون الشخص كثير السمن ومع ذلك تراه صحيح الجسم نشيطا خفيف الحركة كبير الهمّة . ولا يحسب السمن مرضا إلّا إذا زاد زيادة سريعة مفرطة .

أعيذها نظراتٍ منك صادقةً * أن تحسَب الشحم فيمن شحمُه ورمُ

والسمن طبيعى فى بعض الأفراد والأُمم تبعا للمِزاج[1] والسنّ ، فربّ شخص يقبل جسمه النماء وآخر لا يكون بدنه مستعدّا له . وقد يكون السمن وراثيّا فى بعض الأسر فلا ينجع[2] فيه احتياط ولا علاج . على أنّ بعض العادات قد يزيد السمن . فممّا يزيده غالبا ترف المعيشة ، وقلّة الحركة ، والإفراط فى النوم ، وأكل المواد النَشَوية والسكّريّة . ولرخاء البال وخلو النفس من الأكدار أثر فى ذلك عظيم .

والهمّ يخترم[3] الجسيم نحافة * ويشيب ناصية الصبيّ ويُهرِمُ

هذا وربّما أفادت الحمّى أو بعض الأمراض الشديدة القصيرة المدّة ذوى السمن غير المفيد لأنّها تذهب بما فى أجسامهم من فضلة الدهن التى تزيد على الحاجة ، فتساعدهم بذلك على استخدام الوسائل الكثيرة النافعة لمنع تجمّع الفضول الدهنيّة مرّة ثانية «وربما صحّت الأجسام بالعلل» .

إذا علمت ذلك فهمت سرّ قولهم : «البِطْنة[4] تأفن الفطنة» فإنّ هذا حكم صحيح فى الغالب . لأنّ كثرة الطعام تستلزم كثرة ورود الدم إلى المعدة والأمعاء فيقلّ وروده

(١) مزاج البدن ما ركب عليه من الطبائع (٢) نجع الدواء وغيره ظهر أثره ونجع فيه الخطاب والوعظ والدواء أى دخل وأثر وبابه خضع (٣) اخترمهم الدهر وتخرمهم أى اقتطعهم واستأصلهم (٤) البطنة الامتلاء الشديد من الطعام وتأفن أى تذهب والمأفون الضعيف الرأى والعقل وأفن الناقة أو الشاة يأفنها أفنا أى حلبها فى غير حينها ولم يدع فى ضرعها شيئا . ومن هذا قيل للأحمق مأفون كأنه نزع عنه عقله كله وما فى فلان آفنة أى خصلة غير حميدة تأفن عقله .

إلى الدماغ مقرّ القوى العقليّة فتقلّ تقوية الدماغ ويضعف عمله . وبهذا يعلّل ما يعترى الإنسان من بلادة الفهم عقب الأكل وقبلما يتمّ هضم الطعام ، وما يرى منه من مضاء العقل فى الصباح وحين يتمّ هضم طعامه وإلى هذا أشار رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بقوله ناهيا عن الإفراط فى الطعام والشراب : «لا تميتوا القلب بكثرة الطعام والشراب فإنّ القلب كالزرع يموت إذا كثر عليه الماء» . ولمّا أهدى إليه الطبيب ردّه وقال : «لا حاجة لنا به فإنّا قوم لا نأكل حتّى نجوع وإذا أكلنا لا نشبع» .

ذلك إلى ما يصيب الأكول الحُطَمَة[1] من المضارّ الأدبيّة إذ يصبح همّـه بطنه وشراهتُه غالبةً على إرادته . وحسب الإنسان نقصا أن يكون حظّه من الحياة الطعام ، وأن يأكل كما تأكل الأنعام . ومن أضلّ ممّن اتّبع هواه وكان عبدا لبطنه ؟ أو من أضلّ ممّن ضعفت إرادته وخبا[2] زناد فكره حتّى أصبح من سَقَط المتاع[3] ! ؟

ولهذه المضارّ العظيمة التى يسوق إليها الإفراط فى المطعم نصح الخليفة الحكيم سيّدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه للناس فقال : وإيّاكم والبطنة فإنّها مكسلة للصلاة ، ومفسدة للجسم ، ومؤدّية إلى السَقم ، وعليكم بالقصد فى قوتكم ، فهو أبعد من السرف ، وأصحّ للبدن ، وأقوى على العبادة . وفى الحديث الشريف «من السرف أن تأكل ما شئت» .

وطالمـا كانت شهرة الإنسـان بالشَره[4] داعية إلى صغره فى النفوس ، وازدراء[5] العيون له ، وجعله عرضة للتهكّم والسخرية ، حتّى كان ذلك لكثير من الناس سبّة لزمهم عارها ، ولصق بهم شنارها[6] .

---

(١) الحطمة الكثير الأكل (٢) خبت النار تخبو خبوا أى طفئت وخمد لهبها (٣) سقط المتاع الردىء منه وما لا ينتفع به (٤) الشره غلبة الحرص على الطعام وفعله كفرح (٥) ازدراه عابه واحتقره واستهزأ به (٦) الشنار العيب والعار .

هذا كلّه إذا قويت المعـدة على الهضم . وأمّا الضرر الأكبر والخطب الفادح [(١)] والداء العُقام [(٢)] فحين تعجز عن ذلك ولا تستطيع إليه سبيلا . وهذا هو الغالب فيمن حمّل معدته ما لا طاقة لها به ولم يرفق بها ، لأنّ المعدة مع كونها أشدّ الأعضاء تعبا وأكثرها قياما بالعمل ضـعيفة الأجزاء ، رقيقة الأنسجة ، لطيفة التركيب ، فإذا أجهدت وحمّلت فوق قدرتها أسرع إليها العطب ، وأصابها الالتهاب ، وقد يعقبه غيره من الأمراض الأخرى وأخصّها المغص المعدىّ أو التهاب الأمعاء أو الكبد أو غير ذلك من الأدواء الخطيرة التى تنشأ عنها ، وتتفرّع منها ، والتى تنهك [(٣)] القوى ، وتكدّر صفو الحياة ، وتهدم بناء الجسم ، وتُدْنى إليه أجله ، فتحصُد زرع الشباب قبل أن يستوى على سوقه ، وتقطف ثمرة الحياة قبل ينعها [(٤)] ، وإن قدّر له طولُ عيش كان الموت خيرا له من الحياة ، إذ تَذْوِى [(٥)] نُضرته ، وتذبل زهرته ، ويبدّل من النعيم شقاء ، ومن الصحّة داء ، ولا خير فى حياة تنغّصها الأسقام ، وترنّق [(٦)] صفوها الآلام ، ومن حُرِم حُلّة المعافاة فى بدنه ، فقد حرم السعادة كلّها .

كذلك التفريط فى الغذاء والإقلال منه إلى حدّ لا يكفى البدن ولا يردّ إليه مثل ما يفقد منه ، وما أشبه الجسم بمورد ماء سائغ إذا كثر وزّاده ولم يمدّه الغيث وتمدّه السماء بأمطارها حتّى يكون ذا زيادة متّصلة ، ومادّة غير منقطعة ، نضب [(٧)] معينه

---

(١) الثقيل الباهظ (٢) داء عقام أى لا يبرأ لاستعصائه على المداوى وتقول بلاه بالسقام ورماه بالداء العقام (٣) نهكه المرض ينهكه من بابى نفع وتعب هزله وأضعفه وأضناه وجهده ، ونهك دنف وضنى فهو منهوك (٤) ينع الثمر كمنع وضرب ينعا حان قطافه كا ينع واليانع واليَنيع الثمر الناضج (٥) ذوى النبت يذوى ذويا ذبل (٦) رنقه كدره ورنق الماء كفرح ونصر أى تكدر (٧) نضب الماء كنصر وضرب نضوبا بعد وغار فى الأرض .

وجف ماؤه ، وكذا شأن من يبدّد من جســمه بالعمل والحركة ولا تكون له عناية بتعويض ما يفقده إذ لا يلبث أن تنهك قوته وتنهار[1] دعائم[2] بنيته .

"فربّ مخمصة[3] شرّ من التخم[4]" .

ولا تغلُ في شيء من الأمر واقتصد * كلا طرفي قصد الأمور ذميم

ولئن كان امتلاء المعدة ، وإفعام[5] وِطابها[6] شرّا مستطيرا[7] ، وداءً عُضالا ، إنّ شدّة الجوع لتؤدّي إلى ضعف البدن ، وتوهن ما اشتدّ من قوته حتّى يكاد يموت هُزْلا[8] ، وهيهات لمن عضّ الجوع أحشاءه أن يقدِر على عمل أو يقوى على حركة .

وإذا كان الغذاء هو مادّة الحياة والحافظ لكيان الجسم كان الاستغناء عنه مستحيلا وعدم الاكتفاء بالقدر اللازم منه ضارّا . وإذا كان الطعام غير كاف لتغذية الجسم ضـعفت قوة الدماغ بضعف تغذيته ، فالذين لا ينـالون كفايتهم من الطعام لا ينتظر منهم أن يشـتغلوا أشغالا عقليّـة كثيرة . وإذا أجدب الجسم ولم يحسن صاحبه تعاهده[9] والقيام عليه فهيهات أن يجنى منه ثمرة طيّبة ، ومن اشتدّ جوعه كان ضيّق الصدر فقير النفس .

---

(١) أنهار وتهور سقط وانهدم (٢) جمع دعامة وهي عمـاد ما يستند به الحائط ونحوه إذا مال يمنعه السقوط (٣) المخمصة المجـاعة وخمص خمصا فهو خميص إذا جاع والخمصـة الجوعة ويقال : ليس للبطنة خير من خمصة تتبعها (٤) التخمة ما يصيب الإنسان من الإفراط في الطعام وأصله من وخم (٥) أفعم ملأ (٦) جمع وطب وأصله سقاء اللبن وأفعم وطابها كناية عن ملء المعدة (٧) منتشرا ذائعا كثيرا (٨) الهزال النحافة نقيض السمن وقد هزل هزالا وهزل يهزل هزلا وهزله المرض أو الجوع يهزله (٩) تعاهد الشيء وتعهده تفقده وبحث عنه وأحدث العهد به .

ولو أنك غرست شجرة فى أُصِيص[1] ليس به من الطين ما يكفى غذاءها لوجدتها بعد قليل من الزمن قد فارقتها الخضرة ، وأصابها الذبول بعد النضرة ، فاصفرّت أغصانها ، ويبست أوراقها ، وعريت من زينتها ، وعَطِلت[2] من حليتها ، ذلك لأنّ الموادّ الغذائية فى تراب ذلك الإناء غير كافية لسدّ حاجتها ، والحيوان مثل النبات لا بدّ له أن يستوفى حظّه من القوت ، ويمدّ بما يكفيه منه وإلّا شحب[3] لونه ، وهزل بدنه ، ووهت قوّته ، وعجز عن القيام بما يرجى منه .

فأحمد الحالات أن يقصد المرء فى غذائه فلا يسرف فيه ولا يقتّر تقتيرا بل يكون بين ذلك قواما[4] . وقد قرّر الأطبّاء قديما وحديثا أنّ الاعتدال فى الغذاء هو الحصن الحصين لمصادمة الأمراض ، والحرز[5] الحريز لاتّقائها ، وإذا كان لأحدهما فضل على الآخر فالإقلال من الطعام خير من الإكثار منه ، وقد حثّ الأطبّاء والحكماء فى كلّ زمان ومكان على الإقلال منه وكرهوا الإفراط فيه ، وليس غرضهم من ذلك أن يجحف[6] الإنسان بحقّ بدنه فلا يمدّه بما يجب له ، بل يريدون الإمساك عن غاية الإكثار والبقيا على البدن عند اشتداد الرغبة . وأحسن ما يأخذ الإنسان به نفسه أن يتعاهد بدنه من الطعام بما يصلحه فى أوقاته وضروب حالاته بما لا يخلى المعدة ولا يكُظّها[7] فقد جعل الله لكلّ شىء قَدْرا . والقصد فى ذلك يجمع إلى صحّة البدن ذكاء الذهن ،

---

(١) الجرّة تزرع فيها الرياحين (٢) عطلت المرأة عطلا وعطولا وتعطلت فهى عاطل اذا لم يكن عليها حلى والتعطيل الإفراغ والإخلاء وترك الشىء ضياعا (٣) شحب لونه كنع ونصر وكرم وشحب شحوبا وشحوبة تغير من هزال أو جوع أو سفر (٤) القوام العدل والاعتدال والقصد (٥) الموضع الحصين (٦) أجحف به كافه ما لا يطيقه ونقصه حقه نقصا فاحشا (٧) كظه الطعام ملاه حتى لا يطيق النفس فاكتظ والكظة البطنة وشىء يعترى الآكل من كثرة الطعام .

وإلى صفو العيش صلاح الدين والدنيا . فمن أحبّ الحياة فهذه سبيلها ، ومن أحبّ الموت فلا أبعد الله غيره .

هذا ولعناية الأطبّاء والحكماء والمصلحين بتدبير الجسم وحرصهم على تمتّع المرء بصحّته وعلمهم بما فى طرفى الإفراط والتفريط فى الطعام من المضارّ التى تسوء مغبّتها بالغوا فى الاحتياط لذلك ، فقدّر كثير منهم المقدار الذى ينبغى للمرء أن يسمح به لنفسه كلّ يوم ، واختلفوا فى تقدير ذلك وفى عدد المرّات التى يتناول فيها الغذاء مبالغة منهم فى الحرص على الاعتدال ، حتّى كان منهم من رأى الاكتفاء بالوجبة (١) وإن كان أكثرهم يسمح بتجاوزها .

على أنّ قدر الغذاء ونوعه وما يفيد الجسم منه قد يختلف فى الناس باختلاف اجناسهم وبيئاتهم (٢) وأسنانهم وباختلاف درجة النشوء فيهم وتفاوت أجسامهم وتغاير أعمالهم ونحو ذلك مما يجعل المساواة بينهم فى التغذية غير ميسورة . فإنّك ترى الذين ينتابهم (٣) شظف (٤) العيش فلا يحصلون إلّا على كفافهم (٥) منه يوما فيوما من الصيد أو من جنى (٦) الثمار تؤثر فيهم عوامل الجوع والشبع فيعتريهم القرم (٧) والنهم (٨) . ومتى ظفروا بأكلة فإنّهم لا يزالون يلتهمونها (٩) حتّى يأتوا على آخرها كما يفعل الإسكيمو إذا اصطادوا حوتا

(١) الوجبة الأكلة فى اليوم والليلة ووجب وأوجب أكل أكلة واحدة بالنهار ووجب المرء اعتاد الوجبة (٢) جمع بيئة وهى الحالة (٣) انتابه الأمر نزل به وأتاه مرة بعد أخرى (٤) الشظف الضيق والشدة ويبس العيش وشدّته والشظف يابس الخبز وفعله كفرح فهو شظف (٥) الكفاف من الرزق ما كف عن الناس وأغنى عن سؤالهم (٦) الجنى ما يجتنى من الثمر وفى القرآن الكريم «وجنى الجنتين دان» (٧) القرم شدة شهوة اللحم وقد قرم الى اللحم كفرح (٨) النهم إفراط الشهوة فى الطعام ونهم كفرح وعنى فهو نهم ونهيم (٩) التهم الطعام ابتلعه بمرة ورجل لَهِم كفرح ولُهَم كصرد أكول .

فإنّهم يستمرئون على استراط لحمه أيّاما[1] حتّى يصبح أثرا بعد عين . أمّا من امتلأت عينه بالخيرات وأسعده حسن الحظّ بزينة الله التى أخرج لعباده والطيّبات من الرزق وعرف الغرض المقصود من الطعام فإنّه يعتاد القناعة، ولا سيّما إذا أخذ نفسه بها منذ نشأته حرصا على جودة صحّته وعقله . وكذلك من عوّد نفسه أن يمدّها بكلّ ما تشتهى ويُفْعِم بطنه بكلّ ما أراد لا يلبث أن تصبح الشراهة عادة له مذمومة «إنّ الطعام يقوّى شهوة النهم» .

ولمّا كان لا يتيسّر للسواد الأعظم من الناس أن يحيطوا علما بالمقدار الذى يستنفد كلّ يوم من أجسامهم وما يحتاج إليه كلّ منهم لتعويض ما يفقده من بدنه قضت حكمة البارئ الحكيم تعالى أن أودعت كلّ قلب دليلا يرشد صاحبه إلى مطالب جسده . وليس هناك أصدق منه إعلاما باحتياج البدن وكفايته . ولا أسهل منه اتّباعا . وذلك هو ميل النفس إلى الطعام وشدّة رغبتها فيه وصدق طلبها إيّاه ، فله فى استمراء[2] الطعام أوفر حظّ لأنّه دليل على الموافقة والملاءمة . فمتى أحسّ المرء من نفسه ميلا حقّا إلى الغذاء فليقدم عليه . وحذار بعد أن يقارب الشبع أن يرهق معدته من أمرها عُسْرا[3] ، وأن يزيدها لقمة واحدة وإن كانت فى نظره سائغة .

فكم من لقمة منعت أخاها * بلذّة ساعة أكلاتِ دهر

---

(١) سرط الطعام واسترطه ابتلعه وانسرط فى حلقه الطعام سار سيرا سهلا والمسرط البلعوم

(٢) استمرأه وجده مريئا ومرأ الطعام ومرئ ومرؤ فهو مرىء هنىء حميد المغبة والمرىء مجرى الطعام والشراب (٣) أرهقه حمله ما لا يطيق وأرهقه عسرا كلّفه إياه .

والطبع يقود الإنسان إلى ما هو صالح له . وقوانين الطبيعة صالحة كلّها لا يشق من يتّبعها . ولا يضلّ من بها يهتدى . والمرء يحيا بما يهضمه لا بما يأكله فلا ينبغى أن يأكل ما لا يهضم .

ولقد سئل بعض الأطبّاء عن أفضل الغذاء فقال : أن ترفع يدك عن الطعام وأنت تشتهيه . ودعا عبد الملك بن مَرْوان رجلا إلى الطعام فقال : ما فىّ فضل يا أمير المؤمنين . فقال عبد الملك : لا خير فى الرجل يأكل حتّى لا يكون فيه فضل .

وسأل عبد الملك بعض الحكماء من العرب : هل اتخمت قطُّ ؟ فقال لا : يا أمير المؤمنين ؛ قال : وكيف ذلك ؟ قال : لأنّا إذا طبخنا أنضجنا ، وإذا مضغنا دقّقنا ، ولا نَكُظّ المعدة ولا نخليها .

وقيل لبُزُرْجُمْهر[1] : أىّ وقت يكون الطعام فيه أصلح ؟ فقال : أمّا لمن قدر فإذا جاع ، وأمّا لمن لم يقدر فإذا وجد .

وبعد فللعادة فى ذلك أثر عظيم ، الا ترى أنّ من اعتاد الغَدَاء[2] فتركه واقتصر على العشاء[3] عظم ضرر ذلك عليه . ومن اعتاد الوجبة ثمّ زاد عليها لم يستمرئ طعامه . ومن كانت عادته أن يجعل غذاءه فى وقت من الأوقات فنقله إلى غير ذلك الوقت أضرّ هذا به ، وإن كان قد نقله إلى وقت محمود . فالواجب فى هذا أن يراعى العادة إذا تقادمت فطال عليها العهد ، وأن يتّبع ما ألفه الجسم ، فإن حدث ما يدعو الإنسان إلى الانتقال عمّا اعتاد فأوفق الأمور له فى ذلك أن ينتقل قليلا قليلا وأن يخرج عمّا

---

(١) وزير كسرى وكان حكيما عاقلا مدبرا سديد الرأى (٢) الغداء طعام الغدوة وتغدى أكل أوّل النهار (٣) العشاء طعام العشى وعشى وتعشى أكله وتقول فلان غديان وعشيان .

ألفته نفسه رويدا فشديد عادة منتزعة . ولهذا يحسن بالمرء أن يأخذ نفسه منذ حداثة عهده بتنظيم مواعيد طعامه وتحديد أوقاتها، حتّى يعتاد جسمه طلب الغذاء فى حينها، وتلك عادة حميدة درج[1] عليها عقلاء الناس، وعُنيت بها الأمم الراقية . فمن العادات المتّبعة فى البلاد المتمدينة أن يأكل الإنسان قليلا فى أوقات معيّنة مرّة او مرّتين أو ثلاث مرّات أو أكثر فى اليوم وهى عادة حسنة لا بدّ لنا من السير عليها وتطبيقها على أعمالنا التى نقوم بها . ثمّ لا بدّ فى تعيين أوقات الطعام وعدد مرّاته فى اليوم من ملاحظة الأعمال التى نعملها والأوقات التى نتمكّن بها من أكل الطعام وهضمه فالذين يتولّون الأعمال العقليّة مثلا والذين يؤدّون أعمالهم جلوسا قد يكتفون بالأكل مرّة واحدة، أمّا الذين يقومون بالأعمال البدنيّة العنيفة[2] فلا بدّ لهم أن يأكلوا مرّتين فى اليوم على الأقل .

ولا يغترّنّ المرء ما قد يجده فى نفسه من الصحّة والإقبال على التزيّد من الطعام والرغبة الكاذبة فيه . وليعلم أنّ الحِمية[3] رأس الدواء، فلا ينبغى أن يعدل عنها ثقة بقوّة جسمه أو اعتمادا على الدواء .

توقّى[4] الداء خير من تصدٍّ[5] * لأيسره وإن قرب الطبيب

هذا ولقد روى التاريخ عن بعض الناس أنّهم عرفوا بالنهم فنقم[6] الناس منهم ذلك ولهجت[7] الألسنة بسيرتهم، وإنّك لتجد فى كتب التاريخ والأدب حكايات كثيرة عن الأكّالين وحوادث ذوى التطفّل، وإن كان بعض هذه الأخبار ممّا خرج عن

---

(١) جرى وسار (٢) الشديدة (٣) حمى المريض ما يضره حمية منعه إياه فاحتمى وتحمى أى امتنع (٤) توقى الشىء واتقاه حذره (٥) تصدّى للشىء تعرض له واستشرفه ناظرا إليه (٦) نقم منه كذا ينقم كرهه (٧) لهج به كفرح أغرى به فثابر عليه .

الحدّ ووضعه الناس للفكاهة والطرائف ، ومن أشهر من عرف بذلك وضرب به المثل في الشراهة والطمع أَشْعَبُ بن جُبير المدني ، وهو من موالي سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه وتوفي سنة ٥٤ هـ وكان صاحب نوادر وملح (١) في الطمع والحرص على الطعام ، وكان يجيد القراءة والغناء وله فيهما صوت حسن ، ومما يحكى عنه أن بعض إخوانه عزم (٢) عليه ليأكل عنده فقال : إني أخاف من ثقيل يأكل معنا ، فقال له صاحبه : لا تخف فليس معنا ثالث . فمضى معه فبينا هما يأكلان إذا بالباب يطرق فقال أشعب : ما أرانا إلا صرنا إلى ما نكره . فقال له رب البيت : إنه صديق وفيه عشر خصال إن كرهت واحدة منهن لم آذن له . فقال أشعب : هات أولها . قال : إنه لا يأكل ولا يشرب . فقال أشعب : التسع لك فدعه يدخل فقد أمنا ما كنا نخافه . وأراد أن يشتري قوسا فطلب البائع منه دينارا فقال له : لو كنت إذا رميت عنها سهما أصاب طائرا فوقع مشويا بين رغيفين ما اشتريتها بدينار . وقال له يوما سالم بن عبد الله بن عمر : ما بلغ من طمعك يا أشعب ؟ فقال : ما نظرت إلى اثنين في جنازة يتساران إلا قدرت أن الميت أوصى لي بشيء . ولقد طاف الصبيان حولي يوما يتولعون (٣) بي فأردت أن أبعدهم عني فقلت : إن في دار فلان لوزينجا (٤) يفرق ، فذهبوا يتعادون ، فلما فصلوا (٥) عني ظننت أني صادق فتبعتهم . ومر أشعب برجل يصنع وعاء من الخوص فقال له : أحب أن تزيد فيه طبقة فقال الصانع ، لم ؟ قال : عسى أن يهدى إلي فيه شيء فيكون أكثر .

---

(١) جمع ملحة وهي من الأحاديث السارة المضحكة والطريف المعجب (٢) أي أقسم عليه (٣) تولع بفلان يذمه ويشتمه أغرى به ولازمه وهو متولع بعرضه يلسع فيه (٤) نوع من الحلوى يعمل باللوز وهو معرب (٥) بعدوا .

ولقد تطرّف من قال فى كذب مسيلمة وطمع أشعب .

وتقــول لى قولا أظنّك صادقا * فأبوء من طمع إليك وأذهب

فإذا اجتمعت أنا وأنت بمجلس * قالوا مسـيلمة وهــذا أشـعب

وممّن ضرب به المثــل فى مثل ذلك طُفَيْل ، ويدعى طفيــل الأعراس وهو رجل من أهل الكوفة كان يأتى الولائم بدون أن يدعى إليها وكان يقول : وددت لو أنّ الكوفة كلّها بركة مصهرجة[(1)] فلا يخفى علىّ منها شىء . ثمّ سمّى كلّ من عمل مثله طفيليّا نسـبة إليه وصرّفوا منه فعلا فقالوا طفل فلان وتطفّل ، والعرب تسمّى الطفيلىّ الراشن والوارش والواغل . وكان أحمد بن أبى خالد وزير المأمون وكاتبه من الشره والنهم والتهاب المعدة بحيث يضرب به المثل فيقال : «آكل من ابن أبى خالد» و «أنهم من ابن أبى خالد» .

ويحكى عنه أنّه ولّى رجلا كُورة[(2)] جليلة بخِوان[(3)] فالوذج أهداه إليه ، وكان إذا عوتب على ما يهدى إليه من المأكول يقول : ما أصنع بطعام يهديه إلىّ صديق لى ؟ الله يعلم أنّى أستحيى من ردّه عليه . ولمّـا عرف المأمون شرهه وقبوله كلّ ما يهدى إليه وإجابته كلّ من يدعوه وأنّه لا يكاد يزايل الطعام إلّا إذا طَمِئَت[(4)] نفسه أجرى عليه كلّ يوم ألف درهم نُزُلا[(5)] فلم يفارق مع ذلك شراهته . وفيه يقول الشاعر .

---

(١) صهرج الحوض طلاه مأخوذ من الصاروج كلمة فارسـية معربة وهى النورة وأخلاطها التى يطلى بها الحيطان (٢) الكورة الناحية والصقع (٣) الخوان ما يؤكل عليه الطعام وجمعه أخونة وخون «وهو معرب» (٤) طمئ كفرح وجمع فهو طمىء أتخم وقد أطمأه الشبع (٥) ما يهيأ للنزيل وهو أيضا الطعام الكثير .

شكرنا الخليفة إجراءه * على ابن أبى خالد نُزْله
فكفّ أذاه عن العالمين * وصيّر فى بيته أكله

وليم بعض المتطفّلين على صنعه فقال : والله ما بُنِيَت المنازل إلّا لتُدخل ، ولا قدّمت الأطعمة إلّا لتؤكل ، وإنّى لأجمع فى التطفيل خلالا : أدخل مخالسا [1] ، وأقعد مستأنسا ، وأنبسط [2] وإن كان ربّ المجلس عابسا ، ولا أتكلّف مَغْرما [3] ، ولا أنفق درهما .

وقصد جماعة من الطفيليّين باب بعض الكبراء وقت غذائه فمنعهم بوّابه أن يدخلوا فكتب إليه بعضهم .

قد قصدناك زائرين خفافا * وعلمنا بأنّ عندك فضله [4]
ولدينا من الحديث هَنات [5] * معجباتٌ نعدّها لك جمله
إن تجدنا كما تريد وإلّا * فاحتملنا فإنّما هى أكله

ومن دعاء بعض الطفيليّين : اللهم ارزقنى صحّة الجسم ، وكثرة الأكل ، ونقاء المعدة . وقد أجاد من قال فى وصف طفيلىّ .

لو طبخت قدر بمطمورة [6] * فى الشام أو أقصى جميع الثغور
وأنت بالصين لوافيتها * ياعالم الغيب بما فى القدور

---

(١) من اختلس الشىء وخلسه سلبه وأخفاه بسرعة ومهارة والاسم منه الخلسة ، يقال : الفرصة خلسة ، ورجل مخالس شجاع والمختلس السالب على غرة . وخالسه غافله وانتهز غرته وغفلته ليختلس منه ما يطمع فيه (٢) بسطه سره فانبسط والانبساط ترك الاحتشام ويقال بسطت من فلان فانبسط أى أزلت منه الاحتشام ورفعت عنه الكلفة ، وإنه ليبسطنى ما بسطك ويقبضنى ما قبضك أى يسرنى ويطيب نفسى ما يسرك ويسوءنى ما ساءك (٣) المغرم والغرم والغرامة ما يلزم أداؤه وهو ضدّ المغنم (٤) الفضلة والفضالة ما فضل من الشىء وبقى زائدا (٥) أشياء (٦) المطمورة الحفيرة تحت الأرض والطمر الدفن والخبء وطمر الشىء أخفاه .

(المطبعة الاميرية ٤٩٤/١٩٢٨/١٥٠٠٠)


Bibliotheca Alexandrina
0428754